الآداب ٢

مجلة شهرية تعنى بشؤون الفكر

تصدر عن دار العلم للملايين - بيروت

ص. ب ١٠٨٥ - تلفون ٢٦٩٩٦ - ٢٤٥٠٢

AL-ADAB *REVUE MENSUELLE CULTURELLE*

BEYROUTH - LIBAN B.P. 1085

Tél- 24502

المدير المسؤول : بهيج عثمان

رئيس التحرير : الدكتور سهيل ادريس

Rédacteur en chef : SOUHEIL IDRISS

Directeur : BAHIJ OSMAN

العدد الثاني

شباط (فبراير) ١٩٥٦

السنة الرابعة

No. 2 - Février 1956

4ème Année

قصة راشيل شوارزنبرغ

قصيدة لنزار قباني

أكتبُ للصغارْ
للعرب الصغار حيث يوجدونْ
لهم على اختلاف اللون .. والاعمار .. والعيونْ
أكتبُ للذين سوف يولدونْ
لهم انا أكتبُ .. للصغارْ
لأعين يركضُ في احداقها النهارْ
اكتبُ باختصارْ
قصة ارهابية مجنّدهْ
يدعونها راشيلْ
قضت سنينَ الحرب في زنزانةٍ منفردهْ ..
كالجرذ .. في زنزانة منفردهْ ..
شيّدها الالمان في براغْ
كان ابوها قذراً من اقذر اليهودْ
يزوّر النقودْ ..
وهي تدير منزلاً للفحش في براغْ ..
يقصده الجنودْ ..
وآلت الحربُ الى ختامْ
وأعلن السلامْ
ووقّع الكبار
اربعةٌ يلقبون نفسهم .. كبارْ
صكَّ وجود الامم المتحده ..
وابحرتْ من شرق اوروبا .. مع الصباحْ
سفينة تلعنها الرياحْ
وجهتها الجنوبْ
تغصّ بالجرذان .. والطاعون .. واليهودْ
كانوا خليطاً .. من سُقاطة الشعوبْ ..
من غرب بولندا ..
من النمسا ..
من استمبولَ .. من براغْ
من آخر الأرض .. من السعيرْ
جاؤوا .. الى موطننا الصغيرْ ..
موطننا المسالم الصغيرْ ..
فلطّخوا ترابنا ...
واعدموا نساءنا
ويتّموا اطفالنا ..
ولا تزال الامم المتحده ..
ولم يزل ميثاقُها الخطيرْ ..
يبحثُ في حرية الشعوبْ ..
وحق تقرير المصيرْ ..
والمثُل المجرّده ..
فليذكر الصغارْ ..
العربُ الصغار .. حيث يوجدونْ

- التتمة على الصفحة التالية -

من ولدوا منهم .. ومن سيولدون
قصة ارهابية مجنّده..
يدعونها راشيل ..
حلّت محلّ امي الممدّده..
في ارض بيارتنا الخضراء في الخليل ..
أمي انا الذبيحة المستشهده ..
وليذكر الصغار
حكاية الارض التي ضيّعها الكبار
والامم المتحده..

***

أكتب للصغار
قصة بئر السبع .. واللطرون .. والجليل
واختيَ القتيل
هناك في بيّارة الليمون، اختيَ القتيل
هل يذكر الليمونُ في الرملة .. في اللدّ .. وفي الخليل ؟
أختي التي علّقها اليهودُ في الاصيل
من شعرها الطويل ..
اختي انا نوارُ ..
أختي انا الهتيكة الازار ..
على ربى الرملة والجليل
اختي التي ما زال جرحها الطليل
ما زال بانتظار
نهار ثار واحداً .. نهار ثار
على يد الصغار
جيل فدائي من الصغار ..
يعرفُ عن نوار ..
وشعرها الطويل
وقبرها الضائع في القفار ..
اكثر مما يعرفُ الكبار ..

***

اكتبُ للصغار ..
اكتب عن يافا .. وعن مرفئها القديم
عن بقعة غالية الحجار ..
يضيء برتقالها كخيمة النجوم ..
تضم قبر والدي .. واخوتي الصغار ..

هل تعرفون والدي ؟
واخوتي الصغار ؟.
اذ كان في يافا لنا .. حديقة .. ودار ..
يلفّها النعيم
وكان والدي الرحيم ..
مزارعاً شيخاً يحب الشمس .. والتراب ..
والله .. والزيتونَ .. والكروم ..
كان يحبّ زوجهُ ..
وبيتَه ..
والشجر المثقل بالنجوم ..
.. وجاء اغراب مع الغياب ..
من شرق اوروبا .. ومن غياهب السجون
جاؤوا كفوج جائع من الذئاب ..
فأتلفوا الثمار ..
وكسّروا الغصون ..
واشعلوا النيران في بيادر النجوم ..
والخمسة الاطفال في وجوم
والليل في وجوم
واشتعلت في والدي ..
كرامةُ التراب ..
فصاح فيهم : اذهبوا الى الجحيم ..
لن تسلبوا ارضيَ .. يا سلالة الكلاب !..
.. ومات والدي الرحيم
بطلقة سددها كلبٌ من الكلاب
عليه ، مات والدي العظيم
في الموطن العظيم ..
وكفّه مشدودةٌ شدّاً الى التراب
فليذكر الصغار
العربُ الصغار حيث يوجدون
من ولدوا منهم .. ومن سيولدون
ما قيمةُ التراب
لانّ في انتظارهم
معركةَ التراب ..

لندن — نزار قباني

على هامش المؤتمر الدائم لقضايا الوطن العربي

حول الوحدة والاتحاد

بقلم شبلي العيسمي

بعد ان عرضنا في المقال السابق (*) وجهات النظر المتعددة حول اسباب التجزئة في الوطن العربي ، وذكرنا الآراء المختلفة التي تتبناها الفئات القومية وترى فيها سبيلا للوحدة ، نعود لنذكر في هذا المقال الشروط الضرورية للوحدة والوسائل العملية المؤيدة لتحقيقها كما تبدو لنا .

وقبل ان نخوض في هذا الموضوع لا بد من الاعتراف بأنه موضوع شائك دقيق ، وأن الآراء التي سنعرضها حوله تفتقر الى جانب من الدقة والتركيز . وعلى الرغم من ذلك كله فقد اردنا اثارته والخوض فيه ، راجين من هذه المحاولة ان نثير اهتمام المسؤولين والمفكرين العرب ، وان نحملهم على تقديم مالديهم من جد وجهد لتوضيح هذا الموضوع الخطير في اذهان افراد الشعب وحملهم على تبنيه والنضال من اجله .

***

نعتقد انه من الاصح ان يطرح موضوع الوحدة والاتحاد بالشكل التالي :

أ — الاوضاع الاقتصادية في الوطن العربي سيئة فاسدة ، وتوزيع الثروات فيه جائرغير عادل لانه يقوم على اسس اقطاعية رأسمالية تستطيع الاقلية في ظلها ان تستثمر الاكثرية وتبقيها مغلولة اليد مشلولة الانتاج . ثم ان هذا الوطن العربي غني بالامكانيات البشرية والخيرات الطبيعية ، ولكن الشعب فيه فقير متخلف في وسائله وانتاجه .

وينتج من ذلك ان حاجة العرب ماسة لتحقيق الاشتراكية .

ب — اما من الوجهة السياسية والاجتماعية فنلاحظ ان الفئات العاملة بالسياسة لا تزال — في اكثريتها — ضعيفة الثقة بنفسها وبامكانات امتها ، بل يكاد بعضها يرى في الاستعمار قدراً لا يمكن للعرب ان يتخلصوا منه ولا بد من مسايرته والاعتماد عليه ، كما يرى ان قوى الرجعية لا تزال مسيطرة على الثروة والتوجيه ويصعب القضاء عليها في هذه المرحلة على الاقل .

واذا اضفنا الى ذلك كله تلك القيود الاجتماعية البالية والاعتبارات التقليدية المهترئة التي ما زالت تفعل فعلها في عرقلة التحرر ، ادركنا الحاجة الماسة الى جيل عربي جديد منظم ، يتوفر فيه الوعي والايمان والشعور بالمسؤولية ، جيل يثق بنفسه ويؤمن بقدرة امته على التحرر من تحكم الاستعمار والرجعية وسيطرة الاوضاع الاجتماعية البالية ، ولن يتم ذلك الا بان نجعل من الحرية شعاراً نناضل في سبيله ونرخص النفس من اجله .

ج — اما من الوجهة القومية فنلاحظ ان بقاء التجزئة بقاء للاستعمار وتدعيم لسيطرة الاقلية المستغلة التي تبني قوتها على حساب مصلحة العرب العليا ، ليس هذا فحسب بل ان بقاء التجزئة بقاء للضعف والذل واستمرار للفشل والانحلال. ولهذا كان من الطبيعي ان تكون الوحدة العربية هدفاً اساسياً للعرب في هذه المرحلة التاريخية .

وينتج عن عرضنا الموضوع بهذا الشكل ان الحرية والاشتراكية والوحدة العربية ثلاثة اهداف مترابطة متلازمة تجمعها غاية واحدة هي تحقيق الانبعاث العربي المنشود. كما ان هذه الاهداف الثلاثة ليست غاية في حد ذاتها ولكنها وسيلة تؤدي — بعد تحقيقها — الى النهضة الشاملة العميقة حيث تنطلق مواهب العرب الدفينة وتتفجر امكاناتهم الحبيسة ويستطيعون عندئذ ان يساهموا في بناء الحضارة الانسانية بما عرف عنهم من خصب الحيوية والابداع .

ونحن اذ نعتقد بان هذه الاهداف الثلاثة كل موحد متشابك لا يصح فصله وتجزئته فلأن تحررنا من سيطرة الاستعمار والرجعية يتجلى في تحقيق الوحدة والاشتراكية .

> **« ان الحاجة ماسة الى جيل عربي جديد منظم ، يتوفر فيه الوعي والايمان والشعور بالمسؤولية ، جيل يثق بنفسه ويؤمن بقدرة امته على التحرر من تحكم الاستعمار والرجعية وسيطرة الاوضاع الاجتماعية البالية. ولن يتم ذلك الا بان نجعل من الحرية شعاراً نناضل في سبيله ونرخص النفس من اجله »**

* راجع العدد الثاني عشر من السنة الماضية من «الآداب».

كما ان تحقيق الاشتراكية يحطم قيود الفقر المكبلة للمواطنين ويضاعف من قدرتهم على النضال في سبيل الحرية والوحدة . ومن البديهي كذلك ان تحقيق الوحدة بين الاقطار العربية يضاعف من قواهم النضالية في سبيل الحرية .

***

بعد هذه الاشارة الى الملاحظات الآنفة الذكر والتي نعتبرها اساسية في معالجة الموضوع نعود لنحصر البحث في الاجابة عن السؤال التالي :

ما هي الشروط الضرورية للوحدة وما هي الوسائل العملية المؤدية لتحقيقها ؟

ا – **لعل الشرط الاول** هو وضوح الهدف وقوة جاذبيته للشعب وقدرته على استقطاب الجمهور بحيث يشعر بانه حاجة ماسة له وبان تقدمه رهن بتحقيقه . غير ان ذلك كله لن يتحقق ما لم تتوفر الاسس التالية :

اولاً : ان يكون الهدف ملائماً لاتجاهات العصر الحديث ومسايراً لمنطق التطور والعلم .

ثانياً – ان يكون معبراً بصدق وعمق عن حاجات الامة ومصالحها الحيوية .

ثالثاً – ان يقوم على اساس من الدعاية المركزة والتنظيم المحكم .

ولنرَ هل تتوفر هذه الاسس في الوحدة العربية ؟

ا – من المعروف ان الاستعمار يخسر ويتراجع في هذا القرن ، وتضعف قوته في عرقلة الوحدات القومية ، ثم ان اتجاهات الشعوب في العصر الحديث ومنطق التطور لا تسير في الاتجاه الذي يخلق الكتل القوية على اسس قومية فحسب ، بل وفي الاتجاه الذي يقود لتشكيل نوع من الاتحادات بين امم مختلفة لا يربط بينها سوى المصلحة والحاجة لتكون القوة القادرة على رد الاعتداء من دولة كبرى .

وما دام الامر كذلك ، فمن الطبيعي ان يكون نضال العرب من اجل الوحدة متلائماً لاتجاه العصر الحديث ومنسجماً مع منطق التطور السياسي والاجتماعي بين الامم .

ب – اما الاساس الثاني ، وهو ان تكون الوحدة معبرة بصدق وعمق عن حاجة العرب اليها ، فامر لا يستطيع انكاره وتجاهله الا كل مكابر مأجور او شعوبي موتور ، ذلك لأن الشعب العربي ، بجميع هيئاته – من عمال وفلاحين ، وتجار وموظفين لم يقف عند حد الشعور بالحاجة للوحدة بل تعداه الى العمل من اجلها والنضال في سبيلها ، وخاصة بعد كارثة فلسطين حيث توفرت القناعة بضرورة توحيد الجهود واعتبار النضال الموحد شرطاً في تحقيق الوحدة .

ج – اما من حيث التنظيم والدعاية المركزة وهما الاساس الثالث لقوة الهدف ووضوحه ، فانهما يفتقران حتى الآن الى قسط كبير من الدقة والتركيز . ونستطيع القول مع الأسف الشديد ان الفوضى والارتجال وطغيان الأقوال على الأعمال لا تزال الطابع المميز للمنظمات السياسية . ولكن كثيراً ما يولد التنظيم من داخل الفوضى كما يولد الفرج من الشدة او الأمل من اليأس . والواقع ان منظمات سياسية ظهرت حديثاً في ارض العرب من خلال هذه الفوضى . واخذت تناضل في سبيل الوحدة على اساس من العمل الحزبي المنظم القائم على الوعي للاهداف والايمان بها وتركيز الدعاية لها ، ثم السعي للوصول الى التنظيم المحكم الدقيق المتلائم مع جسامة الهدف .

٢ – **اما الشرط الثاني للوحدة** : فهو معرفة الاسلوب الملائم لهذه المرحلة التاريخية من حياة العرب ووضوح هذا الاسلوب بين قادة الشعب وقاعدته :

اذا علمنا ان فساد الاوضاع في الوطن العربي عام شامل لجميع مناحي الحياة ، وان التخلف والجمود متغلغلان في شتى المجالات ، في الفكر والسياسة والاقتصاد ، واذا علمنا ان الحاجة اصبحت ملحة لتغيير هذه الاوضاع تغييراً جذرياً شاملاً ، ثم اضفنا الى ذلك كله ان هذا العصر عصر الذرة والسرعة الهائلة ، ادركنا عندها ان اسلوب التطور العادي والاصلاحات التقدمية الجزئية لا يكفي بل لا يفي بالحاجة ولا يتلاءم مع جسامة الهدف المنشود ، وادركنا كذلك ان الاسلوب المطلوب الملائم لهذه المرحلة التاريخية انما هو الاسلوب الانقلابي الذي يعتمد على النضال الشعبي المستمر العنيد ، الاسلوب الذي يتخطى السطح ويتجاوز القشور والمظاهر ليغوص الى الاعماق ويبدل هذه الاوضاع المستشرية تبديلاً يتناول الاسس والجذور ، ولا يقتصر على بعض المشاكل والامور بل يشمل في تبديله جميع مناحي الحياة الفكرية والسياسية والاجتماعية والاقتصادية .

وبعد : فان الذين يعتقدون بان المناورات السياسية

والمهارة الدبلوماسية تحقق للشعب في عام واحد مالا يحققه النضال الشعبي في عدة اعوام ، وان الذين يصرفون اكثر اوقاتهم وجهودهم في العمل السياسي ويهملون توضيح الاهداف القومية للشعب وتنظيم قواه على اساس العمل الحزبي المنظم والاسلوب الانقلابي ، ان هؤلاء يرتكبون خطأ فادحاً اذا استمروا في مثل هذا السلوك . ويبدو ان اختيار هذا الطريق السياسي راجع الى السهولة وسرعة الحصول على نتيجته الموقتة ، في حين ان طريق النضال الشعبي المرتكز على الوعي والايمان والتنظيم هو الطريق الرابح المضمون بالرغم من طوله وصعوبته .

٣ — **اما الشرط الثالث للوحدة** : فهو ايجاد الوسائل العملية والادوات المنفذة المتكافئة مع الهدف : فالوحدة العربية هدف ضخم ولا شك ، والعرب هم الاداة المنفذة له او الوسيلة المؤدية لتحقيقه . ومن الطبيعي الا تتوفر في العرب كلهم الصفات الضرورية التي تؤهلهم لخدمة هذا الهدف . ولكن لابد وان يظهر فيهم جيل عربي جديد ، هو جيل الانبعاث تتوفر فيه بعض الصفات والمؤهلات التي تجعله في مستوى الهدف وتمكنه من تحقيقه . ومن هذه الصفات :

ان يعي مهمته التاريخية ويشعر بالمسؤولية الضخمة الملقاة على عاتقه ، وان يكون شديد الثقة بنفسه وبقدرة امته على التجدد والنهوض ، وان يقوم على البذل والتضحية والنضال بعقله وقلبه وان يسبق عمله قوله ، وان يرتفع بالتدريج الى الحد الذي يشعر معه بلذة العمل والنضال من اجل الوحدة ، ويشعر بالقلق والغم من الجمود والفراغ . فاذا ما توفرت هذه الصفات في عدد من المواطنين ، حق لنا ان نعتبرهم جيل النضال والانبعاث ، وان نطمئن لقدرتهم على تحقيق الوحدة ، ماداموا هم قد ارتفعوا الى مستواها واصبحوا متكافئين معها . اما اذا لم تتوفر لديهم ، فمعنى ذلك ان الوسيلة لاتزال ادنى من مستوى الهدف ، وان هذا الجيل سينوء بحمل الوحدة كما ينوء الجسم الضعيف الهزيل بحمل الاثقال العظيمة .

ولكن قولنا بان الصفات المذكورة يجب ان تتوفر في الجيل العربي الجديد حتى يصبح جيل النضال يقودنا الى السؤال التالي :

ماهي السبل المؤدية لايجاد هذه الصفات والحصول عليها ؟ .

صحيح ان الاستعمار لا يزال ناشطاً يبث سمومه في الوطن العربي وينشر بذور الانحلال بين المواطنين ، وان قوى الرجعية لاتزال مسيطرة على مقدرات البلاد ، وان الكثيرين يتهافتون على المادة ويتسابقون على الرفاه والسعادة بدلاً من الاهتمام بالواجبات القومية والمثل العليا ، وان ثقتهم بالعمل التعاوني والسياسي كادت تنعدم وتتلاشى . وصحيح ان التعليم لا يزال مجرداً مفتقراً الى التوجيه القومي الصحيح ، الامر الذي يفسح المجال لتسرب النظريات والمبادىء الغربية وغزوها للمجتمع العربي في الوقت الذي لا تعبر فيه عن حاجاته تعبيراً حياً صادقاً ولا تقدم حلاً جذرياً لمشاكله بقدر ما تخلق من ازمات واضطراب في العمل القومي ، وصحيح انه كثر الغش والتلاعب والتضليل في الحياة السياسية والاجتماعية ، وان الصدق قل والاقوال طغت على الاعمال وان نزعة الاستهتار واللامبالاة متفشية سارية بين عدد غير قليل من المواطنين . صحيح ذلك كله ، ولكننا نلمح في ارض العرب بعض المظاهر والبوادر التي تدعو الى التفاؤل والاطمئنان للمستقبل ، منها ان شعور العرب بضرورة التخلص من هذه الاوضاع الفاسدة يتزايد ويشتد يوماً بعد يوم ، وهذا سيجهد بدوره لاكتشاف الوسائل المؤدية لقلب هذه الاوضاع . ومنها ان حركات قومية جديدة بدأت تعمل

على اساس من الوعي والايمان والتنظيم وادركت ان الانقلاب هو السبيل المفيد لهذه المرحلة التاريخية .

ومهما يكن من امر فاننا نعتقد ان انجع الوسائل وانفعها في جعل الوسط ملائماً والارض خصبة لنمو الصفات والمميزات المطلوبة للجيل العربي الجديد ، هما وسيلتان ، الاولى : اعادة النظر في اسلوب التربية والتعليم في الوطن العربي ، ذلك لان هذا الأسلوب يستند الى حشو المعلومات الكثيرة والهاء الطالب في حفظها وترديدها دون ان يفسح له المجـال الفردي والملاحظة الشخصية والتفكير الهادىء المرتبط بتجارب الحياة وواقعها .

ان مهمتنا التاريخية تنحصر في النضال لتحقيق الحريـة والاشتراكية والوحدة العربية ، في حين ان مهمة المجتمعات الغربية هي الاستمرار في النمو والتكامل والمحافظة على التطور الطبيعي عن طريق الاستزادة من العلم ومضاعفة الانتـاج اللذين يضمنان لهم الاستقرار والرفاه ، والعيش الهانيء السعيد . ومعنى ذلك ان مجتمعنـا العربي يختلف الى حد كبير في اوضاعه واهدافه عن اوضاع المجتمعـات الغربية واهدافها ، مما يحتم علينا ان نخصص الوقت الكافي لتوضيح مشاكل الأمة العربية امام الطالب ووضعه وجهـاً لوجه امام تجارب الحياة والمجتمع الذي ينتسب اليه ، وان تغرس في نفسه — بالتوجيه القومي الصحيح — الفضائل التي تجعل منه رجلاً مناضلاً متفائلاً فعـالاً قوي الأرادة شاعراً برجولته ومسؤوليته ، واثقاً بنفسه وبأمته ، مفضلاً فكرة الواجب على فكرة السعادة ، مؤمناً بان جيله جيل التعب والنضال ، لا جيل الرفاه والاستقرار .

اما الوسيلة الثانية : فهي ظهور منظمة قوميـة شعبية اشتراكية نضالية تعبر بصدق وعمق عن حاجـات الأمة العربية ، مزودة بقوة الفكر الحديث ، مسلحة بالعقيدة والايمان ، مستندة الى الدعاية القوية والتنظيم المحكم ، وان يكون اعضاؤها منسجمين في سلوكهم مع عقيدتهم ، متكافئين في صفاتهم مع اهدافهم . وعندما تقوى هذه المنظمة ويشتد ساعدها في الوطن العربي ، وعندما تستطيع ان تستقطب الشعب حولها وتركز اهداف الامة في اذهانها وتدفعها الى الايمان بها والنضال في سبيلها ، تستطيع عندئذ ان تفجر ما في الشعب العربي من قوى غنية وافرة وامكانيـات خصبة زاخرة ، قادرة بالتالي على تحقيق الحرية والاشتراكية والوحدة العربية .

السويداء **شبلي العيسمي**

فى ظهيرة الفجر

[الى الجيش السوري العظيم]

•

قتلاك ، والفجرُ البطولي الكبير ، وذكريات القبرات
عبر الصحارى الضارعاتِ الى الغيوم الظامئات
تهفو الى يافا ، وتسأل عن قرانا الضائعات
ونداء جرحانا « سنمضي للنهاية باسمين
فالى اللقاء ، الى اللقاء ، الى اللقاء .. »
وتهبُّ آلاف المناديل المعطرة الوضيئة ، كالطيور
بيضاء ، تخفق للضحايا الاصدقاء
ورفاقنا الموتى ، واغنية الحماة الصامدين
تطفو على ماء « البحيرة » حيث بالدم والطيوب
ليلاً على الموج الشذي ، تشع رؤيا ميسلون :
« سنعود يا حطّين » حيث ترن ملحمة الزمان
ويجلجل التاريخ « من حطين ازحفْ من جديد »
لا بد يا ليل الاباطيل الكسيحة ، ان نعود
وغداً مع الذكرى ، مع الارض الحزينة ، نستعيد
لهب الاماني الرانيات الى المعارك في الغداة .
ويرفّ منديل تطرزه حروف من ضياء :—
« بك يا حبيبي يهنأ الوطن الحزين
لا لم تغب عن اخت روحك » والجنود المنشدون
بعض الحكايات الجميلة في رسائل من عبير
وردت منداة باحلام الحبيبات البعاد
وتدق اجراس البنادق معلنات في الفضاء :—
« لا بد من يافا » وينهمر الجنود
تحت الرياح ، وحيث أنهار الدماء
ابداً الى يافا تسير محملاتٍ بالضياء .
وظهيرة الفجر المجنّح ، والمدافع تستفيق
حتى نجوم الليل من اصدائها المتوهجات
مثل العذارى يلتهبن اذا سرى وهج الربيع
حتى رماد الامس يسأل عُن لهيب ، عن لهيب
والليل والماضي ونكبته ، وحشرجة النجوم :
« كانت لنا ذكرى ، وكنا في الاعالي الموحشات
عبر الفضاء الازرق المحزون نرنو صامتات
كنا نحدق سائلات ، ما النهاية ، ما المصير
عن هذه الارض الموات ، عن العراة ، عن العراة
وعن اليتامى التائهين ، عن العذارى التائهات
في الليل — حيث الوحدة الصماء تقسو — من بعيد
تبدو ملاعب ذلك الامس اليتيم
حمراء كابية كمقتول يئن على الهجير
ويظل آلاف الصغار بلا جواب يسألون :
« كيف ارتحلنا ، كيف بارحنا ربانا المشرقات
ابداً ستسأل عن اغانينا ، وتهمس هل نعود »
والموت ، والماضي ، ونكبته ، وملحمة الجنود :
« سنعود يا حطين » حيث ترن اغنية الزمان
ويردد التاريخ « من حطّين ابداً من جديد »
ولهيب اصداء المدافع يزرع الارض الموات
بالخضرة الحمراء ، بالفجر البطولي الكبير ، وذكريات القبرات

بغداد — **كاظم جواد**

- وصلنا يا افندي .

واشار المهرب باصبعه الى الافق وقال: « هناك » ونظر محمد الى الافق فلم ير شيئاً ، ولو اراد النظر الى ابعد من امتار قليلة لما رأى شيئاً في هذا الليل البهيم .

ومد المهرب يده مفتوحة تغني عن الكلام ،فناوله محمد المئة ليرة لبنانية وسمع حفيفها وهي تغيب في جيب المهرب .. ومضت ثوان ،ثم قال المهرب:

- مع السلامة . تحاش ان يراك اليهود .

ثم ابتعد عن محمد وذاب في الظلام .

ولف الليل محمداً بوشاحه ، وغمره سكون عميق . وقال له شيطانه :

- الم تكن مستريح البال في دمشق ؟ . ما الذي كلفك هذا الذي انت مقدم عليه ؟ اذا اردت رأيي - وهو رأي العقل - فارجع من حيث اتيت قبل ان تندم ... وهب طلعت عليك دورية يهودية .. وهبك قتلت ! فماذا يكون قد نفعك عنادك ؟ لم يفت الاوان بعد .. عد الى دمشق ..

دمشق !! يومان مرا على جلسته مع منير فيها كأنهما قرنان كاملان ، لبعد ما يحس بين حاله حينذاك وحاله الآن .

***

ليالي ايار في دمشق جميلة، مضمخة بعطر الزهور المتفتحة بالملايين في الغوطة ، تعقد في سماء المدينة سرادقاً من العطر الفواح . وما اجمل ليالي ايار حين يلتقي رمضان بها ، وما احلى السمر حينذاك ! .. الآف المجالس تنعقد في المقاهي ، وتختلط فيها غرغرة النراجيل بضحك الضاحكين وحديث المتحدثين ، في جلبة حية تنبض بالمرح والسرور ..



وفي احد هذه المقاهي ، جلس اربعة شبان على مائدة تكاد تندلق على الرصيف ، يتحدثون باهتمام وحماس ، لا يفرقهم عن عشرات الجلاس الاخرين شيء . الا ان الاذن كانت تتبين في كلامهم لهجة ليست بالشامية البحت ، كما انها ليست باللبنانية . ولو ان الاذن نفسها بالغت في الفضول واسترقت السمع لطرقتها كلمات واسماء غريبة عن الشام وعن سوريا اولبنان.

- هل سمعت ما جرى بعلي من الناصرة ؟

- لا . آخر عهدي به في ليبيا استاذاً في احدى الثانويات

- لقد مل المقام فيها على ما يظهر فعاد الى الاردن .

- عاد الى الاردن ؟ لا يا شيخ !

- بلى ... لقد كتب الي ابن عمي الذي يعمل في البنك العربي بأنه شاهده في عمان منذ بضعة ايام .

- ما الذي عاد به الى الاردن ؟ اتذكر يوم اقسم امامنا انه لن يعود الا الى فلسطين ، لان الغربة في بلاد بعيدة - على حد قوله - اقل مرارة من الغربة على مرمى النظر من الوطن ؟

- لقد عاد لان والدته كانت مشرفة على الموت . الا انه لم يدركها ، ولم يشهد الا جنازتها . ويقول ابن عمي انه ناو على ان يستقر في عمان، بالقرب من والدته .

وران على المجلس صمت قصير ، سرعان ما قطعه احد الجالسين :

- هل قرأ احدكم مقال فلان في جريدة « فلسطين »؟

ودار الحديث سريعاً ، فانتقل من فلان الى اسعد الذي استقر في انكلترا واخذ الجنسية البريطانية ، وعن فؤاد الذي يعمل مهندساً زراعياً في دير الزور ... وعن كثيرين من اهل فلسطين فرقتهم الفاجعة بدداً في انحاء العالم .واشترك في الحديث كل الحاضرين ،الا واحداً ظل صامتاً ، لا يحير ، ساهماً كأنه يرى بعينيه رؤيا خفيت على الآخرين . وصاح به احدهم مازحاً :

- اي يابا ! يا محمد ! نصف الالف خمسمية ! اتراه رمضان قد اثقل عليك ؟ عدّ يومين ويأتي العيد . لقد ذهب الكثير وبقي القليل .

- لا والله يا منير . ليت كل الصعاب مثل صعوبة رمضان .. كنت افكر في علي .. انه على حق فيما فعل .. ان للاموات علينا حقاً .. فهم صلتنا بالارض التي خلفناها وراءنا..انهم جذورنا في التربةالتي اخرجنامنها.

فاستضحك منير وقال :

- ولكن والدتك ، رحمها الله ، قد توفيت منذ زمن طويل .

فقال محمد :

- وهل للوقت دخل فيما اقول ؟ اغبي انت ام تتغابى !

فاجابه منير بصوت جدي :

- فهمت والله ...فهمت ما تعني..ولكن .. انت هنا في مركز حسن وقد فتح الله عليك ابواب الرزق ..اليس من الافضل ان تكون مدرساً في دمشق من ان تكون .. الله اعلم ما تكون .. والشام وعمان سواء . لم اكن افكر بالعودة الى عمان ، فليس لي فيها احد . وانما كنت افكر بالعودة الى صفد، الى قبر والدتي ، علني ازوره في هذا العيد الآتي . اذكر ، حين كنت في صفد، اني كنت ابدأ العيد بزيارة قبرها .. اترى هل تركه اليهود على حاله ؟ .. وبيتنا .. والبستان ؟..

ولم يتم محمد جملته وعاد ساهماً يحلم ..

وقال منير :

- دع عنك هذه الافكار الصبيانية .. فاين انت من صفد واليهود يعجون فيها عجاً ؟. ولنفرض انك وصلت صفد .. وبعد ذلك ؟ .. خذ كل من هذا اللوز الاخضر

- انه يذكرني بلوز صفد .. كم سرقنا منه ونحن اولاد صغار ..

- وهذه الجبنة بصعتر .. ذق منها ما اطيبها !

- الا تذكرك بصعتر صفد ، احسن صعتر في العالم ، صعتر وادي الحمراء ، احسن صعتر في العالم ، كما كان يقول والدي .

فقال منير بلهجة من يهدىء طفلاً عنيداً :

- الحق معك .. لوز صفد .. وصعتر صفد.. لا يعادلها شيء .ولكن اين نحن من هذا كله ؟

فاجاب محمد بحنق :

- نحن على سفر ساعتين بالسيارة..نفطر هنا ونتغدى في صفد اذاشئنا

- قل اذا شاء اليهود .. كن واقعياً والا ..

وهنا ضحك منير وقال :

– والا ، اذا ذهبت الى صفد فلا تنس ان تأتيني ببعض الصعتر .. فهو كما قلت ، احسن صعتر في العالم .

فضحك الجميع وشاركهما محمد ضحكهم ، وعاد الانسجام الى المجلس . ثم حان موعد السحور ، فافترق الاصحاب وهم يهنئون بعضهم بعضاً بقرب انتهاء رمضان واقتراب العيد .

***

احس محمد بدبيب غير بعيد منه ، فافاق من ذكرياته وما زالت ضحكات اصدقائه ترن في اذنيه . ولمحت في الظلام نقطتان من النور ، ما عتم منير ان رأى انها لهرّة اقتربت منه واخذت تتمسح به ، فانحنى عليها ومر بيده بلطف على رأسها وخلف اذنيها وتحت ذقنها ، فاخذت تهر هريراً ناعماً ، راضية مسرورة . وارتسمت على شفتي منير ابتسامة امتزجت فيها الشفقة بالسخرية وقال يخاطب نفسه :

– هذه الهرة الشاردة خير من يستقبل المتسلل الى ارض اجداده .. وما اظن اليهود اذا فطنوا لي يستقبلوني بالمسح على رأسي ..

ومد يده بحركة آلية الى جيبه ليخرج لفافة فصادفت ملمس « المشلح » الخشن . وتذكر انه استبدل ملابس الافندي بالقميص والعباءة والكوفية والعقال حتى يظن اليهود ، اذا صادفوه ، انه من البدو الرحل . وبدت من فمه لعنة خافتة، ثم بدأ يمشي نحو الافق الذي اشار اليه المهرب حين قال، – هناك

***

وهناك هذه .. كانت صفد . وصلها بعد ساعات من السير الحذر آتياً من الشمال ، من الطريق الذي يمر بين جبل الاكراد وجبل كنعان . وانحدر نحو المقبرة ماراً بعين العافية . ووجد محمد المقبرة في مكانها وقد تهدمت جوانب بعض القبور ، وطغى العشب عليها . وسار محمد على ضوء ذكرياته الى حيث ترقد والدته رقدتها الاخيرة ، فوجد شاهدة القبر مائلة نحو الارض ، والازهار البرية تملأ حوضه . فجلس على الارض ، وبصورة لا شعورية ارتفعت الى شفتيه كلمات كان قد خيل اليه انه نسيها ، كلمات سورة الفاتحة وبعض آيات القرآن .. ارتفعت الى شفتيه من اعماق سحيقة . وعجب كيف ان كيانه القديم قد بعث بعد موت سبع سنين واكثر ، امام هذا القبر الذي اتى من بعيد معرضاً نفسه للموت لينظر اليه ويتحدث الى ساكنته .

واحس محمد بفيض هائل من الانفعال يطغى عليه فاسند رأسه الى الشاهدة ، واخذ يردد بهدوء آلي :

– امي ، امي ، امي .

وداخل برد الحجر وجهه كأن والدته تمسح على خده حين كان يعود لاهثاً يوم العيد بعد ان لعب الساعات الطوال مع الاولاد امثاله . ورأى نفسه من جديد وهو صغير ، وقد لبس بذلة جديدة ونزل يركض في شارع الفزاوية مع اولاد خاله ، ويقف تحت الجسر وينادي فيسمع صوته يردده الصدى .. ثم يتسلق شجرة الميش ويتضارب مع اولاد خاله ، ثم يميل نحو عين العافية فيشرب منها ويصعد حتى كرم ابي حسين يأكل العنب ، ويطلع على درجات السوق حتى قلعة الظاهر بيبرس من جنب الحاووظ يتفرج على غروب الشمس ، وينزل عليه وعلى اولاد خاله الليل ، فيعودون الى البيت ركضاً ، والبيت في حارة الاكراد وبينها وبين القلعة مسافة وواد ، فيصل الى البيت وهو ينضح عرقاً فتتلقاه والدته والقلق باد في عينيها :

– اين كنت يا بني .. لقد خفت ان يكون قد اصابك مكروه !

ثم تمسح عرقه بيديها . وما الطف لمس يديها على وجهه . وما اجمل الحياة في البيت معها ومع والده .. البيت ، ترى ماذا جرى له ؟.. اتراه كما كان ؟..

وقطع حبل احلام محمد زقزقة عصافير في اشجار المقبرة فاستفاق لنفسه ونظر الى ساعته فوجد انه قضى اكثر من ساعة الى جانب قبر والدته . وعاد الى الحاضر وصورة البيت في ذهنه ، وبدا له انه من الواجب عليه – لنفسه ولوالدته – ان يزور البيت ليراه ولو مرة واحدة .

ونهض محمد وقال بصوت خفيت تخنقه العبرات :

– وداعاً يا امي .. بل الى الملتقى .. سأعود .. سنعود .

وتوجه محمد نحو حارة الاكراد وهو يتحاشى الشوارع المنارة ، ويسير في الازقة التي يملأها الظلام، ويسير حوله موكب حافل من الذكريات والاشباح : ها هو صغيراً يسرق الرمان من بستان ابو احمد وصوت الناطور يصيح به : وقف لقلك .. ولكن كيف يقف ، ويد ابو احمد ثقيلة وعصاه اثقل .. وها هو في اول شبابه لا يكاد يفارق عين العافية طول نهاره بسبب دعد التي كانت تأتي الى العين (عجيب ! لم يخطر له ان يعشق منذ خرج من فلسطين كأن نبع الحب فيه قد نضب) .

وتزاحمت الاشباح تواكب خطواته وهو يتلصص السير نحو بيته القديم .

***

البيت والبستان لم يتغيرا ، بمقدار ما امكن لمحمد ان يرى على ضوء النجوم ، الا ان اليهود ضربوا حولها سياجاً من الاسلاك الشائكة : وتسلسل محمد من خلال السياج ودخل البستان وجلس في مسكبة مزروعة خساً – كأن البستان ما زال في عهدة والده – واخذ ينظر الى البيت والليل يلفه في وشاح مضمخ بعبير الربيع وسكون لا يقطعه الا صرير الجنادب ، كأن العالم ما زال قبل ١٩٤٨ ، وكأن العرب ما زالوا في اوطانهم لم يتركوها للاعداء القادمين من أقاصي الارض بباطل تدعمه

قوة العالم اجمع .

وذكر محمد تلك الساعات الطوال التي كان يقضيها في البستان ايام كان مراهقاً وكانت آماله تملأ الدنيا واحلامه تقض عليه مضجعه فيخرج ليسبح في عوالم الرؤيا . كان يحب هذه الزاوية لانها تطل على الوادي وينسرح منها البصر في اغوار بعيدة وكان الفجر يطلع عليه احيانا وهو في موضعه ، يحلم وينسج حياته المقبلة من اشعة القمر ونسمات الليل . وكانت امه تستيقظ لصلاة الفجر وتظهر من النافذة فتراه وتقول له :

- يا ولدي .. ستموت من قلة النوم .. الله يسامحك .. تعال نشرب قهوة .

ويدخل البيت فتكون والدته قد عمرت الركوة على طباخ الكاز وعبقت رائحتها في البيت . وتمر والدته بيدها على جبينه بلطف وتتمتم شفتاها بالدعاء له ..

وهبت نسمة باردة على وجه محمد كأنها يد والدته الحنون .. ونسي انه في بلاد العدو بل وفي عقر ديارهم – التي انتهبوها منه – وغص حلقه بالانفعال المكبوت وكاد يصيح من الالم والغضب والاسف والشوق .

وفجأة انشعل ضوء في احدي نوافذ البيت ، اترى انفعاله غلبه فلم يستطع كتم صوته ؟ اترى غضبه نم عنه ؟ وعلا لفظ باللغة العبرية ثم انفتح الباب وخرج رجل بيده بندقية « ستين » واتجه الى البستان . ولبد محمد بسرعة على الارض ومس خده وشفتاه التراب المبتل بندى الليل ، فملأت انفه ورئتيه رائحة التراب وسرت حتى في عروقه . وقبل محمد الارض بشغف واحس بنبضه يدق في عروقه ويتردد في الارض .

[ما اغرب الحياة !.. يعيش الانسان على الارض حياته كلها وكأن بينه وبينها آلاف الكيلومترات ، يسير عليها ويبني عليها ويتغذى منها .. ولا صلة له بها . اتراه ، اترى محمد ، اتراهم كلهم ، كل هؤلاء الذين تركوا فلسطين ، لو انبطحوا على الارض ولو مرة مثلما انبطح ، في هدأة ليل مثل هذا الليل المرصع بملايين النجوم ، اتراهم لو احسوا بطعم الارض على شفاههم وبرائحة الارض في انوفهم وبنبض الارض في عروقهم .. اتراهم كانوا يتركون اوطانهم بهذه السهولة .. اتراهم كانوا يستجيبون ويستسلمون لدعوة الداعين وتهويل المهولين ؟]

واخذ اليهودي يتجول في البستان بخطوات حذرة ، ويلقي في الظلام نظرات ثاقبة ويده على زناد بندقيته ، والنور الآتي من البيت يلمع على الفولاذ لماناً رهيباً . وبدا اليهودي لمحمد الناظر اليه من اسفل ، ضخماً هائلا والنور يأتيه من خلفه فكأنه عملاق لا وجه له .. ظلام يحيط به ظلام وفي يده البندقية يبرق فيها الموت السريع . والتقى محمد بالارض حتى كاد يدخل في احشائها ، اذ ان اقل نأمة منه كانت تعني الموت. المحقق برصاص اليهودي . وكاد محمد ان يضحك، وشر البلية ما يضحكه ما احلى ان يقتل في بستان بيته بعد سبع سنوات من خروجه منه خروج المنهزم ، فيموت ميتة اللص المتسلل ، بعد ان كان في مقدوره ان يموت ميتة الابطال الشهداء وهو يدافع عن داره .. وعن وطنه .

وانقضت دقائق طويلة طول الازل ، عاد اليهودي بعدها الى البيت واطفأ النور . وعاد البستان الى الظلام الوادع وعطر الربيع واشباح السنين الخالية . وخشي محمد ان يستيقظ اليهود من جديد وان يعمموا التفتيش في البستان فيعثروا عليه ، فنهض من موضعه بحذر واجتاز السياج من جديد معولاً مغادرة صفد قبل ان يأتي الفجر ... الا انه ذكر امراً ، فحول خطواته نحو وادي الحمراء وسار مسرعاً كأنه على موعد مستعجل .

***

وظل اصحاب محمد فى الشام بدون خبر منه واستبد بهم القلق وتساءلوا عما حدث له . وذات صباح وردت الى منير رسالة وصرة صغيرة من الاردن ، وفتح الرسالة فاذا بها من محمد يقول فيها :

« اخي منير .

اكتب اليك من معسكر اللاجئين الفلسطينيين في بيت جالا . لقد قبلت ان اصبح معلماً هنا ، على مرمى النظر من وطننا الذي ذهب من ايدينا لاننا لم نتعلق به كما يتعلق الطفل بامه .

لقد مرت بي تجربة لا اريد ان اعيدها في حياتي . لقد وجدت نفسي وجهاً لوجه مع يهودي في بستان بيتي الذي ولدت فيه ، فانبطحت على الارض والرعب يرتكض في امعائي . لقد كدت ادخل الارض في بستان بيتي امام هذا الافاق الذي يحتل مسقط رأسي ..

لو ادركنا اننا سنقف ذات يوم مثل هذا الموقف لفضلنا الموت الف مرة على ان نتخلى عن اوطاننا . وانا الان اريد ان انسى شعور الذلة والاحتقار لنفسي الذي ملأني في تلك اللحظة .. اريد ان اغسل خيانتي لوطني بالعمل على استعادته بما في وسعي .

قد تقول : ولكن ما فائدة بقائك حيث انت ؟ هل ستستعيد فلسطين لوحدك ؟ قد يكون سؤالك منطقياً . ورأيي اننا خسرنا فلسطين بالمنطق، منطق الاستكانة والخوف من المسؤولية والبخل .. نعم منطق البخل .. فلو بذلنا بعض العاطفة ، عاطفة الحب والتضحية لكننا ما نزال الآن في بيوتنا .. ولما زال ذلك اليهودي الذي يسكن بيتي في زاوية قذرة من زوايا رومانيا او بولونيا او روسيا او ..

ولا تقل لي : « ولكن هل تظن الامر سهلا الى هذا الحد وانك عائد الى فلسطين قريباً ؟ » – فاني سانتظر .. لقد انتظر اليهود آلاف السنين على غير حق . اما نحن فمن حق ننتظر ، ولن يموت حق وراءه طالب .

لقد بحثت الامر مطولاً وبهدوء . سأعلم الاولاد هنا ان خلاص فلسطين لا يتم الا على ايدي الفلسطينيين ، على ايديهم هم ، وان لا عودة لنا اذا انتظرنا ان يتكرم علينا غيرنا بالدفاع عن قضيتنا كما تكرموا عام ١٩٤٨ . انه وطننا فقدناه بخطأنا وعلينا ان نسترجعه بانفسنا .

قد لا ارى عودتنا الى الوطن بعيني . الا انني سأموت راضياً قرير العين والقلب ، مؤمناً باني وفيت بوعدي الذي قطعته امام قبر والدتي .. سأموت في اقرب نقطة من وطني السليب .

محمد

ملحوظة : تجد مع هذه الرسالة صرة صغيرة فيها ما كنت قد طلبته مني في آخر ليلة لنا في المقهى .

***

وفتح منير الصرة ، فملأ خياشيمه عبق لا يخطئه من عاش وشب في صفد ، ودمعت عيناه اذ رأى ان الصرة تحتوي غصناً من الصعتر ، لم يذبل بعد .

لندن

صباح محي الدين



المغاوير

[مهداة إلى صاحب «ذكرى الرسول العربي» الاستاذ ميشيل عفلق]

مثلما تركض الاعاصير في الليل غضابا ، فالرحب منها يباب
مثلما يطفح المحيط على الافق ، وينداح في الرمال العباب
مثلما تهبط النجوم على الارض ، وينهل بالنجيع السحاب
.. هكذا اقدم المغاوير لما اذّن البعث للفدا واستجابوا
كاندلاع اللهيب من جذوة الشمس ، ففي كل حدقتين شهاب
والجباه الصلاب في ملعب الريح كما تشمخ الجبال الصلاب
يتقطبن بالمشيئة والعزم سطوراً لم يشتملها كتاب
والصدور الشداد يلطمها الموج ، فيرتدّ وهو منها حباب
ناهدات في غمرة الساح للموت ، فما ثم للحياة حساب
يتفجرن بالنبيذ على الارض سخياً كي لا يهون التراب

قسمٌ .. فاحفظيه يا ايامُ
للاذلاء ، للنعاج السلام

بالدماء التي لشعبي تُطَلّ
فهي للظامئين حتى يملوا
يلعق الذئب صفوها ويعلّ

قسم حانق الصدى جبار
كم تغنى برجعه مغوار

بالاسى، بالدموع، بالاشلاءِ
ليس مني عروبتي وإبائي
ان نسيت الثارات من اعدائي

لمن الشعب .. تلك راياته الحمر على الافق والحديد المذابُ !
لمن الشعب هائجا يتلظى !! .. لمن الحرب والطبول الغضاب !
ايها الغاغون اسلاب قومي .. ان من اجلكم تسن الحراب
ان هذا عتابنا .. منجل الثأر .. فهيهات ان يرق العتاب

افسحوا الدرب للمغاوير ، ما عاد ظلام يصدنا او حجاب
افسحوا الدرب، لا محال على الدرب، وما عاد يحتوينا الضباب
واتركوا الدار ، فهي ملك ذويها ، ولقد آن أن يُدق الباب
إن هذي الزنود اعلامنا الحمر تعالت يمور فيها الشباب
قبضها : آسر الاعنة ، جبار على الضيم ، قاهرٌ غلاب
ولها في ملامح الظلم وشم ابدي الصراخ لا ينجاب

اي فجر يمزق الليل وقدا
ممعناً في خيامه السود هدّا
اي صوت على المدى يتحدى
مثلما فجّرت يد الله رعدا
.. ألف مرحى، هلّ السنا وتبدى
راية البعث تحشر الافق جندا
لكأن المحيط ينهال مدا
يغمر الخافقين غوراً ونجداً
.. ايهذا الجبار ، لن تستبدا
لو علمت ، النضارُ صغناه قيدا !

قم فأنذر في الشرق، هبّ المغاوير، وسُدت على الطغاة الرحاب
حيثما يدبرون لا يضحك الوهم اليهم ، ولا يموج السراب
الذين انتشوا طويلاً من الدمّ ، فناموا ملء الجفون ، وغابوا
ثم سيقوا الى المشانق في الصبح ، فحق الردى ، وحق العذاب
ما عشقنا دماءهم ، معشر البعث ، يميناً احلى لدينا الصاب
ان مما يروع ان يفهق الجرح وتذوي على الصدور الرقابُ
خُلق الناس كي يعيشوا أحبّاء .. ولكن ، أهكذا الاحبابُ
العصافير يَنتفضن من الذعر ، ويشدو باسم السلام العقاب !
يا لثغر يقبل الطل في الزهر ... وثغر تلظى به الانيابُ
ستظل الخراف في شرعة الغاب خرافاً حتى تبيد الذئابُ

يوسف الخطيب

طبيعة الفنون

بقلم اريك نيوتن
ترجمة احمد مختار الجمال

ان طابع البريد ، وافتتاحية « الفلوت السحري » ، واخر عطر انتجه جيورلان ، ولوحة ليوناردو « العشاء الاخير » ومسرحية هملت لشكسبير ، وكتدرائية سانت بول ، ورسوم والت ديزني المتحركة ، كل هذه الاشياء اعمال فنية ، او من الممكن ان تكون اعمالا فنية .

وثمة اشياء اخرى ليست اعمالا فنية ، فشلالات نياجرا ليست عملا فنيا ، وكذلك نور الغسق عند ثلوج « مونت روزا » ، وصوت امواج صاخبة تتكسر على احدى الصخور ، وتراقص ملابس منشورة على حبل غسيل عند هبوب نسمة ، ورائحة الصنوبر في يوم قائظ .

هذان الصنفان من الظواهر مختلفان في النوع . فالصنف الاول من صنع الانسان وتصميمه . ولا بد لهذه الاشياء من ان يدركها انسان او مجموعة من الناس في اذهانهم ، ثم توصلها مهارة المصمم الى الآخرين ، بوسيلة يمكن لحواس الآخرين ان تدركها – كالعين ، والاذن ، والانف ، والذوق .

اما الصنف الاخر من الظواهر – كشلالات نياجرا ، وتلاطم الامواج ، فليست من صنع الانسان او تصميمه ، قد تكون هذه الاشياء جميلة وسارة على حد سواء . قد تكون من تدبير الله والقوانين الطبيعية او ما تشاء ، ولكن ليس لها ذلك العنصر المزدوج من التصور والولادة Parturition فهي لم تتخيل اولا ثم تظهر كماديات مرئية ، وحركات منظورة ، واصوات مسموعة ، وروائح مستنشقة .

ولقد سحر الفن دائماً واضعي التعريفات واعياهم ايضاً ، فان واضعي التعريفات لم يرضوا قط عن تعريف « ماهية » الشيء : فهم يحاولون دائماً ان يضعوا وصفاً « لعلة » وجود الشيء .

ولهذا السبب فعند حديثي عن قصة الفن سأبدأ بميزة رئيسية . ربما انه ليس لدي نظريات مسبقة عن غرض الفنان : فلن اتحامل على فنان يخالف مثل هذه النظريات . فاذا روى لي فنان قصة صحت : « كم هي مشوقة ! » واذا اراد ان ينزل الرعب في قلبي بتصورات غامضة عن الالوهية كنت قابلاً للتأثر ، واذا شاء ان يشيد انموذجاً شكلياً من الخط واللون او المادة والصوت ، فسأقول « كم هو جميل ! » واذا وعظني فسأكون على اهبة لان اهتدي ، فاذا اراد ان يكون ذا فائدة لي قلت له: «اشكرك». فالفن قام بكل هذه الاشياء في ازمنة مختلفة من تاريخ الحضارة .

ولكن اذا كان لا بد من سرد قصة الفن فمن الحتم معرفة ماهية الفن ، واذا انا عرفته باختصار بأنه تخيل انساني يكشف عن استعمال وسيلة : اذا عرفت الفن الحق (ولا احد يريد ان يضيع وقته في سرد قصة الفن الزائف) بأنه التخيل Conception ، فاني اكون عندئذ قد استغنيت عن التعريفات وجاريت القصة .

وليس هذا تأريخاً لاسرة الفنون جميعها ، فانه مدخل فحسب لقصة عضوين من هذه الاسرة – هما النحت والتصوير . وهما عضوان قريبان، كما سنرى فيما بعد * . وهما يختلفان الى حد كبير عن اقرب الاعضاء في اشياء كثيرة ، ولهذا السبب اسيء فهمهما بوجه عام .

اذن فالفنان ذو فعالية مزدوجة . فلا بد له من المهارة الفنية Craftesman - Ship . عليه أن يتخيل (في عين ذهنه ، أو في أذن ذهنه ، او في انف ذهنه) الشيء الذي سيخلقه ؛ ولا بد أن يكون قادراً على ترجمة ما تخيله إلى عبارات الوسيلة التي سيستخدمها . وهاتان الفاعليتان ليستا منفصلتين . فعلى العكس من ذلك ، اذ ان كل منهما تؤثر في الاخرى بطرق لا يمكن تحليلها أو التنبؤ بمقدارها لدرجة أن الفنان في اثناء عمله لا يستطيع أن ينبئنا في لحظة معينة أي جزء من نفسه يستعمله .

هل اذا كان يرسم بقلم لين على ورقة خشنة ، هل هذه الحقيقة تعطي اتساعاً لخط تنتوروتو Tintoretto's line ، أم ان الصورة التي في عين ذهنه كونت نفسها من قبل بهذا الاتساع في اتجاه خطوطه ؟ هل استخرج موزارت، خلال أذن ذهنه ، مقدرة من الصوت يمكن ترجمتها الى موسيقى فحسب عن طريق اتحاد النغمات الوترية بالنغمات الزمرية؟ أم ان تذكره لهذا الامتزاج بما سمعه بالصدفة عند عزف اوركسترا ، دفعه الى ان يقوم بتجارب أخرى معه ؟ لا يستطيع احد ان يجيب على هذه الاسئلة ، ما دام احد لا يعرف غير تنتوروتو نفسه الماهية الدقيقة للصورة الموجودة في عين ذهنه ، ولم يسمع احد غير موزارت ما كان موجوداً في أذن ذهن موزارت . فالعمل الفني ، كالرسم او الافتتاحية الموسيقية هي كل ما يجب ان نحكم به ، وكل ما نستطيع قوله هو : « يبدو أن هذا الرجل عثر على وسيلة صحيحة للتعبير عما يريد قوله » ، فقد حدث زواج بين ما هو متخيل وبين الصانع ، ونستطيع ان نحكم بنجاح هذا الزواج بأن نتعرف على ثمرته – أي العمل الفني .

ولكن هذه الفعالية الفنية – هذا الصنع للرسوم والافتتاحيات والكتب وطوابع البريد ، ليس شيئاً يصنع

* هذا المقال هو الفصل الاول من « كتاب النحت والتصوير الاوروبيان » لارك نيوتن :
European Painting and Sculpture. By Eric Newton.

لمجرد اللهو . فلا ريب ان تأليف كتاب أو صنع افتتاحية موسيقية هو لهو ، ولكن الفنان لا يقنع أبداً بأن يضيع نتيجة لهوه في الهواء . فالكتاب يجب ان يقرأ ، والافتتاحية لا بد أن تعزف ، والباليه او الصورة من المحتم ان تشاهد . والفن هو توصيل Communication ووراء كل عمل فني التجاء الفنان الى رفاق يسألهم: «الا ترون ماعني؟» «الا ترون ما ارمي اليه؟».

ولهذا فقصة الفن ليست فحسب قصة أناس يعملون أشياء أو نوع هذه الاشياء ، انها أيضاً قصة العلاقة — العلاقة المعقدة المتغيرة — بين هؤلاء الناس وزملائهم. انها علاقة كلها متناقضات وصعوبات ، لان اي عامل لا يستطيع ان ينتج ان لم يدفع له ليعمل : ولهذا لا بد للفنان من مُستخدم. ولا يمكن للمستخدم ان يدفع لعامل الا اذا انتج شيئاً يحتاجه المستخدم . ويتبع هذا — باستثناء حالات شاذة لفنانين يعتمدون على مواردهم الشخصية — أن العمل الفني للفنان ليس نتاج خياله الشخصي ، وليس هو الشيء الذي يريد شخصياً أن يوصله الى الآخرين . فلا بد ايضاً ان يكون هذا الشيء هو ما يريده المستخدم ان يوصله الى نفسه او الى آخرين معينين. فالعمل الفني لا يجب ان يكون نتيجة لحض من جانب المنتج فحسب ، ولكنه ايضاً قد يكون نتيجة لحاجة من جانب المستهلك . وهذا في الحق وضع للاشياء عجيب ! اذ انى للمستهلك أن يشعر بحاجة الى شيء شخصي وغير ضروري مثل تعبير الفنان عن رؤيته الداخلية ؟ وحتى لو فرضنا ان هذا المستهلك يشعر بهذه الحاجة لدرجة كافية لان تدفعه لان يدفع للفنان مالاً لينتج عملاً فنياً ، فكيف للفنان ان يوفق بين رغبة الفنان الذاتية الخاصة لان يوصل رؤيته الذاتية الخاصة ، وبين تحديد المستخدم او الظهير Patron لما يريد الفنان ان ينتجه له ؟ قد يثار مثل هذا السؤال في اي فرع آخر من النشاط الانساني. فلا يوجد صانع أزاميل يقول لمستخدمه : «ان طبيعتي كلها تثور ضد فكرة صنع نوع الازاميل الذي تطلبه مني . انك تريدني ان اصنع لك ازميلاً حاداً . وانا من جهة اخرى اجيد عمل الازاميل الثالمة . وانت تريد أزاميل من الصلب ، وانا كصانع محترف ، أفضل استعمال الازاميل المصنوعة من الرصاص .»

وكلما كان الشيء الذي يصنعه الانسان ذا فائدة مادية ، كلما أتيحت الفرصة لوجود اتفاق كامل بين الفنان والمستخدم ولكن الفائدة المادية ليست هي كل انواع الفائدة ، فتوجد مثلاً الفائدة الروحية . فان المستخدم له الحق في ان يقول لصانع الأزاميل : «اصنع الازاميل مثلما أريد تماماً. ولكنه لا بد أن يقول لصانع الصلبان التي عليها رسم المسيح : «اجعل صليبك يخضع لأقل مقتضيات الصليب — أي صليب ، وجسم انسان ، وتعبير عن معاناة ، وكذلك معنى من معاني النبل ، وأما ما بعد هذا فأتركه لك . صنّف أفكارك ومشاعرك الشخصية — وجسّم رؤيتك الخاصة .»

وما دام الفنان عاملا يشتغل بأجر فلا بد له من شيء من التساهل ، فلا يفقد اتصاله بالحياة ومقتضياتها ، ومع هذا لا يضحي بأمانته الخاصة في عمل هذا . وهذا في الغالب شيء نافع لان التوفيق ليس اذعاناً لنظام منحط من الاشياء . انه احتفاظ خطير بالتوازن بين مجموعتين من القوى. فالفنان مثل صانع الازاميل ، يخدم سيداً (بالسترينا Palestrina خدم البابا ، وشكسبير كتب مسرحياته لجماعة سياحية Touring Company) ، ولكنه عندما قام بهذا العمل أعطى سيده شيئاً لم يتفق معه عليه . فعندما رسم رمبراندت Rembrandt لوحة « حارس الليل » Night Watch كان في الظاهر يرسم صورة لكابتن بانتج كوك واعضاء نادي الصيد . ومن المسلم به ان شيئاً يماثل صورة فوتوغرافية لفريق الهوكي في مدرسة ما ، كان من الممكن ان يحوز رضاء النادي ، ولكن رمبراندت كان لديه اشياء يريد ان يقولها وليس لها وجه الشبه بالكابتن واصدقائه — اشياء تختص بكيفية وقوع الضوء في الاماكن المعتمة ، وكيف تقتم العتمة هنا ، وتخف هناك . وقد صمم على ان يقول هذه الاشياء . وفي فعله هذا بدأ يفقد رؤية الغرض الاساسي من الصورة . واصبح بانتج كوك واصدقاؤه مجرد أعذار لمقالة في الـ Chiaroscuro وغضب النادي، وشكا بعض الاعضاء من ان وجوههم غرقت في ما يشبه العتمة ، فقد كان كل اهتمامهم ينحصر في ذواتهم وليس في الـ Chiaroscuro . اما نحن من جانبنا فقد سرنا هذا . لقد فقدنا الاهتمام بنوادي الصيد في القرن السابع عشر ، اما ما يريد رمبراندت ان يقوله عن تلاعب الضوء على الجسم فشيء يثير الانتباه اليوم كما اثاره عام ١٦٤٣ وانا لنتذكر المحاجر التي اثيرت من سنوات قليلة بخصوص تمثال سير دوجلاس أهيج من الويتهول . فعندما واجه ميشيل انجلو مثل هذا النوع من النقد لتماثيله التي تمثل لورنزو وجليانو دي ميدتشي Lorenzo&Ginliano de Medici جاب بأن احداً في خلال الف سنة لن يعرف اي شيء يشبه هذان التمثالان ، ومع هذا فان بوب كليمنت السابع ، الذي امر بصنع التمثالين ، يعرف جيداً ، فقد طاب صورتين لرجلين ولقد اعطى رمزين للانسانية . ولقد كان ميشيل انجلو زاهداً في هذه الصفقة. ولقد يشعرنا هذا بالسرور ولكن مستخدمه لم يكن مسروراً .

وهذه الضرورة كخدمة سيدين ، كانت دائماً احدى الصعوبات التي تواجه الفنان . فلا بد له أن يسلم البضاعة المطلوبة منه ، ولا بد ايضاً ان يكون صادقاً مع نفسه . وهذا صواب لانه اذا حدث وضحى بشرط من هذين الشرطين في سبيل الآخر فان العمل الفني ينقص في الكيف. وتوجد امثلة كثيرة لهذين النوعين من التضحية في الفن هذه الايام . اذ يوجد الفنانون التجار الذين ينتجون سقط المتاع مما لا قيمة له اثناء محاولتهم اعطاء المستخدم كل ما يطلبه ، ويوجد فنانون ليس لهم الا ان يطيعوا دوافعهم Impulses الخاصة، لعدم وجود المستخدم أو لعدم رغبتهم في ان يستخدمهم

أحد، ويمكن ان نصف عمل هؤلاء بأنه استعراض نفسي Psychological Exhibitionism.

ولم تكن محض صدفة ان عصور الفن العظمى كانت تحدث دائماً عندما كان الفنان يكرس فنه لخدمة سيد او قضية. ومن الضروري ان تكون خطوة الرجل الخاضع ابطأ من خطوة الرجل الحر. فانه يكون اقل حرية في اختيار وجهته الخاصة، ولكنه يكون راضياً لعلمه انه عضو لازب في المجتمع – او انه جزء من المجتمع – كما انه يكون اكثر رضاء لعلمه بأن المجتمع لاحتياجه اليه، سيكون اقدر على فهمه. وخدمته المضاعفة تمنحه رسالة مضاعفة ورغبة مضاعفة. ولو كان بالسترينا ترك لنفسه لكان دفع بالموسيقى الى الامام قليلاً: ولكن عندما استخدمه البابا استطاع فضلاً عن هذا ان يجدد في اسلوب القيام بالطقوس المسيحية، وان يوسع في معنى الدين المسيحي.

ان انقسام الفنانين في ايامنا هذه الى فئتين، الفئة الاولى هي التي يستعبدها المستخدم، وهذه الفئة لا تستطيع ان تقول انها «تملك روحها»، أما هذه الروح الطليقة التي تمتلك نفسها لدرجة تجعلها غير ذات فائدة لاحد، هذا الانقسام شيء جديد بالمقارنة. ولقد قاد هذا الانقسام الفنانين الى فئتين يعرفان بالمتاجرين بالفن، والفنانين الحقيقيين – اي هؤلاء الذين يعملون ليرضوا المستخدم الذي يدفع لهم، واولئك الذين لا يرضون الا ذواتهم – بالرغم من ان هؤلاء يأملون دائماً في أن يرضى عن نتاجهم شخص ما فيدفع لهم ما يكفي لان يستمروا في ارضاء ذواتهم دون ان يموتوا جوعاً. وان ثلاثة ارباع الافلام التي تظهر، وربع الكتب التي تنشر، وتسعين في المائة من الموسيقى التي تؤلف هي «تجارية»، بمعنى انها أبدعت في الاصل لتتحول الى مال. أما مقدار ما يتبقى، أي الاعمال الفنية «الجميلة»، فهي محاولات أصيلة للتعبير عن النفس دون الرجوع الى حاجات المجتمع. وهي في بعض الحالات تنجح الى حد كبير في ان تفرض نفسها على المجتمع الى الحد الذي يدفع المجتمع الى احتياجها. وفي حالات اخرى تكون هذه الاعمال شخصية وبعيدة عن تجربة الانسان، العادي ولهذا يشكو المجتمع من عدم جدواها وغموضها، وانفصالها عن الحياة، لانه ليس في احتياج اليها. وهذه الشكوى، التي تتردد هذه الايام ليست معيار الاصالة وصدق الاعمال الفنية محل النقاش. فهي قائمة طويلة لغرابة اللغة التي تختبىء وراءها الاعمال الفنية. لان الرؤية الشخصية تتطلب مجموعة من العبارات الاصطلاحية Idioms للتعبير عنها. وفي الغالب ان يمر جيل أو ما يقرب من الجيل قبل أن يفهم الرجل العادي هذه العبارات الاصطلاحية ويقبلها، ثم تنزل للتداول العام. وان الفترة التي تنقضي بين ظهور رسالة فنية مستغربة، معبراً عنها باصطلاح فني مستغرب، وبين قبول الرجل العادي لها، يمكن ان نقللها عندما يكرس الفنان فنه في خدمة قضية يفهمها الرجل العادي. لقد كان جيوتو عنيفاً في ابتكاراته مثل بيكاسو، ولكن لما كانت ابتكارات جيوتو موجهة للدين المسيحي (بينما ابتكارات بيكاسو لم توجه الا لبيكاسو نفسه) فان الرجل العادي المعاصر لجيوتو، صدم بالرغم من أنه قد يكون شعر ان في استطاعته ان يرى بشيء من الغموض كيف ان الاصطلاح الجديد يخدم الى حد ما هذا الغرض بطريقة جديدة ذات قيمة. واليوم يمكننا ملاحظة هذه الظاهرة نفسها. فكلما كان الفنان راغباً في التوفيق بين عمل «ما يريده هو» (في حالة رمبراندت، دراسة الضوء) وبين ما يريد مستخدمه (في حالة بانتج كوك، مجموعة من الرسوم يمكن التعرف عليها) كلما اصبح عمله مقبولاً. فالفنان التكعيبي الذي لا تعطي صورته إلا تكعيبية الاشياء بوجه عام يكون عرضة لان يصيب الرجل العادي بالحيرة وعدم الاكتراث. ولكن الفنان التكعيبي الذي يستعمل التكعيبية للاعلان عن مزايا بترول أو بيرة لشخص ما، يفهمه الناس في الحال. فالبيضة التي يرسمها الفنان التكعيبي، هي بالنسبة للرجل العادي بيضة لم يتقن رسمها، ولكن كوب البيرة المرسومة بالطريقة التكعيبية تكون مشوقة وآسرة. فالحالة الاولى هي مخاطرة بصرية للفنان والحالة الاخرى هي سياحة كشفية تحمل معها المشاهد وتضعه بطريقة مدهشة في المكان المقصود ان يصل اليه. فعندما

يكرس الفنان فنه للمجتمع ، فان المجتمع يبدأ في الحال في اعتباره عاملاً يقوم بوظيفة مفيدة ، وليس طفلاً لاهياً يسلي نفسه في فراغ .

وبنفس الطريقة فان اكتشاف عالم لتيار كهربي اذا سرى في سلك معدني يسخن المعدن ، هذا الاكتشاف لا يهم الناس ، ولكن الرجل الذي يستعمله لتسخين « غلايته » يثير الاهتمام العاجل .

فوظيفة الفنان المزدوجة هذه هي مفتاح قصة الفن : ولقد ظهرت مؤلفات كثيرة مدروسة عن الفن ولكنها فشلت في ان تروي القصة لانها عميت عن التكيف الدائم Perpetual adjusment الذي يحدث في الفنان بين الفن كتعبير والفن كخدمة .

ولا بد لنا قبل ان نوغل في فحص انواع التكيفات المعنية التي تقع عندما يحدث ان يكون الفنان رساماً او نحاتاً ، لا بد ان نذكر شيئاً عن رؤية الفنان الداخلية ، وقد يكون هذا ايضاً شيئاً هاماً للمجتمع ، ولكنها فضلاً عن هذا « شيء في حد ذاته » ،فبصرف النظر عن وظيفتها كوسيلة للاتصال بين انسان وآخر فهي توجد في مكانها الصحيح وهي تحوي مجموعة من الاصوات او الكلمات او الحركات او مجموعة من الاشكال المرسومة بمادة صمغية على قماش مرسم او لمجموعة من الكتل المنحوتة من الحجر او المشكلة من الطين . وفي كلمة واحدة ، فان لها شكلاً ، ولا بد من ان تتبع قوانين الشكل التي تمليها وسيلة الفنان التي يستخدمها . فقد تجسم احدى الجمل فكرة في ذهن الكاتب ، ولكنها لا بد ايضاً ان تخضع لقوانين النحو والصرف . ولقد يوحي لنا رسم ما بما اراد راسمه ان يقوله ولكن هذا الراسم لا بد يقول ما يريد قوله عن طريق القلم . ولقد يمثل تمثال رجلاً يرتدي سروالا طويلاً ، ولكن ، اذا كان مصنوعاً من الحجر ، فان الجسد والقماش لا بد ان يترجما بلغة الحجر : وليس من المحتم ان نحمل الحجر على تقليد الجسد والقماش . فلكل وسيلة مجموعة قوانين خاصة بها . والعمل الفني لا بد ان يطيعها والا تلاشى Perish . فان الكلمة عندما تصبح جسداً تكف عن صفاتها الكلمية ولا بد ان تسلك سلوك الجسد .

وفوق هذا ، فان العمل الفني مستقل بنفسه ،فلا بد للصورة من اربع اطراف Edges ، ولا بد للمسرحية او المقطوعة الموسيقية من مقدمة ونهاية ، بينما التجربة التي تجسمها ليس لها اطراف ؛ وليس لها بداية او نهاية . ولكن العمل الفني لا بد ان يكون شيئاً يمكن عزله عن كل ما يحيط به . ان الصورة تشغل مساحة مربعة من الياردات ، والسمفونية تشغل من الوقت ثلاثة ارباع الساعة ؛ والمسرحية تشغل ياردات مكعبة من المكان وساعتين من الزمن . ولهذا ، فوجود اطراف في المكان او الزمن يتبعه ضرورة وجود شكل . ولقد اشار ا. م. فورستر E.M.Forester في مقاله المعروف عن الرواية ، الى ان تاييس Thaïs لاناطول فرانس ، لها شكل ساعة رملية Hour Glass . (ونحن لا نراها كساعة رملية – اي الحصى الملون لحجرة المحاضرات – ولكن اذا لم يكن بسبب هذه الساعة الرملية ، فلا القصة ولا العقدة plot ولا شخصا تاييس وبافينوس ممكن ان تبذل القوة الكافية وان يتنفس احدهما كما يفعل .) وان « صور رومانية » Roman pictures لبيرسي لبيوك Percy Lubbock قد شكلت مثل سلسلة عظيمة – وأجود ما في صور رومانية ليس وجود نموذج لسلسلة عظيمة – لان في امكان اي شخص ان ينظم سلسلة عظيمة ، ولكن تناسب النموذج pattern هو عمل مأخوذ من الفن التخطيطي graphic والايقاع rhythm من الموسيقى ، وعمل الجمل phrasing من الادب . ولكنها جميعاً تتداخل في بعضها ، وكلها ابدعها اناس يريدون (مثلما اريد) ان يتكلموا عن العمل الفني كشيء في ذاته ، شيء له شكل ، يقابله شكل له مضمون . والنموذج على سبيل المثال هو الايقاع المرئي ، وهو مجموعة من العلاقات معروفة لعين الناظر . ورسم وردة هو فحسب رسم وردة ، وهو شيء يذيع كمية من المعلومات النباتية Botanical ولكن كرر هذا الرسم ثلاث مرات بجوار بعضها على ورقة مربعة تحصل على نموذج . لقد اقمت علاقة بين ثلاثة اشياء ، وليس فحسب بين ثلاثة اشياء ولكن ايضاً بينها وبين الاطراف الاربعة للورقة . وهذه العلاقة من الممكن ان تكون سارة او غير سارة دون اي رجوع الى علم النبات وما دام لا بد للعمل الفني من شكل فلا بد ان تكون لها علاقة بالشكل وببعضها البعض .

واستثمار الفنان للأطار والشكل اوجد في جميع الفنون مجموعة من التقاليد غريبة الشكل في ظاهرها . لماذا اخترع الشعراء شكلا اطلقوا عليه Sonnet ؟ ما السبب في ان الاذن لا بد ان يتملقها نظام معقد من القوافي ؟ (ما الفائدة في ان تكون مجموع الا iambic pentameter اربعة عشر اذا كان ثلاثة عشر او اثنا عشر تكفي للتعبير عن فكرة الشاعر ؟) ما السبب في ان ادوارد لير Edward Lear ، وهو يعيد كتابة قصة « رجل اوستا » Man of Aosta القديمة الحزينة ، قرر ان يلائم قصته في شكل Limerick الغريب بنموذج سطورها اللازمة – طويل ، طويل ، قصير ، قصير ، طويل ، ونموذج قوافيها المعادل لـ p ... ، p ، ب ، ب ، p ؟ ما الذي اوجد شكل السوناتا Sonata ؟ يستطيع احدنا ان يجيب بقوله ان ثمة في اغوار الانسانية ظمأ لشيء اصطلحنا على تسميته بالمتعة الجمالية وهو ظمأ الى النظام والتناسق والتوازن والايقاع والنموذج .

ولكل فن مجموعته الخاصة من التقاليد ، ولكن هذا المقال المختصر ليس مجالاً لفحصها بالتفصيل ، وحسبنا الآن ان نتذكر ان الفنان ، في عملية الخلق يلح على ذهنه سؤال دائم عن الشكل الذي سيأخذه عمله الفني . فصورته ليست مجرد تمثيل لموضوع معين أو تعبير عن شعور نحو موضوع ما ، انها شيء في حد ذاته ، تحتفظ بثباتها – اذا حولت رأساً على عقب ؛ وهي ثابتة سواء كانت تمثيلاً غير دقيق او تمثيلا لشيء يكمن خارج تجربة المشاهد (مثل صورة منظر ثلجي بالنسبة لرجل يقطن الصحراء) فهي شيء يكيف نفسه بشكله فحسب ، وتمشي هذا الشكل مع قوانين الوسيلة التي تستخدم

ترجمها عن الانكليزية
أحمد مختار الجمال

القاهرة

جندي في السماء

بقلم عبد الرحمن البيك

[مهداة إلى شهداء ١١ كانون الاول]

انا طفل صغير، في السابعة من عمري.. كنت بالامس في عهد دامس، عهد لم يمنحني حق المعرفة، ولم يسغ لي الحياة الحرة. اما الآن فأنا اتقصى الحرية، واسترسل في تقويض العبودية عن نفسي الصغيرة.

بالامس كان لي اخ، اما اليوم فلم يبق عندي اخ.. وجميع رفاق الاطفال لهم إخوة يحبونهم ويقدسونهم.. اما انا فقد كان لي اخ.. ولكنه الآن في السماء.

جميع أهلي واقاربي.. اعتبروني غبياً، ولكنهم اخطأوا، لان الطفل يعرف ما يجري على الكرة الارضية. ذلك لان دمه الذي يجري في عروقه من دماء الشعب، ولان جسمه خليق لان تدفعه الوطنية ثمن المجد..

وأحببت الا يعصى علي امر، فحزنت مع اهلي واجهشت في البكاء، امام صورته التي لم تذو فيها ابتسامته المشرقة.. ولكني مع ذلك كنت اعرف ان اخي سيعود ذات يوم، وسوف أسعد واسر بمقدمه.. فالاطفال يحبون ان يمشوا جانب الضباط ويلتذوا من حركاتهم، ويسروا من تلمس ازرار معاطفهم، ويحبروا من تقلد قبعاتهم الواسعة التي تغمر نصف الوجه.

ومنذ يومين فقط، امرنا اخي برسالة ان نحصل له على دار سكن. فهو يرغب في الزواج.. وبحثنا له وفتشنا.. فلم نعثر على دار سكن، لان السكان منحشرون في جميع الابنية والمساكن متلاصقون قرب بعضهم، يتنشون برحيق الحياة، فلم يسمحوا لاخي بأن يغوص في جنباتهم، لينعم بما ينعمون ويلتذ بما يلتذون، بل ولم يشفقوا على خطيبته التي رأت ان تخلد الى قلب اخي الدافيء حينا يعود بعده الى خطوط القتال.

.. بلى.. لقد فشلنا في ايجاد مسكن.. ولكن المشيئة الخفية التي تكيل ضمائرنا وتتجاوز عقولنا كلما اعتقدنا انها اتسمت وشملت، اختارت له مسكنا صغيراً.. اجل فهناك خارج البلدة.. تقوم فسحة خضراء لا تستقبل الا الصامتين.

وعاد اخي كما كنت آمل.. وزارني صديقي كي يراه ماشياً جانبي، ولكن صديقي في هذه المرة لم يره ولم تقع عليه عيناه الصغيرتان.. لان اخي جاءنا هذه المرة في صندوق خشبي موصد.. أجل في صندوق خشبي لم يسمحوا لنا بفتحه ونبشه كي لا يزداد البكاء.

في ذلك اليوم هطلت امطار غزيرة والصندوق في الغرفة يجتذب الآلام.. وابي جاثم بوفي ذهول كابي، ملصقاً خده بجانبه الخشن، كأنه يستمع الى وجيب قلب ابنه الذي لم يبق منه إلا الصدى المتباعد.. وأحد من الناس لم يقترب من الصندوق إلا والقى بالازهار عليه.. حتى امسى هذا دوحة وارفة من ربيع دافيء أيقظته مشاعر الناس على أفق جديد من حياة امة اخي ووطنه.

ومرة ثانية، اشفق الناس علي وظنوا أني حتى منتصف النهار، لم أدر من الامر شيئاً.. ولكن الاطفال يعرفون.. يعرفون كل شيء مهما في سجيتهم.

وطال امد زيارة اخي.. حتى خيل لي أنه جاع في صندوقه، ولكني لم اقترح تقديم الطعام له.. لاني أعرف انه لم يعد بأمكانه ان يأكل.. فقد تكون اسنانه محطمة.. وثغره ممزقاً.. لا بل إن شهوة الطعام في نفسه غادرتها..

واقتربت من الصندوق، ولم يكن هناك من يؤكد وجود اخي فيه.. كان يوماً من دخان.. ورفيقي بجانبي ايضاً لم يصدق.. ففي الاحلام يشاهد الصغار ازوع المآسي وافدحها تتحقق.. وهذا مشهد.. مشهد لن نستيقظ وكان ابي وحده يستطيع ان يصف ما يشاهد في قلب الصندوق..

ولكن لسانه كان منحلا رخواً.. كان يحدق في جنبات الصندوق فيخترق بطرفه الثاقب المثقل بالالم والاسى تلك الالواح القاتمة.. فيرى جسد ابنه ويلقي عليه نظرات الوداع.. نظرات ممزقة زائغة.. نظرات لا تهدأ ولا تستقر فبين تلك الالواح المنحدة جسد ممزق كأشلاء زورق صرعته صخرة القدر وابادته.

.. وعجبت وصديقي ان يتمزق اخي.. وتساءلنا.. ايتمزق الانسان بالسكين كما تتمزق كتلة من اللحم.. وأحسسنا بقشعريرة في جسدينا.. وطاف في مخيلتنا ان المخالب الحيوانية تمزق الاجساد ولا تتورع عن نبش القلب الانساني من مكنه الآمن، ثأراً لانحطاطها، وثأراً لطبعها الوحشي المتأصل، وثأراً لدناءة سجاياها المتوارثة..

واقتربت من الصندوق أكثر.. فلم اسمع همساً ولا صوتاً.. فالمائت وديع كل الوداعة، هادىء كل الهدوء.. فارتمت وصديقي الصغير من صمته الازلي. وسألني صديقي.. «الن يخرج لنراه..» فلم احفل باجابته، والاقفال تزعمت جسده وهاهي صامتة لا يجتلي غمها.. وطفت حول الصندوق ثم مددت اصبعي الرفيعة البيضاء في ثقب دقيق، فلمست يد اخي.. وكانت باردة.. ثم لمست كم معطفه فاذا هو مهترىء ممزق.. والازرار ارتحلت عنه، وضغطت كفي، كي ألمس صدره ووجهه ولكن الثقب دقيق، فاخرجت اصبعي، فاذا هي حمراء قرمزية مشبعة بدمه القاني.. دم يجري في عروقي ايضاً.. لا يختلف في شيء عن الدم الذي يجري في عروق جميع الصغار والكبار.. يا للأسى ان اخي بذل دمه وازهق روحه.

وانتقلت باصبعي المصطبغة بالدماء الى ركن قصي، وحدقت بهذا السائل المباع، فلم ار سوى حديقة من الاقحوان الاحمر تذرع اصبعي.. حديقة فيها عنادليب يؤمن باغصانه وورده.. لم ادر ما الذي حشر في مخيلتي تلك الرموز.. انها ذكرى ستخلف في ذهني على الدوام صورة ذلك المجد الذي شاده اخي على نافورة فوارة من دماء قلبه العريقة..

وعند المساء، انتقلوا بجثمان اخي الى المقبرة.. وكان صديقي الصغير قد افترق عني، وذهب الى بيته ليأكل ويعيش.

اما انا، فقصدت المقبرة من جانب آخر.. واستبقت الجنازة المقدسة فرأيت المسكن الذي اشتراه الوطن الى اخي.. كان مسكناً صغيراً، بناه عامل خلال ساعات دون ان يفترشه. كان مسكناً لا فسحة فيه.. لان ساكنه عزف عن الحركة، وابطل القيام والقعود.. اجل كان مسكناً ضيقاً ليس له باب او نافذة.

ولم يعنني الا ان احدق بهذه الجموع الغفيرة.. فقد جاءت لزيارة اخي مرة اولى واخيرة.. وكانوا جميعاً يبكون والمناديل على مآقيهم.. ذلك لان السماء تبكي بغيومها ارضنا.. ارض ذات الصفة الانسانية التي لم ترتكز عليها بعد معالم الحب الانساني خلال احقاب التاريخ.

ونزل الصندوق اخيراً الى مرقده وابي ينادي اخي في شيء من الذل والعبودية ولكن اخي ذهب بعنفوانه وكبريائه، وتدثر التراب كما تتدثر الامة العظيمة كرامتها وعزتها.. ورحت بعد هذا، انظر في وجوه الناس، فأشاهد في كل وجه صورة اخي وفي كل سمة ملامح اخي.. اجل فهؤلاء ايضاً اخوتي.. ويمكنني ان اشغل قلبي بحبهم.. لانهم ايضاً سيبنون المجد كما بناه اخي الراحل.

.. انا طفل صغير.. في السابعة من عمري.. وسأغدو رجلاً..

اجل انا كالشعب.. وانا بعقيدتي خبيرة الوطنية والاباء.. انا لم افتقد اخاً انا لم اندب اخاً.. وانا لم ابث آلامي واحزاني.. لان الكل اخواني وان الجميع اخوة بين احضان كلمة الشعب..

في ذلك اليوم هطلت امطار غزيرة.. هطلت على المروج والمراعي والحقول ورؤوس الناس.. فأنبتت العشب وانمت السنابل.. هطلت بسخاء كي نستمر في عيشنا.. وكي تستمر حياة امتنا في انفاس اجيالنا الصاعدة..

فودعنا الشمس ونمنا ليلنا واذا بها تشرق من جديد.

حلب — عبد الرحمن البيك

رسالة الى صديقة

صديقتي
عمي صباحاً إن أتاك في الصباح
هذا الخطاب من صديقك المحطم المريض
وادعي له الإله الوديع ان يشفيه
وسامحيه، كيف يرجو أن ينمق الكلام
وكل ما يعيش فيه أجرد كئيب ؟
فقلبه كسير
وجسمه مغلّل الى فراشه الصغير
وبالجراح والآلام قلبه كسير
نهاره ثرثرة العواد والصحاب
وليله غرائب لم يحوها كتاب
بالامس في نومي رأيت الشيخ محيي الدين
مجذوب دربنا العجوز
وكان في حياته يعاين الاله
تصوري ! ويجتلي سناه
وقال لي .. « ونسهر المساء
مسافرين في حديقة الصفاء
يكون ما يكون في مجالس السمر
فظنّ خيراً ، لا تسلني عن خبر
ويعقد الوجد اللسان .. من يبح يضل
ومت مغيظاً قاطعَ الطريق
ومات شيخنا العجوز في عام الوباء
وصدقيني ! حين مات فاح ريح طيب
من جسمه السليب
وطار نعشه وضجت النساء بالدعاء والنحيب
بكيته، فقد تصرمت بموته اواصر الصفاء
ما بين قلبي اللجوج والسماء
بالأمس زارني ووجهه السمين يستدير
مثل دينار ذهب
ومقلتاه حلوتان .. جرتان من عسل
عميقتان بالسرور
بياض ثوبه يكاد يخطف الابصار
وقال لي ، وصوته العميق كالنغم
يا صاح ! أنت تابعي
فقم معي !
رد مشرعي، فالأمر في (الديوان) .. قم!
— يا شيخ محيي الدين انني كسير
— لا يكسر الجناح يا إنسان داء قلبه
[النسيان
— يا شيخ محيي الدين إنني صغير
— بل كلنا صغار، الحبيب وحده هو الكبير
لم أدر كيف غاب
لا من خلال باب
أنصتُّ لم اسمع خطاه تلمس التراب
حدقت وانتفضت وانزعجت لحظةً وغاب

***

صديقتي .. إني مريض
وساعدي مكسور
ومهجتي على الفراش كل ساعة تسيل
وأغزل التراب في سكينتي رداء
وأصنع الاكفان ثم أنجر التابوت
هذا الصباح !
أدرت ظهري للحياة، واغتمضت كي أموت
في هدأة السكوت
قد آن للشعاع أن يغيب
قد آن للغريب ان يؤوب
للمركب الجانح ان يرسو على شط قريب
للجدول الناضب ان يفضي إلى نهر رحيب
وطرقتين فوق بابنا .. موزّع البريد
لا ! لا أريد
هل من مزيد يا حياة .. محنتي هل من مزيد
خطابك الرقيق كالقميص بين مقلتي يعقوب
أنفاس عيسى تصنع الحياة في التراب
الساق للكسيح
العين للضرير
هناءة الفؤاد للمكروب
المعدمون، التائهون المقعدون يفرحون
كمثلما فرحت بالخطاب يا مسيحي الصغير

القاهرة **صلاح الدين عبد الصبور**
من الجمعية الادبية المصرية

وداعاً .. أيها الشهداء!

بقلم سامي عطفه

أنا جندي ، عجوز .. لن اصف نفسي بغير هذا ، ولن اقدم اسمي ؛ فليس لجندي ما يعنيه في ذكر اسمه ، كل ما يهمني الآن ، ويملك علي حواسي ، تلك الصفحة الفضية ، وقد ارتسمت عليها خطوط طويلة ، اطول من الساعات التي انقضت ، تلك هي الخطوط التي رسمتها فلول زوارق الصهيونيين ، المتدافعة نحو الافق ، لتختفي على شواطئها ، كما يختفي الخلد اذا سطع نور النهار .. وثمة هذه الارض المخضبة بالنجيع الحار .. وحولها تمتزج بالدماء ، فتثير تلك الرائحة اللزجة ، التي قدسها الاقدمون ، انها رائحة الارض التي رويت بالدماء .. إن الجثث ، إذن ، لم تفارق ارضها .. هنالك عناق حار .. يشدهم الى الارض .. وهذه الشجيرات ملوية الاعناق ، حانية الاغصان . هنالك تحت شجيرة سقط الملازم انه لا يتحرك - ياسيدي الملازم ... ماذا انه ... ميت .. وهناك على كومة من التراب الجندي الاول ، انه هو الآخر لا يتحرك ، لقد كان صديقي ، اما هي ، فهي هناك .. يجب ان أزحف اليها .. تباً لك اينها الساق المهشمة ، انك مرتبطة بي الى الابد .. لقد هشموا ساقي ، ولكنني .. يا الهي .. انني عاجز .. انها زوجتي ولا استطيع ان اتقدم لأغمض عينيها .. انها لم تفارق الحياة بعد ، ودمها ما زال يتدفق من موضع الرصاصة في العنق .

هل انتهى كل شيء ..؟! لم يعد جسدها يتحرك ..! يا لها جثة خيم الموت والسلام عليها ، وما زال شبح الابتسامة الوادعة يتراقص على الوجه الميت .. انه الشيء الحي الخالد الذي لن يمحوه الموت .. هكذا كانت تبتسم لاطفالها ..!

***

كنا نقيم هناك ، في هذا البيت الذي هو آخر ما يمتد اليه الطرف على الروابي فوق السهل . ما زال ، هنالك اطفالها .. لا ادري ان كان اطلاق الرصاص قد ايقظهم .. ايه اطفالي ، صغاري ! أتعرفون كيف تضحكون ملء قلوبكم الآن ؟ .. هل تعرفون كيف تفاخرون بامكم الشهيدة ؟!.

هذا منزلنا يقع على بعد ميلين من هنا ، هذه المسافة كانت تقطعها دائماً ؛ عندما كانت تحضر لي طعامي .. سنة كاملة على شاطىء طبريا ..

لم نكن نفترق الا نادراً ، فعندما أنتهي من نوبة الحرس كنت اجد لذة في ان اصعد الى منزلنا . اما اذا مكثت هنا فانها كانت تأتي بالطعام والثياب ، واحياناً كانت تأتي لغير سبب .. ولم تكن تعنى بي فحسب ، بل كانت تعطف على جميع رفاقي .. فاصبحت امهم جميعاً .. تغسل ثيابهم وتسهر على مريضهم ، كانت تنشر السعادة في هذه البقعة من خطوط القتال .

***

كان يومنا جميلاً دافئاً ، فمنذ الصباح تقشعت السحب ، وبرزت السماء الزرقاء بشمسها المنيرة ، كما لو كنا في يوم ربيعي .. وعلى صفحة بحيرة طبريا الرقيقة انتشر شعاع عذب متراقص ، واخذت الطيور المائية تحوم فكانت تغمس بالماء مناقيرها القرمزية حين تسف ، ثم تتطاير فرحة مستبشرة .. وطفقت زوارق الاعداء تمخر في الماء ذاهبة آيبة ، كانت تتحرك في تشكيلات مختلفة ، تحتشد حيناً ، وتتشتت حيناً آخر .. غير انه كان واضحاً أنها تحاول ان تقترب من خطوطنا على الشاطىء بقدر ما تستطيع .

وعندما اتى الجندي الاول عصراً ليجلس معي قليلاً ، بادرته بالقول :

– انظر يا صديقي ، ان يومنا رائق ربيعي ، ان يوماً من ايام هذا الشهر الكئيب المطير لم يضارعه جمالا ..

لكنه كان مقطباً ، يبدو مثقلا بالهموم فاجاب : تباً لهم انهم يكدرون جمال اليوم ...

– دعهم ، انهم في منطقتهم ، ان هذه هي مناوراتهم المعتادة ، تصرفات تفتقر الى اللباقة .

و .. وعندئذ قاطعني محتداً ..

– انظر جيداً ، انهم يقومون بحركة غريبة ، لكأنما هم يستطلعون مواقعنا .. لقد لاحظ هذه الحركة الملازم ، آمر السرية فاتصل بقيادة الخطوط الامامية .

– بم اجابت القيادة ..؟

– يجب ان نرد اعتداءهم ، اذا فكروا بالاعتداء ..

– لعلك واهم أيها الصديق انظر .. انظر انهم يلقون بشباكهم الى الماء .

– إن الصيد كذبة معهودة عنهم ، فكلما خرقوا قوانين الامم المتحدة تعللوا بالصيد .

– على رسلك يا صديقي ، ليست هي المرة الاولى ولن تكون ، دعك من التخيل والوهم ، فان الوحدة المرهقة والتربص يخلقان فينا كثيراً من الاوهام المزعجة .. اذا خرقوا اتفاقية الهدنة ، فاننا سنلقي عليهم درساً قاسياً .

قال صديقي وهو يشعل سيجارة جديدة : « إن قلبي ينذرني بالشر .. ان اليهود لا يفهمون الشرف اكثر مما تفهمه كلاب البحر وخنازيره . فالعدوان دأبهم على حدودنا .. على القطاع الاردني والقطاع المصري .. لقد كنا دائماً نعاملهم بما يقضي به الشرف .. ولكن عدونا ليس شريفاً .. سأعد الرشاش والذخيرة » .

كانت عيناه لا تفارقان تلك الزوارق التي كانت تحاول ان تخترق

> « ليست هذه فصولا ملفقة ، بل لقد كان ابطالها ابطالا روحاً ودماً .. فلقد سقطوا - حقيقة - صرعى العدوان الصهيوني الاثيم على المخافر السورية الآمنة على بحيرة طبريا .. لكن بعدما دفعوا العدو الغادر ، ببطولتهم وشهامتهم . لقد كتبت تمجيداً لاستشهادهم .. فلعلها تكون جديرة بهم . »

منطقتنا . وعندما مضى عني تابعته بنظرة فضول . كان في ريعان الشباب ، يتدفق حيوية واباء . وسمعت صوت زوجتي من الوراء . « قد تزداد البرودة في الليل ، بل ان السماء قد تمطر ». وابتسمت لملاحظتها ، فقد كانت السماء لا تزال صافية :

– ما ادراك يا عزيزتي ؟!

– «ان صفحة البحيرة ساكنة كما لو كانت وجه ميت . انهم يقولون ، ان هذا ينذر بعاصفة ليلية مريعة . لقد جئتك بهذا » ووضعت رداء من الصوف ، « وهذا ايضاً ، فقد يسعفك الشاي الحار في الليل البارد . » ووضعت براداً محكم الاغلاق الى جانبي .. ثم وقفت تنظر اليّ برقة ووداعة ...

– سأشكرك طيلة حياتي ، تعالي اجلسي قليلاً كأننا لن نرى بعضنا حتى مساء غد .

وسألت وهي تجلس : « هل اتتك انباء من القيادة ؟ »

– عم .. ؟!

– بشأن تسريحك من الجيش ..؟ » وابتسمت .

– لا موجب لهذا السؤال .. حقاً انني بلغت الخامسة والاربعين ، غير انني سأرفض التسريح .

وتطلعت اليها لألاحظ الاثر الذي تركته كلماتي في نفسها ، وقالت بلهجة حالمة :

–«انها .. خمسة وعشرون عاماً » .. كانت تريد ان تضيف شيئاً آخر ، لكنها لم تجد التعبير الملائم ، سألتها : هل ضقت بالحياة هنا يا عزيزتي .. ان في وسعك ان تذهبي بالاطفال الى قريتنا هناك ..

– لا يا ابن عمي ، لن نتركك ابداً ، كل ما في الامر هو انني احب ألا تفاجئنا امور المستقبل ، دون ان نتهيأ لها . انت ترى اننا سنعود من الجندية كما اتيناها ، دون ان نوفر قرشاً واحداً .

– كل جنودنا فقراء يا عزيزتي ، حتى ضباطنا لا يملكون شيئاً .. ان ما يهم هو ان يقوم الجندي بواجبه .

واستغرقنا الحديث ، وغابت الشمس وراء التلال البعيدة . وأخذت عتمة المساء تفرش ملاءتها على السهل ، وانتبهت الى انها قد تلكأت عندي طويلاً فقلت :

– الآن يجب ان تعودي الى الاطفال ، انهم سيتخوفون في غيابك ، دثريهم جيداً في الليل ، فالبرد قارس .

فوقفت ، ولكنها لم تذهب ، فسألت : هل لك حاجة ؟

– قد يكون رفاقك في حاجة الى غسل ثيابهم ..

– غداً ، سابلغهم رغبتك ..

وسارت ، وسمعت حفيف ثيابها وهي تختفي في اعماق الظلام .

كان الظلام قد خيم على السهل ، واختفى ذلك البريق النضير الذي كانت البحيرة ترسله في اواخر النهار .. واشرأبت قطع كبيرة وراء الافق ، من سحب سوداء مدلهمة .. كان تفكيري لا يستقر على شيء . فكرت تباعاً بزوجتي واولادي ورفاقي كما فكرت بالاعداء .. واخذ سرب من بنات آوى يعوي في البرية البعيدة ، فأحسست بالضيق والكآبة ، بقسوة المساء في تلك الساعات ، فكرت بالاشياء ، كما لو كنت افعل ذلك لآخر مرة ، فكرت بهم بكآبة عميقة وهم .. فقد كان الليل يثقل كاهلي ، كحمل ثقيل . وتدثرت بمعطفي ..

كان كل شيء يبدو صامتاً .. صمتاً ابدياً ، قاهراً ... لا يملك المرء دفعه .

وفجأة برز في منطقة العدو نور كاشف دار نصف دورة ، باتجاه الجنوب ، ثم انطفأ وبرز ثانية فاستلقى على البحيرة ، وبرز نور ثان وثالث .. احسست فجأة بالفضول فوقفت .. وحاولت ان ارى شيئاً يتقدم . لكن الظلام عاد وعاد معه السكون .. وفجأة قفز الى جانبي شبح ، فهتفت : من ؟

– « انه انا .. » كان الملازم ..

– اجل يا سيدي ..؟

– ان العدو يتحرك اليوم خلافاً للعادة ، وعلينا ان نكون حريصين على ان لا يغتنم الذئب فرصته .. هل مدفعك الرشاش على ما يرام ..؟

– اجل سيدي ! انه معد تماماً ..

– حسناً .. تربص .. فقد يكون هنالك هجوم في اية لحظة ..

وغاب الملازم في الظلام . وتربصت وتربصنا جميعاً .. ومرت الساعات ثقيلة ، كل ساعة تحمل غماً جديداً . وادركنا ان الانتظار عبث ، فذهبت مخاوفنا ، واستسلم الجنود الى النوم في المهاجع ، وبقيت ساهراً ، اغالب النعاس ، فقد كانت نوبتي .. وفجأة همس صوت من مكان قريب :

– هل تسمع شيئاً ؟

كان صوت الجندي الاول . واجبته نافياً فهتف :

– انصت جيداً ، فهناك هدير في مكان ما من الجنوب الغربي ..

اجل فقد كان هنالك هدير عميق لا يشك المرء في انه هدير محركات ثقيلة ، كان ذلك حوالى النصف بعد التاسعة .. وصاح الجندي الاول :

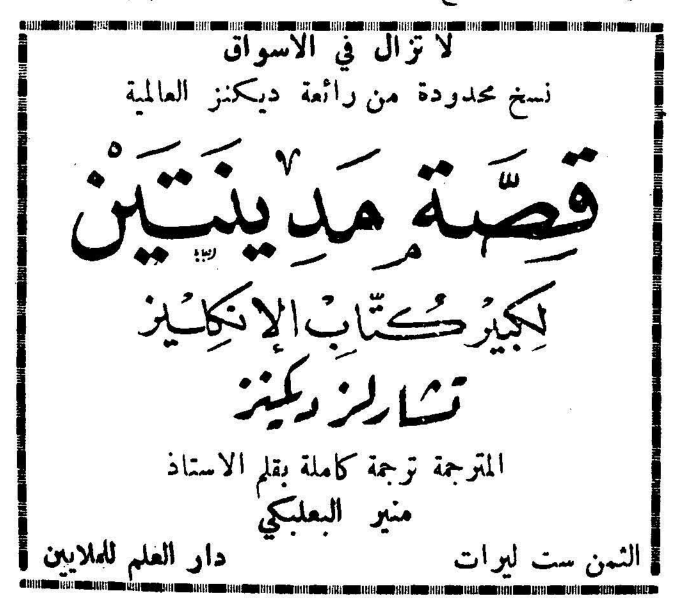
– اهتف بالملازم ..

– أجل ... ولكن الملازم كان ساهراً يحاول الاتصال بالقيادة عبثاً فقد كانت الخطوط مقطعة .. وفي نفس الوقت اتانا نذير من الجنوب :

– سيدي الملازم .. سيدي .. كان يلهث ، « الكوماندوس اليهودي هاجموا المخافر الجنوبية ..» لقد فهم الامر ، الكوماندوس اليهودي يطوق المنطقة الجنوبية ، وقد قطع الاتصال الهاتفي ..

لقد تتابعت الحوادث ، فقد وصلت الزوارق خلسة الى الشاطىء . وانزلت فرق الكوماندوس .

وتعالى الهدير حتى لكأن الارض زلزلت . والقت الطائرات القنابل المضيئة ، لتكشف المواقع للمهاجمين .. وتعالى صوت الملازم مجلجلاً :



« الامر متعلق بشهامتكم يا اخواني ، استبسلوا ، فليس لنا أمل بالنجدة الآن ..» كانت اسلحتنا المدافع الرشاشة ، وبعض القذائف الصغيرة .. وتعالى صوت الملازم « سنموت شرفاء .. » .. اجل هذا كان ما يمكن أن يقال ؛ واحسست بحركة من الوراء :

– من هناك ؟..

– أنا ، أنا ..

تردد الصوت الناعم خافتاً ، أجل كانت زوجتي ، وسيطر على مشاعري سرور مفاجيء .. لكن قلبي قفز من مكانه ..

– الأطفال .. كيف تركتهم ؟. بالله عودي قبل ان يحتدم القتال ..

أجابت بوداعة ورجاء : « بالله لا تطردني هكذا ، ان الاطفال في حرز امين ، لقد تركتهم عند الجارة .. دعني الى جانبك ..

– هذا جنون ، قدري الموقف . اننا معرضون الموت .. لمن تتركين صبيتك ..؟

واقبل الملازم .. وقد سمع الحديث: ماذا هناك ، من عندك؟

– زوجتي يا سيدي : انها ترفض الذهاب ، مرددا بالله ... هتف الملازم دهشاً :

– عودي يا سيدتي لاطفالك .. إن هذا لا يجوز أبداً .

– ان اطفالي في أمان .. دعني يا سيدي . ارجوك ، علني اقدم لكم خدمة ..؟

تريث الملازم قليلا لا يدري ما يقرر ، ولم استطع ان انطق بكلمة . وتقدمت هي فجثت عند قدميه : « يا سيدي .. دعني ارجوك .. انني افهم .. الله يعنى باولادي ..»

وانحدرت دمعة على وجنتي ، وتدفق في قلبي حنين غامض ، فهتفت :

– دعها يا سيدي ، انها تؤدي واجبها ، فنحن بحاجة لجهدها .

وانحنى الملازم انحناءة عميقة ، وهتف بصوت مضطرب :« سيدتي . اني على ثقة اننا لن نغلب أبداً . .ان في قيامك بواجبك معنى رفيعاً سامياً لم يتكشف طيلة القرون السوداء الماضية . » وغادرنا الملازم . ولكن تحت وابل من الرصاص .. وسارعت الى القول :

– سأنفذ كل ما تأمرني به ..

– ستنقلين الذخيرة من المهجع القريب ..

واضطرب الصمت وعلت قعقعة تلك الوحوش الرهيبة .. طائرات .. دبابات .. زوارق .وتوهجت الارض بانوار ساطعة . كانت افواج العدو تتقدم وهي تزرع ارضنا متفجرات ورصاصاً .. ولكن تقدمها كان بطيئاً ، فقد كان رصاصنا هو الآخر يعيق تقدمها . وقفز الى دماغي السؤال : كم سنقاوم ..؟ الى متى ..؟ لقد كان مستقبلنا عندئذ في كف القدر . لقد كنا نفراً قليلا .. خفراء على الحدود .. مستطلعين ، او أي شيء من هذا القبيل ، وكنا نعيق تقدم العدو .. ولكنه كان يتقدم ، فلقد حشد امكانيات ضخمة في عدوانه الغادر . كان الامر يحتاج الى معجزة .. على كل حال فقد كان « هذا يومنا » . وهتفت زوجتي وكانت لا تستقر بين مركز دفاعي والمهجع :« دافع انت ، لا تتلكأ في اطلاق النار » وانطلقت تعدو .

كان هنالك شبح آخر يعدو ، هو ملازمنا .. وقد حمل على ساعده « رشيشاً » وانطلق يزمجر مغضباً ، وابتسمت رغم الحرج ، فلقد فهمت ان الملازم كان يقصد ان يعزز كل مناطق الدفاع ، حيث يقاوم الجنود العدوان الضاري ..

وتدفق العدو ، وتدفقت الحمم ، وتساقط الجنود صرعى .. كان الموت يحصدنا .. ويحصدهم .. ولم يكن الزمن ليسرع في تلك اللحظات ، كان يتلكأ كمسافر نال منه التعب ، يا للأسف ، لقد سقط الملازم جريحاً ، ولكنه يرفض ان يصمت ، انه يضع يده على مكان ما من صدره، ويصرخ .. ماذا ؟!.. كانت اليد تفعل المستحيل لتحول بين القلب وبين الموت .

وتدفقت الاضواء الشيطانية ، ولم يكن يمكننا مقاومتها ، وكانت سيول الرصاص تتبعها ، كان العدو يأتي بزوارق جديدة ، بنجدات من الرجال والعتاد ، أما الزوارق القديمة فكانت تؤوب بقتلاه وجرحاه ...

لم اعد اسمع صوت الملازم... لقد انقضت ثلاث ساعات ، واحسست بثقل يدب في ذراعي ...

كنت ارقب بين حين وآخر المجاهدة التي كانت تزودني بالرصاص .. كانت منصرفة الى مهمتها في صمت ، وبعزم غريب .. ورأيت شبحاً يقتفي اثرها .. وتألقت الانوار ، فغمرتنا جميعاً .. وصرخت : بربك احذر ..

كان هنالك عشرة من الاعداء يداورون موقفي ،فسددت اليهم نيران مدفعي . وسمعت اذذاك صراخها ، فاتجهت بسرعة اليها : كانت تشير الي بيدها التي تحمل الرصاص.. يا للوحشية!سيل جديد من الرصاص ينهمر على جسدها الاعزل. يا للاوغاد . لقد تهاوت زوجتي على الارض .. وقفزت باتجاهها ، ولكن الرصاص.. الرصاص ، الذي حطم ساقي جعلني اقع على الارض،على مدفعي، وقاومت الغيبوبة يائساً، وغمر العرق وجهي ، كان لا يزال يحاول الاقتراب منها .. يا إلهي ماذا سيفعل ..؟ كان يتقدم منها ..

– كلا ايتها الكلاب البحرية ، ايتها الخنازير .. سوف احطم رؤوسك القذرة الذليلة .

وقصفته بمدفعي .. فارتمى بعيداً .. بعيداً جداً منها .

يا الهي ، يا اله الانتقام القادر اعني ، من اجل اطفالها .. يا رب لاتدع عيني تستسلمان لهذا النوم الثقيل .. تعالوا ، تقدموا . ولكن انوار الصبح الاغر كنست العتمة .. وماتت تلك الجلبة الوحشية ، فقد اخذ العدو يتراجع ، جاراً معه آخر قتلاه ..

– ايها الجنود ، ايها الرفاق ..

ولم يجبني الا هدير المحركات التي اخذت تبتعد . « ماذا ؟ ايها الجنود، هل متم انتم ايضاً ». اجل ،كان الملازم طريحا وقد لاصق وجهه الارض، ويده ما تزال على قلبه ، اما الجندي الاول .. فقد كان هو الآخر ميتاً . كنت وحيداً ، هكذا الجندي يبتلي بالوحدة الرهيبة احياناً .. ان الابخرة تتصاعد نشيطة من الارض ، وثمة تلك الشجيرات العاربة ملوية الاعناق ، حانية الاغصان ..

آه ، يا زوجتي ، يا شهيدتي .. سأزحف ، ولكن هذه الساق المهشمة لا تطاوعني ، يا الهي .. انني عاجز عن الوصول اليها .. اين انتم يا اطفالي ، يا اطفالي الخمسة .. لا تبكوا ، فان الابتسامة لم تفارق وجهها .. يجب ان اري رفيقتي ..

***

وانزلق على التراب الموحل ، يحاول ان يصل الى الشهيدة ، ولكنه لم يستطع ان يجر ساقه المهشمة ،وتصبب العرق غزيراً . وتداعت تلك الارادة الطيبة .. وأغمض عينيه ، ثم اسلم رأسه الى الارض الحارة .

مصياف (سوريا)   **سامي عطفه**

ازمة الرسامين العرب

بقلم سليمان فياض

بين حين وآخر، يقيم الرسامون العرب معارض لوحاتهم الفنية في عواصم الاقطار العربية وبعض مدنها المتحضرة. وفي كل معرض يقيمه رسام او مجموعة من الرسامين، تثور ازمة حادة ومتكررة من ازماتنا الفنية العربية المعاصرة. وهذه الازمة الموسمية تتمثل في ان المعرض الذي اقيم – ولم يفد عليه سوى عشرات من المشاهدين كل يوم، وطيلة مدة تتراوح بين اسبوع وشهر على وجه التقريب – ما يلبث ان ينفض، دون ان تباع منه سوى لوحات معدودة، حكم عليها دون اي مبرر موضوعي، بان تنتقل من حيازة الفنان الذي ابدعها، الى يد مشتر واحد ثري الى درجة يطيق فيها ان يدفع ثمناً للوحة واحدة، مبلغاً لا يقل غالباً، عن خمسة وعشرين جنيهاً مصرياً... كي تعلق في النهاية، وبصورة ابدية، على جدار اصم ارجواني اللون، في مقبرة ذهبية لسيد عظيم.

وهكذا، وبكل بساطة، تسلب اللوحة من مبدعها مقابل جنيهات محدودة، لتوضع في مكان بعيد عن الرسام ذاته. وفي الوقت نفسه تسلب من الناس، من الارض التي اوحت بها الى وجدان متفتح.. وفي النهاية، يعود الرسام حاملاً معظم لوحاته الى حجرته المنزوية المتواضعة، المقفرة الا من عينيه المتألقتين بارهاق وشوق لا حد لهما ولا نهاية، وتعود معه ايضاً مئات المشاهدين فارغة الايدي مشلولة القدرة، اكرم على نفسها، بسبب عجزها المادي، من ان تحيل بيوتها الى مقابر وثيرة مزخرفة الجدران.

وفي الواقع اننا لن نجد ازمة فنية حادة كازمة فن الرسم، من حيث انه فن معبر يحتاج اليه الناس، بنفس الدرجة التي يحتاجون فيها الى سائر الوان الفنون الاخرى؛ وبالتالي وتبعاً لعدم تلبية هذه الحاجة، فلن نجد مأساة فنان كالرسام. ذلك ان الادب بمختلف اشكاله يجد، دائماً، طريقه الى النور، الى القراء عن طريق الكتب والمجلات الادبية، والصحف في بعض الاحيان. وكذلك الموسيقى تعرف طريقها عبر ما لا يلمس أو يرى الى الآخرين، عن طريق الشرائط والاسطوانات والاذاعة، وخاصة في الحفلات الموسيقية العامة. ومن هنا يقف الاديب والموسيقي على ارض ثابتة مؤمنة الموارد الى حد ما. اما فن اللوحة، فبرغم انه فن مرئي، يتيح بما فيه من تجسيد وابعاد وهمية، اثارة احساس المشاهد وانفعاله اكثر مما يثير عقله وتفكيره، خلافاً لما يحدث في غيره من انواع الفنون الاخرى تقريباً. وهذا ما يجعل فن اللوحة اقرب الى الناس في درجة تذوق هذا الفن، او على الاقل، في طلبه والاستجابة له من سائر الفنون؛ وبرغم ان اللوحة بطبيعتها سجن من الخطوط والالوان، يثبت المشهد في الزمان والمكان تثبيتاً ابدياً، دونه اي تثبيت آخر في فن سواه، لانه اقل منها قابلية للتفسير والاستشفاف... وهذا ايضاً ما يجعله اكثر قرباً وفاعلية في الناس من الفنون المغايرة... برغم ذلك كله، فان فن اللوحة لا يعرف طريقه الى الناس، نتيجة للحكم عليه بمقابر المشتري الواحد. وفي الواقع انه حكم طبيعي ما دامت اللوحة لا تتكون الا من صورة اصلية واحدة، ومهما نقل عنها من صور (طبق الاصل) فلن يحررها ذلك من مقابر المشتري الواحد، الآخر، الذي يرغب في حيازتها، فضلاً عن اختلاف هذه الصور عن الاصل، مهما قيل عنها انها (طبق الاصل)، وبخاصة اذا تعدد الرسامون. وحتى لو رسمها فنان واحد (ولو كان هذا الفنان هو صاحبها)، فلن يعدو ان يكون الرسم تقليداً، تكفي فيه رعشة خط او قتامة لون لتبعده عن الاصل الى الابد.

وان المأساة لتبدو في اشد اوجها بالنسبة للرسام الحقيقي، حيث انه لا يقدر بطبيعته منزعه النشاطي في العالم على ممارسة عمل آخر في الحياة سوى ان يرسم، وان يعطي الآخرين في ذاته واحساسه بالعالم. ومن وراء هذه الطبيعة وذلك النزوع وارتباطه بالمشتري الواحد، تقف في انتظاره دائماً الحجرة المتواضعة، والحاجة الدائمة المكرورة والسخط والتشاؤم الذاتيان المنعكسان لا محالة في فنه، اذا لم تكن له اعصاب

مرنة يحتمل بها ثقل العالم وفظاظته معاً . وربما دفعت الحاجة الملحة بالفنان الى ارخاص فنه ، فاشتغل بالرسوم العاجلة في الصحف والمجلات التي لا تفرض عليه الموضوع فحسب ، وانما تفرض عليه في كثير من الاحيان طريقة الرسم واختيار الاشخاص والاشياء والخطوط والالوان والابعاد . وأياً ما كانت محاولة الرسام لتحرير نفسه من ربقة المشتري الواحد ، ومن وطأة حاجته ، بتهاويه في احضان الصحف والمجلات ، او بنسخه عدة صور للوحاته ، فان النتيجة واحدة في كلا الطريقين بالنسبة للناس ، لان اياً من طريقيه ليس سوى حكم على الجماهير، بان تقف وحدها في الحياة ، وبوعيها اليومي المعتاد ... دون ان تتذوق اللوحة الحقيقية الا عن طريق صورة مطبوعة طبعاً مشوهاً لها على اوراق الصحف والمجلات ، بل ودون ان ترى نفسها في لوحة واعية تجمع لها حس انسان فنان بعالمها اليومي الحي ... حين تعود الى البيوت العارية الجدران ، كعري حياتها اليومية من المعنى واللون والطعم في دوامة العمل الابدي المعتاد ... وهكذا يموت فن من الفنون الحقيقية في عالمنا ببطء ، امام اغراء الصحف والمجلات ، او على الاقل يحيا في الظلام ، في مقابر الاثرياء حيث يجوع الفنان وتنطفىء لوحته بما فيها من قوة وسحر ، وتصبح كسلاح صدىء مغلول ، وآنئذ يسير الجمهور عارياً من احد اسلحته في دفاعه عن نفسه ضد الموت ، وضد مظالم العالم الرهيب .

ومأساة فن اللوحة هذه ، سواء بالنسبة للرسام او للجمهور ، هي في الواقع امتداد تاريخي قديم قدم الانسان في العالم ، لمأساة الفن على العموم ، منذ عرف الانسان التعبير بالصوت والخطوط والالوان ، ايام المصريين القدماء وسكان الفرات وهنود آسيا والهنود الحمر . فالفن سواء أكان أدباً أم موسيقى أم رسماً أم نحتاً، كان مرتبطاً منذ العصور الحضارية القديمة بالنظم الاقطاعية ، فالرأسمالية . كان فن ملوك وأمراء وقصور ومعابد ، على تتابع العصور القديمة والوسيطة . وفي الشعر العربي القديم ، والموسيقى الكنسية ، ولوحات «ليوناردو دافنشي » في العصور الوسطى .. أمثلة تاريخية متتابعة شديدة الدلالة على هذه المأساة ، في الفن عموماً قبل عصرنا الحديث .

ولكن ، منذ بدأ الجمهور يعرف طريقه الى الحرية والحياة الاشتراكية في العصر الحديث ، أخذ الفن يتحرر كلما تحرر الجمهور ومصادر الرزق من الملوك والامراء وسطوة المعابد والقصور . وكان تحرر الفن بجميع أنواعه طردياً مع تحرر حياة الناس . فتحرر الادب ، وتحررت الموسيقى ، وتحرر فن اللوحة من التعبير عن الملوك والامراء والقديسين والقصور والمعابد ، إلى التعبير عن رجل الشارع في عمله وبيته .

ومع هذا التحرر الفني العام من مضمون إلى مضمون ، التحرر الذي امتد حتى شمل فن اللوحة في السنوات العشر الاخيرة من تاريخنا العربي ، فان فن اللوحة نفسه ما يزال خاضعاً لذات العبودية التاريخية القديمة ، من جهة علاقته التجارية بالمستهلك . فما تزال اللوحة تباع لمشتر واحد ، وما يزال الرسام عبداً (برغم انه المنتج) لهذا المستهلك الواحد ، بينما نرى ، في الوقت نفسه ، ان الادب والموسيقى قد تحررا، لا من جهة تجاربها التعبيرية فحسب ، وإنما ايضاً ، من جهة علاقتها التجارية بالآخرين. فالجمهور هو الذي يشتري من الاديب والموسيقي وما يؤازرهما من دور نشر وشركات توزيع ومكتبات . وهنا تبدو علاقة الرسام المنقطعة بالجمهور ، وعلاقته المشدودة بالمشترى الواحد ، علاقة معكوسة في ذاتها ، وعلى عكس علاقة كل من الاديب والموسيقي بالمستهلكين . وفي الواقع انها علاقة مضحكة الى ابعد الحدود وخاصة إذا عرفنا أن فن اللوحة الآن أقرب الى الجمهور بطبيعة مضمونه الحديث ، وبحكم أن اللوحة مشهد منظور ، مثبت ، وأقل قابلية للتفسير والاستشفاف ، بل وأكثر بساطة من الموسيقى بالذات ومن الادب على العموم . واذا أدركنا أن هذا الفن قد تطور تطوراً مذهلاً يكاد يتفوق فيه على تطور غيره من فنوننا العربية المعاصرة ، برغم قصر الامد الذي تحرر فيه هذا الفن من كلاسيكية الزخرفة القديمة .

والسر في هذه العلاقة التجارية المعكوسة ، المتناقضة مع طبيعة المضمون الجديد في لوحاتنا الفنية .. يرجع بالدرجة الاولى الى ان فن اللوحة في بلادنا ما يزال مشدوداً الى عجلة التوزيع الرأسمالية البغيضة حيث يبدع الرسام ويشتري الاغنياء ويقف الجمهور وحده حائراً في الظلام ،ليواجه المجهول ، دون ان يحس بواقعه الحقيقي ، بسموه ، بانحطاطه ، مركزاً في لوحاته ، في فن اسقطت عليه احساسات فنان بعالمه ، ودون ان يعرف الاعداء الحقيقيين للحياة ، اولئك الذين صنعوا المأساة التي عبرت عنها ريشة الفنان .

ومن الطبيعي ان يجني استمرار ارتباط فن اللوحة بعجلة

التوزيع الرأسمالية ، على فن اللوحة نفسه ، كمصدر رزق يمكن ان يكون وفيراً على الرسام، وكقوة معبرة عن الجمهور، وفي الوقت ذاته، كقوة فاعلة مؤثرة في وجدانه الغافي الرتيب الاحساس في عالم باهت مخنوق. ومن الطبيعي ايضاً ، ان يكون فن اللوحة العربي الجديد ، الوليد .. مهدداً منذ الآن بالانقراض ، كنتيجة طبيعية لاستمرار هذا الارتباط بينه وبين المشتري الواحد .. ومهدداً ، ايضاً ، بأن يستحيل الى لعنة على رسام مخلص لفنه حتى الجوع والموت ، وبأن يتحول الى عمل لا جدوى منه كنشاط انسان فاعل بالنسبة للجمهور .

فالمشكلة الحقيقية التي تواجه الرسامين العرب ، هي مشكلة عدم تلاؤمهم مع واقع المجتمعات العربية الجديدة (في طريقة توزيع انتاجهم الفني) ، المجتمعات التي تتحطم فيها قلاع الاقطاع والرأسماليات الناشئة واحداً بعد آخر. فالرسام العربي الآن – كما قلنا اكثر من مرة – مايزال يعرض لوحاته ذاتها للبيع . وبطبيعة الحال ، فاللوحة او نسخها المقلدة لن يشتريها سوى واحد او افراد معدودين. ومعنى ذلك ببساطة، ان الرسام الحقيقي الممتلىء اصراراً على ان يظل يرسم باخلاص ، برغم مايحيط به من ضياع وهلاك ، رافضاً ان تعزيه الصحافة وتستهلكه ، سوف يظل عبداً لسادته عبودية دائمة ، مهدداً بالموت مع سادته ، ان لم يهب نفسه الحرية والحياة .. مادام مرتبطاً بمشتر واحد يمتص جهده الفني بجنيهات ، ويميت ما في لوحاته من قوة تعبير واشارة بحبسها في جدران بيت ، كي يحول وظيفتها ، بدون قصد، من المسؤولية الجماعية المطلة منها على العالم ، الى المتعة والتلذذ الفرديين .. وما دام الرسام لا يعي في علاقته التجارية التطور الزاحف نحو حياة اجتماعية مغايرة لوضعنا الحالي وتاريخنا القديم ، وما يستتبعه هذا التطور من تغيرات عميقة ومنتشرة في علاقات الانتاج والاستهلاك . ونحن الآن في هذه الفترة من تاريخنا العربي ، نلاحظ ان بشائر هذا التطور قد بدأت تفتت على جنباتها الصاخبة رؤوس الاموال الضخمة ، وتذيب معها امكانيات الشراء الفاحشة ، القادرة على سلب اللوحات من الرسام ومن الشعب بمساومات خسيسة . وان الصرخات الحالمة العادة التي تطلقها الشعوب العربية الجديدة ، ورجال الاقتصاد ، بين حين وآخر ، منادية بتأميم المرافق الاجتماعية ، والمصانع المستهلكة استهلاكاً عاماً ، سوف تتحول في يوم قريب الى تلبية عملية وواقع حي ، وبالتالي فلن تبقى هذه الصرخات من اللحظة على (جناب) المشتري الواحد . والرسامون المصريون انفسهم يعرفون تماماً بعد معارضهم الاخيرة ، ان تقويض الاسرة المالكة في مصر وتحديد الملكيات الزراعية ، والمصادرات التي اجريت على الامراء ورجال الاعمال ، قد قللت من الاقبال على شراء لوحاتهم ، ومن عدد اللوحات المباعة في مصر .

واعتقد ان الحل الطبيعي لهذه الازمة ، من الممكن استحداثه وصنعه بوسيلة مماثلة لعملية الطبع التي حلت مشكلة الادباء ، ولعملية التسجيل التي حلت مشكلة الموسيقيين . وذلك بنقل علاقة الرسام بالمستهلك ، من الطرف المنقرض الى الطرف الصاعد ، وهذا يتم بتغيير طريقة توزيع الانتاج الفني للرسامين ، فبدلاً من ان يشتري الاثرياء يشتري الناس. وسوف يجد الرسامون اقبالاً منقطع النظير من الشعوب العربية بالذات . وهذه هي الخطوط الرئيسية لحل تلك الازمة بالنسبة للرسامين وبالنسبة للجمهور :

اولاً: انشاء نقابات قطرية للرسامين في دول العالم العربي. والغاية الكبرى من هذه النقابات هي تأمين حياة الرسامين في حاضرهم ومستقبلهم ، والدفاع عنهم ، وتنظيم علاقتهم الفنية

بالجمهور من الجانب التجاري وحده .

ثانياً : وللمساهمة في توحيد العالم العربي ، وربط اواصر الثقافة الفنية بين اقطـــاره ، وفتح اكثر من سوق عربية لتصريف اللوحات ، ينبغي تكوين نقابة عامة للرسامين العرب لها مؤتمراتها الدورية التي تنعقد كلما دعت الحاجة الثقافية او التجارية الى هذه المؤتمرات .

ثالثاً : اعداد معرض دائم للوحات في كل قطر عربي ، على الا يسمح قانون النقابة ببيعها لاي فرد ، ولا لاي متحف سوى متاحف الاقطار العربية .

رابعاً : تصوير اللوحات ، وطبعها طبعاً فاخراً بألوانها وحجمها الاصليين ، او احجام متفاوتة ، ثم تأطيرهـــا بأطر مناسبة ، وعرضها في الاسواق العربية بالمكتبات واكشاك الصحافة ، باسعار شعبية متفاوتة ، حسب نوع الطبع وجودة الورق .

خامساً : حسم نسبة مئوية من اربـــاح اللوحة المباعة ، تقدرها كل نقابة ، وتوزيع هذه النسبة بين نفقات المعرض ، والنقابة القطرية ، والنقابة العامة ، والتأمينات لمستقبل الرسامين واسرهم .. حسب تقدير كل مجلس نقابة .

سادساً : لا يقبل احد في النقابة مطلقاً ، الا من له انتاج فني جيد ، اياً كانت مدرسته في الرسم ، وبعد موافقة معظم اعضاء النقابة القطرية .

... هذه هي الخطوط الرئيسية التي نعرضها لحل ازمة الرسامين العرب . ونعتقد ان عملية تصوير اللوحات وطبعها لن يقلا اصالة وقرباً من الاصل عن التقليد على الاقل ، وخاصة اذا اشرف كل رســـام على مراحل هذه العملية من تصوير وحفر وطباعة في اعداد لوحاته . ولسنا نشك في ان الرسام الحقيقي لن يرفض ان يحمل مسؤليته كفنان واع بتطور عالمه . ولن يرفض ان يكون حراً لا عبداً ، وان يحيا في رفــاهة تمكنه من الاستمرار في تأدية رسالته كفنان ، كيما يتجنب مأساة الضياع المتكررة في حياة الرسامين على الخصوص ، وكيما تؤدي مضمونـــاته التعبيرية الجديدة رسالتها للجمهور .

ان المسؤولية الآن على عاتق الرسامين وعليهم وحدهم تقع تبعة اختيارهم ومصيرهم .. وتبعة المساهمة في مصير الشعب

القاهرة — سليمان فياض

جراح

مهداة الى شهدائنا

•

يا لثارات الجراح كيف تحيا
في غد تشرق من هذي الجراح ألف دنيا
كل جرح ثورة تشعل نارا
ثورة تغسل عارا
ولالحان الجروح ألف نعمى وحياة
وحنين عابق بالذكريات
رف كالروح على كل موات
يا جروحاً صمتك الدامي يبوح
انا اهوى الجرح لا يلتئم
ان في الجرح منى تبتسم
فانسكب ثأراً وحقداً يا دم
يا جراح العرب يا جراح الشهب
اشرقي والتهبي حمماً وانسكبي
ان للعرب حمى لن يستباح
ياجراح
انت للحن وشاح
لصبايانا الملاح
انت دنيا ياجراح
فجّري النعمى فللنعمى صداح
حلقي بالعز فالعزّ جناح
البطاح الخضر تهفو للبطاح
نوّر النرجس في السهل وفاح
الدم المنساب اطياف صباح

دمشق — عزيزة هارون

الشِعر العربي والتجربة الانسانيّة

بقلم عبد المحسن طه بدر

حياتنا الانسانية عميقة متسعة الجوانب لانها خاضعة دائماً للتطور والتغير القائمين على صراع الفرد بينه وبين قوى نفسه المتعددة من ناحية وبينه وبين بيئته من ناحية اخرى.

ولما كانت ميزة الشاعر الخاصة تنبع من دقة احساسه وتنبهه لهذا الصراع، فان هذا يقودنا الى ان الشاعر لا بد له من ان يكشف لنا عن مظاهر هذا الصراع بما فيه من خصوبة وعمق، ويصدر هذا الكشف عن الاسباب الحقيقية للصراع واكتشاف الذات الانسانية لحقيقة وضعها، ومن هنا تسعى الى تغييره.

وتنبع قيمة الشاعر الحقيقية من عمق اكتشافه وخصوبته .. ولا بد لذلك من وعي حقيقي حر يساعد الشاعر على اكتشاف ذاته وذوات الآخرين من حوله ... واصرارنا على ان يكون هذا الوعي حقيقيـــاً وحراً يرجع الى اننا لا نريد ان تتسلط على الشاعر فكرة او قيمة خاصة تطمس جانباً من جوانب الحياة من حوله وخـــاصة قبل اكتشاف الشاعر لحقيقته الخاصة ووعيه الصادق بالآخرين .

ونريد ان نقدم مثالا يلقي على سذاجتـــه بعض الضوء على القضية التي نقدمها . فالمرأة التي تعرض جسدها للراغبين من وجهة نظر الدين ونتيجة لقيمه الخاصة امرأة زانية من حقها ان ترجم، وينظر اليها رجل الاقتصاد باعتبارها نتيجة للازمة الاقتصادية الآخذة بخناق المجتمع ... اما نظرة الاديب فيجب ان تكون اوسع واعمق فهو الى جانب وعيه للحقائق السابقة يرى هذه الفتاة كانسانة من حقها ان تعيش وينظر الى جهدها المضاع وزيف حياتها ويعيش مشكلتها قبل ان يصدر حكمه عليهـــا ... وهذه النظرة تحتاج الى ان تكون كل ابواب نفسه مفتحة – ولو ان فكرة معينة او مثالية سيطرت عليه لخفيت عليه من الظاهرة جوانب عديدة لا بد له من خنقها حتى تسلم له قيمه الخاصة .

واذا حاولنا النظر الى شعرنا العربي على ضوء هذه الحقيقة أدركنا ان الشاعر العربي لم يتـح له يوماً ان يتحرر التحرر الذاتي الكامل الذي يسمح له بادراك الجوانب الخفية والعميقة من الحياة. وهذا يرد الى اسباب خطيرة ترتبط بماضيه البعيد وحاضره القريب ... وسنحاول رسم بعض الخطوط السريعة لتاريخ هذا الشعر، كاشفين عن بعض الاسبـــاب التي اعطت الشعر العربي هـذه الصورة الخاصة .

يذكر لنا المؤرخون فيما يذكرون عن المجتمع الجاهلي ان القبيلة اذا نبغ فيهـــا شاعر من الشعراء دقت طبولها وارسلت مبشريها واقامت الاعياد والولائم على شرف شاعرها وأتت القبائل الاخرى لتهنئتها، لان الشاعر لسانها المدافع عن احسابها والمتحدث عن مفاخرها والراد كيد اعدائها.

والخبر عظيم الدلالة وشديد الخطورة في الوقت نفسه، لانه يدلنا على ان للشاعر وضعاً اجتماعياً معيناً في القبيلة هو الدفاع عن مثلهـــا الموجودة وتثبيت هذه المثل والترويج لها تجاه الآخرين . وخطورة الفكرة تنبع من ان الشاعر الجاهلي بهذه الوضعية كان منفعلا اكثر منه فـــاعلا، وكانت هذه المثل الاجتماعية تقف حائلا بين الفرد وبين اكتشاف ذاته واكتشاف ذاتية الاحياء من حوله وتحدث الشاعر عن الاشخـاص الذين يمثلون قيماً اجتماعية قبل ان يتحدث عن الذين يمثـــلون قيماً انسانية .ولم تكن الحياة الجاهلية بطبيعتها لتساعد احداً على التحرر من سيطرة الجماعة، وتلاشت الارادة الفردية الى حد كبير حتى ليصور الشاعر نجدة قبيلته بانه لو هوجم ...

اذن لقام لنصري معشر خشن | عند الحفيظة ان ذو لوثة لانا
لا يسألون اخاهم حين يندبهم | في النائبات على ما قال برهانا
قوم اذا الشر ابدى ناجذيه لهم | طاروا اليه زرافات ووحدانا

فالارادة الذاتية امام وثبة المجموع لا تملـك حتى مجرد الاستفهام عن قضية ستضحي فيها بنفسهـــا ومصيرها. وقد استتبع ذلك نتائج على جانب عظيم من الخطورة، فاتجه الشعر في مجموعه الى الحديث عن المسلمات الاجتماعية القائمة والاحكام العامة، ولم تكن هذه الاحكام لتخضع لتأمل ذاتي نقدي من الشاعر .واختفت لذلك التجربة الانسانية الكاملة من الشعر العربي، فما دام الشاعر لا يرجع الى ذاته في الانفعـــال أمام الحادثة، فلن تكون حادثة ما بلون ذاتي خاص، ولن تكون لهذه الحادثة قيمة في ذاتها، الا من حيث استخلاص النتيجة

بحث الشهر

يكشف هذا المقال عن تقيم جديد للشعر العربي ، قديمـــه وحديثه ، لا ينقصه العمق ... ولا الجرأة . و « الآداب » تنشر هذا المقال تاركة مناقشته للادباء ، ونقاد الشعر منهم بصورة خاصة .

العامة منها ... فصفيت التجارب على العموم، واعطانا الشاعر دائماً خلاصة تجربته قبل ان يقدم لنا التجربة ذاتها . ونتيجة لاتجاه الشاعر الى الحديث عن الاحكام العامة بدلاً من التجربة، نشأ لدينا ما يسمى بوحدة البيت، لانه من المستحسن في الاحكام ان تأخذ صورة مختصرة مستقلة عما بعدها ... ولعل اعتماد شعرنا على هذه الاحكام والمسلمات العامة هو ما جعل الشعر العربي ينفرد بباب خاص هو باب الحكم، واصبح البيت من الشعر يلقى في المجالس العامة باعتباره فيصلا في الحكم، ولم تكن القضية لتخضع للنقاش بعد ان يلقى بيت من الشعر في تأييدها .

وانحرف عمل الشاعر العربي عن هدفه، واصبح اشبه بعمل الواعظ او الخطيب منه بعمل الشاعر الذي يحس الحياة ويعبر عنها. ونتيجة لذلك لم تأخذ الاغراض الوجدانية مكانها الحقيقي في الشعر العربي، اي انها لم تنفرد بقصائد قائمة بذاتها، وانما لجأ الشاعر اليها كوسيلة تمهيدية للدخول على غرضه ينفس فيها قليلا عن ذاته . وكثيراً ما كان بعض الشعراء المخلصين يسترسلون مع نفوسهم، فلا يكاد الغرض الاساسي من القصيدة يحظى الا بابيات قليلة... في حين تمضي اغلب القصيدة في هذه المقدمات التمهيدية .. انظر معلقة طرفة بن العبد وما ذهب اليه من تغزل ووصف لناقته وصحرائه، مضمناً وصفه كثيراً من الاحساس الانساني الصادق نحو صحرائه وحيوانها .

ونتيجة اخرى لعدم التحرر الوجداني للشاعر، ان اتجه في اغلب امره لا الى الاستبطان الذاتي لنفسه وللناس، وانما اتجه في الغالب لوصف مظهرهم الخارجي .. وكثر في الشعر العربي وصف مظاهر الطبيعة الخارجية كأنها امور قائمة بذاتها غير مرتبطة بالانسان، وشاع الوصف الحسي للمرأة ونظر اليها من خارجها لا باعتبارها موقفاً نفسياً للرجل، وتحدث الشاعر كثيراً عن مفاتنها الجسدية مبالغاً في تضخيم مواطن الاثارة الجنسية فيها .

فالشاعر العربي الجاهلي اتجه الى المسلمات الخلقية العامة في بيئته والمظاهر الخارجية للاشياء، كنتيجة لعدم تحرره النفسي. وبدلاً من ان يقدم لنا تجربته الذاتية الخاصة، كان يعطينا خلاصة هذه التجربة، او الجانب الذي يخدم مثل القبيلة منها، وكان عليه ان يخنق الجوانب الاخرى في تجربته .

ولعل الامر لم يكن بهذا الوضوح التام في الجاهلية. فمما لا شك فيه ان بعض الشعراء مثل امريء القيس حاول اعطاءنا وصفاً لبعض تجاربه، ولكن هذا الوصف كان سطحياً منصباً على المظهر الخارجي للتجربة وما يرتبط به من اقوال وافعال.

فلما جاء الاسلام ادخل الى الحياة العربية مثلا وقيماً جديدة ... ولئن كان الدين قد حاول من ناحية تحرير الذات ودفعها الى التفكير والتأمل، فانه من ناحية اخرى جعل هذا التحرر محدوداً ضمن النظام العقائدي الجديد ... بل ان موقفه من الشعر ساعد على استمرار خضوعه للمسلمات المفروضة، وان كانت هذه المسلمات قد تغيرت نتيجة للعقيدة الجديدة .

ويحدثنا التاريخ ان النبي لم يسمح الا بذلك الشعر الذي كان ينافح عن الدين ويقاوم المشركين والذي كان يمثله حسان بن ثابت ومدرسته .

ويحدثنا التاريخ بان كثيراً من الشعراء اقصروا عن قول الشعر نتيجة لعدم قدرتهم على التلاؤم مع المثل الجديدة التي يفرضها الدين الجديد .

وحاول بعضهم من امثال الحطيئه ان يستمر في قول الشعر مؤكداً المثل الجاهلية، فسجنه عمر ولم يطلق سراحه الا بعد ان حمله الشاعر مسؤولية اولاده الصغار الضعاف الذين يموتون من الحاجة والعوز .

واتى العصر الاموي، وثارت النزعات القبلية من جديد وان اصطبغت هذه المرة بالوان جديدة حزبية ودموية، واشتدت الحاجة الى الشعراء الخطباء لتأييد النزعات الجديدة. ويلاحظ ان الشاعر الجديد بدأ يحس قيداً جديداً الى جانب موقفه كمدافع عن القيم والمثل العليا الحزبية، هذا القيد الجديد هو خضوعه لمثل الشعر القديم وطبيعته الفنية . وذلك لان هذا الشعر القديم احيط بهالة من التقديس نتيجة لاعتبار هذا الشعر التراث القومي والحضاري البارز للعرب، وباعتبار الشعر مرتبطاً بالقرآن في لغته ومرجعاً للعلماء في كل ما يتصل بهذه اللغة من قواعد . ولذلك زاد التمسك به ووضع امام الشعراء كنموذج مثالي للتعبير الفني، وكثيراً ما ردد العلماء وهم نقاد هذا العصر امثال هذه الاقوال ... « لو تأخر الزمن قليلا بهذا الشاعر لكان اشعر الناس » كأن مجرد التأخر في الزمن اصبح فضيلة كبيرة في حد ذاته .

وبذلك اشتدت الحلقات التي تضغط على شعرائنا . فمن ناحية المضمون خضع الشاعر للمسلمات الاجتماعية القائمة في مجتمعه ومسلمات تستمد قوتها من القديم .. ومن ناحية صورة القصيدة وصياغتها خضع الشاعر للمثل القديمة.. ولا شك ان في كل عصر من العصور يحدث رد فعل للاتجاه السائد، لكنه كان دائماً في نطاق ضيق لا يفسد قضيتنا العامة التي نتحدث عنها .

وقد اشتدت سطوة هذه القيود في العصر العباسي وظهرت قسوتها الشديدة بوضوح نتيجة لان المجتمع وكثيراً من الشعراء وصلوا الى درجة عالية من التحرر العقلي في حين ان القيود التي تربطهم كانت على درجة كبيرة من الشدة، وذلك لان نظام الحكم اصبح استبدادياً مطلقاً لا يسمح الا بالصوت الذي يؤيده .. ولما كان الشاعر مرتبطاً ارتباطاً معاشياً بالخليفة .. والخليفة يريد ان يبدو امام شعبه كقمة عليا للمثل الاجتماعية والدينية .. كان على الشاعر ان يخضع خضوعاً تاماً لهذه الارادة السامية وذلك رغم تحرره العقلي وادراكه الحقيقي لحياة مولاه الخاصة بحكم شدة ارتباطه به..

ومن الجانب الاخر اشتد التمسك بالقديم على اعتباره ممثلاً لقومية العرب ومظهراً لتفوقهم هذا التفوق الذي اصبح موضع شك بظهور الشعوبية .

ومن الحق ان نقرر ان رد الفعل الذي حدث نتيجة يقظة القومية الفارسية والذي ظهر اثره في تكوّن الدولة العباسية واتسم في كثير من مظاهره بالتمرد الشديد على المسلمات القديمة ، واحدث اثره في الحياة الدينية مثلاً بظهور حركة المعتزلة التي تخضع الدين للعقل ، قد احدث بعض الهزات في الشعر .

فمن ناحية قام ابو نواس وعصبته من المجان بمحاولة لتغيير المضمون الشعري وتحويل الشعر الى التعبير عن حياتهم الخاصة . وقام ابو نواس يسخر بمرارة من قيود الشعر القديمة ويتهكم بمن لا زالوا يقفون على الاطلال يبكون ويستبكون — كما حاول من ناحية اخرى تغيير القاموس اللفظي القديم والتعبير بلغة العصر . ولكن ذلك اغضب الشعور الديني والقومي واضطهد الشاعر بقسوة ، ولم يكن الخليفة الذي يستمد مركزه من مجد العرب ودينهم ليرضى عن هذا الاتجاه ، لذلك لا ندهش عندما نجد ابا نواس حين يتقدم لمدح الخليفة يتبع نظام القصيدة العربية الذي ثار بنفسه عليه ويبـالغ في التمسك بالقاموس العربي القديم ...

وعلى كل ، فما لبثت هذه الثورة الفارسية ان هدأت ، ودخل على الدولة عنصر تركي جديد ساعد على طبع الدولة بطابع الجمود ، فاضطهد الفلاسفة والمعتزلة ، وأنزووا في البيئات البعيدة عن حاضرة الدولة ، واحكمت حلقات القيد التي تشد معاصم الشعراء كل الاحكام . بل بلغ الامر بالنقاد ان حددوا المضمون الشعري في حدود واضحة للشعراء لا ينبغي ان يتعدوها او يخرجوا عليها ويحدثنا قدامة نفسه عن هذا الامر في صراحة فيقول : «اذا اردت ان تمدح فعليك بالصفات الاربع الآتية ، فاجعلها اساساً لمدحك وهي : العفة والشجاعة والعدل والكرم ، واذا اردت الهجاء ، فاهج بضدها واذا اردت الرثاء فما عليك الا ان ترص هذه الصفات وتضع امامها كان ... فـاذا اردت الغزل فاكثر فيه من التفجع والهيام والبكاء وادعـاء الرقة والصبابة ، وبهذا ينتهي الشعر وكفى الله المؤمنين القتال .

وبمرور الزمن لم يكتف النقاد بتحديد المضمون الشعري بل حرروا الاساليب ذاتها ويحدثنا ابن خلدون عن اساليب الرثاء فيحددها كالآتي :

ان يكون ذلك باستدعاء البكاء كقوله :

كذا فليجل الخطب وليفدح الامر ... فليس لعين لم يفض ماؤها عذر

او بتسجيل المصيبة على الاكوان لفقده كقوله :

منابت العشب لا حام ولا راع ... مضى الردى بطويل الرمح والباع

او بالانكار على من لم يتفجع له من الجمادات كقول الخارجية :

ايا شجر الخابور ما لك مورقاً ... كأنك لم تجزع على ابن طريف

او بتهنئة فريقه بالراحة من ثقل وطأته كقوله :

القي الرماح ربيعة بن نزار ... اودى الردى بفريقك المغوار

وقد احدثت هذه القيود الجديدة آثارها في الشعر فاصبح مجال الشاعر محدوداً في هذه المسلمات المفروضة ولم يبق له الا ان يبالغ في هذه الصفات. وشاع لدى النقاد القدامى قولهم ان اعذب الشعر اكذبه . ولم يعد هناك مجال للتجربة الذاتية ، واصبح الشعر مجموعة من الاحكام العامة تقرر نتيجة التجربة او خلاصتها من غير ان تصف تلك التجربة نفسها . فالشاعر يحدثك في مجال الرثاء مثلاً بأنه بكى وما بدل الدموع دون ان يحدثك على الاطلاق بمبرر واحد لهذا الزعم . وتجد من وجه في مجال المدح شجاع شجاع لدرجة انه لا يهتز له جفن في اقسى المعارك ثم لا يقدم لك حادثة واحدة بين يدي ادعائه .

واختفت نتيجة لذلك مظاهر الصراع التي تميز فضيلة البشر فالشجاعـة شجاعة خالصة ، والجبن جبن خالص ، فسيف الدولة ممدوح المتنبي لا تهتز في رأسه شعرة ولا يتسرب الى نفسه شعور ضئيل بالقلق ، وهو في اشد المعارك هولا واعظمها ترجحاً بين النصر والهزيمة .

وقلت الى حد كبير هذه النغمات الصادقة والمحدودة في نفس الـوقت التي نجدها عند الشعراء القدامى من امثال قطرى بن الفجاءة حينما يقول مثلا في مواجهة اعدائه مخاطبا نفسه :

اقول لها وقد طارت شعـاعاً ... من الابطال ويحك لا تراعي

لانك لو سألت بقاء يـوم ... على الاجل الذي لك لم تطاعي

فصبراً في مجال الموت صـبراً ... فما نيل الخلود بمستطـاع

وقد رفض النقاد كل مظاهر التردد والصراع في النفس البشرية وحاربوا ذلك بشدة فيما اسموه باب التناقض ، حتى رفضوا نتيجة لذلك كثيراً من اصدق النغمات في الشعر العربي ، وحسبك دليلا على ذلك انهم وقفوا موقفاً شديد القسوة من ابيات في الغزل يمكن ان نعدها الآن متناهية في الصـدق وتتمثل هذه الابيات في قول الشاعر :

من حبها اتمنى لو يطـالعني ... من نحو منزلها ناع فينعاهـا

كيما اقـول فراق لا لقاء به ... وتزمع النفس امراً ثم تسلاها

ولو تموت لراعتني وقلـت الا ... يا بؤس للموت ليت الموت ابقاها

فتهكموا كثيراً على موقف الشاعر الصادق في تردده بين عذابـه في حبه وحرصه مع ذلك على هذا الحب ، فقال قائلهم متهكماً « كيف يمكن للشاعر ان يحب محبوبته ثم يتمنى موتها وكيف يناقض الشاعـر نفسه فيتمنى موتها ثم يتمنى حياتها في نفس الوقت . »

وكان من الطبيعي ان يلجأ الشاعر نتيجة لذلك الى المواقف المفتعلة الغريبة حتى لنجد الطبيعة باسرها تتهدم بعضها فوق بعض لموت اي صعلوك يرثيه الشاعـر العربي وانها لتأخذ زخرفها اذا انتصر ممدوحه في معركة وضيعة لا مكان لها في التاريخ ، وكأن الشاعر العربي كان يضغط على زر خاص تتحرك به مظاهر الطبيعة بأسرهـا كلما اراد ان يكتب عن حادثة تافهة ليرضي ممدوحين تافهين .

اما وقد ضاق الخناق امام الشاعر العربي في مضمون قصيدته إلى هذه الدرجة فقد اتجه لاظهار مهارته في الصياغة ، ولذلك اعتبر الشعر صناعة مـن

الصناعات، وقد شمل هذا العبث في الصياغة الصورة واللفظ . اما الصورة فلم تعد تعتمد على واقع شعوري ، وانما اصبحت تعتمد على الشعوذة نظراً لارتباط الشاعر بالصور القديمة . فلم يكن يستطيع التعبير عن الشجاعة الا في نطاق الاسدية ، وارتبط الكرم بصورة البحر ، وجمال المرأة بصورة البدر .. واتجه الشاعر في عبثه هذا الى نوع من التصرف المحدود، فقد كان يلجأ الى قلب الصورة كوسيلة من وسائل التصرف فلئن كانت المرأة القديمة تشبه البدر فالبدر هو الذي يشبه المرأة الجديدة، ولئن كان الممدوح في القديم شجاعاً كالاسد فقد اصبح الاسد يغار من شجاعة الممدوح الجديد .

واعتمدت الصورة على العلاقة المنطقية قبل اعتمادها على الاحساس الشعوري ، فلا بأس بأن تكون الوردة مثل الدم ما دامت العلاقة اللونية موجودة، ولا بأس بأن تكون دموع المرأة الباكية مثل اللؤلؤ ما دام اللؤلؤ ابيض صافياً، ولو اساء ذلك لقصيدة الرثاء بأسرها، والرجل يشبه بسن الرمح ما دام كلاهما متناهياً في الرفع .

ووصل الامر الى شعوذة حقيقية عند شاعر كالمهذب بن الزبير الذي يقدم لك ممدوحه وقد امسك السيف بالبحر، وتفسير ذلك عند اهل الذكر انه ما دام الرجل كريماً فان يده اصبحت بحرا واصبح نتيجة لذلك يمسك السيف بالبحر .

اما العبث بالالفاظ فقد اتجه الى هذه الوسيلة التي يسمونها بالمحسنات البديعية ... وبين هذين التيارين رقد الشعر العربي رقدته الاخيرة حتى عصر البعث الحديث ..

ونعود فنكرر اننا هنا نتحدث عن التيار العام ، ولسنا ننكر ان هذا التيار كان يهتز بعض الشيء نتيجة لضربات بعض الشعراء لاسباب ذاتية خاصة كما نجد عند المتنبي مثلاً الذي امتد حقده على مجتمعه الى محاولة رفض مسلماته وكما نجد ذلك ايضاً عند ابن الرومي وابي العلاء نتيجة غربتهما في بيئتهما.

وانا لندرك ان كثيراً من النتائج التي ذكرناها تحتاج لمقالات قائمة بذاتها حتى تأخذ حظها من الوضوح ، ولكن عذرنا هنا اننا نتحدث عن تيار عام، لا تهمنا فيه الجزئيات الصغيرة الا من حيث كونها تقدم لنا دليلاً يؤكد اتجاهنا .

ولم يبق لاكمال حلقات سلسلتنا الا ان نتحدث عن نهضتنا الحديثة، واحب قبل البدء في هذا الحديث ان اتحدث عن حقيقتين موضوعيتين :

الحقيقة الاولى ان بحثي في هذه الفترة سينصب على البيئة المصرية لاني اشد خبرة بها من البيئات العربية الاخرى، وثمة حقيقة مطمئنة في ان اتجاهنا لن يترتب عليه اخطاء كثيرة ، وذلك لان الظروف الحضارية التي مرت بها الاقطار العربية تبدو متشابهة من النظرة العامة، وان اختلفت فانه اختلاف في الدرجة لا في الاطار العام ... والحقيقة الاخرى ان هذه النتائج لا تشمل الشعر العربي في المهجر لان شعراءه اتيح لهم حظ كبير من التحرر الذاتي وذلك لرفضهم مسلمات الحياة العربية نظراً لاحساسهم بالاضطهاد فيها وانتقلوا الى بيئات اخرى يتمتع الافراد فيها بحظ وافر من التحرر .. ولما كانت صلاتهم بالبيئة الجديدة ليست من القوة بحيث تفرض عليهم مسلمات جديدة، فقد اخذ شعرهم طابعاً جديداً خاصاً في الشعر العربي .

ولنبدأ حديثنا عن شعرنا الحديث ... لما حدثت نهضتنا الحديثة نتيجة لاصطدامنا بالحضارة الاجنبية التي دخلت الى الشرق العربي اول الامر وهي تحمل مظهرين بغيضين الى نفوس شعوبه هما مظهر التبشير والاستعمار ، لم يكن طبيعياً ان يقبل العرب اقبالا صادقاً على هذه النهضة، والذي حدث انهم اتجهوا بنوع من العنف لبعث حضارتهم القديمة ومحاولة اقامتها على قدميها لتواجه الحضارة الجديدة ، واتخذ هذا الاتجاه صورتين :صورة بعث الامجاد القديمة والتبشير بالمستقبل. واشتد تمسكنا نتيجة لرد الفعل هذا بالقديم ومسلماته .. ولم يكن الشاعر يستطيع ان يتخلص من سلطة هذا الاتجاه العام، ولم يسمح له المجتمع بأي مظهر من مظاهر التحرر..وتستطيع ان تشعر بمدى التضييق الذي فرض على الشاعر حينما نرى البارودي يعتذر في مقدمة ديوانه عن بعض أبيات يخشى ان يفهم منها انه يعترض على القدر واخوف ما يخافه ان يظن به ظان الاعتراض على الله ولو من هذا الافق البعيد .

واشتدت الحاجة الى من يبشر بالنهضة الجديدة ويدعو اليها، واخذ الشعراء على عاتقهم هذا الامر وان اخذه كلٌّ على طريقته الخاصة. فحافظ لقربه من الشعب كان اشبه بالخطيب ، واما شوقي في برجه العاجي فكان اشبه بالواعظ وان حكم شوقي لتجد طريقها الى كل مكان من قصائده ، وقد ادعى شوقي وضعية الوعظ هذه حتى في اشد القصائد بعداً عن استدعاء مثل هذه الحقيقة. وان شاهدا واحدا لكفيل باظهار مدى الادعاء في مظهره هذا، ويتمثل هذا الشاهد في قصيدته «رمضان ولى» التي يقول فيها :

رمضان ولى هاتها يا ساقي … مشتاقة تسعى الى مشتاق
ما كان اكثره على الافها … وأقله في طاعة الخلاق
الله غفار الذنوب جميعها … ان كان ثم من الذنوب بواقي
هات اسقنيها غير ذات عواقب … حتى تراع لصيحة الصفاق
صرفاً مسلطة الشعاع كأنها … من وجنتيك تدار والاحداق
صفراء او حمراء ان اديمها … كالغيد كل مليحة بمذاق

ولا ينسى شوقي في غمرة هذه الاحاسيس بالخمر والاستهتار ان يعود الى طبيعة الواعظ فيه فيقول :

وطني اسفت عليك في عيد الملا … وبكيت من وجد ومن اشفاق
لا عيد لي حتى اراك بأمة … شماء راوية من الاخلاق

ذهب الكرام الجامعون لامرهم — وبقيت في وطن بغير خلاق

ولست ادري كيف يئس شوقي على الاخلاق في موطن هو ابعد ما يكون عن تمثيلها فيه، وانما هو ضغط الحاجـة الاجتماعية الملحة التي لا تبيح للشاعر ان يتنفس الا في حدودها .

ولسنا في حاجة الى التحدث عن خصائص هذه المدرسـة من الناحية الفنية، فهي لا تخرج في كثير عن الاتجاه العام للعصر العباسي مع بعض المبالغة والتقصير هنا او هناك .. هذا اذا غيرنا مثل العصر العباسي الاجتماعية والسياسية بمثل عصـرنا الجديد .

ولكن حركة رد الفعل هذه لم تستمر طويلا فما لبث العرب ان احسوا بأن الحضارة العربية وحدها لن تكفيهم، فأقبلوا على مدنية الغرب، ولكن هذا الاقبال اقترن بالحذر والخشية، وبدأوا اول الامر باقتباس مظاهر الحضارة المادية لان الفائدة التي تعود من هذه المظاهر لا يمكن ان يختلـف فيها اثنان .

وتبع هذا الاقتباس لمظاهر الحياة المادية التحرر العقـلي للشعوب العربية ، فالامور العقلية خاضعة للمنطق ، ومنطق الفكر الصارم الذي يقدم الحجة الواضحة تجاه الاخرى يجعل التحرر العقلي خطوة تالية لاقتباس مظاهر الحياة المـادية، ويجعله سابقاً ايضاً للتحرر النفسي الذي يرتبط بالحياة العاطفية، حيث الغموض والاضطراب والتناقض، وحيث تشدنا العقائد الموروثة الضاربة في الاعماق الى نفسها في شدة وقسوة. ولعل هذا التحرر النفسي الكامل هو الذي ينقص الفرد العربي حتى الآن والذي يعد الخطوة الاخيرة في سبيل اكتمال ذاتيـته ومواجهته لمشاكله بصورة اشد شجاعة واقل اضطراباً .

ويمثل مرحلة التحرر العقلي في شعرنا عباس محمود العقاد .. فقد دعا هذا الشاعر في وعي الى التحرر من القيود القديـمة في شعرنا العربي .. ولما كان مجتمعنا لا يملك غير نماذجه القديـمة مثلا يقيس عليها، فقد اصبح صاحب الدعوى مسؤولاً عن تقديم نماذج جديدة توضع في مواجهة النماذج القديمة، لكي يظهر الفارق بين المذهبين كبرهان للتدليل على سلامة الاتجاه الجديد الذي يدعو اليه .

ولكن فرض العقاد لهذا المذهب الجديد على نفسه، وتأخر تحرر النفسية العربية عن تحررها العقلي جعل العقاد يخضع شعره للمنطق العقلي فخلا شعره بذلك من التجربة الكاملة .. وحتى ديوان « عابر سبيل » الذي كان محاولة لنقل الشعر الى مواضيع الحياة العـادية ، لا نجد فيه تجارب حقيقية وانما نجد هيا كل منطقية لتجارب يقدم لك العقاد في اولها نتيجتها او خلاصتها، او يقدم لها بمقدمة نثرية طويلة قبل ان يحدثك عنهـا، ثم يرسم لك بعد ذلك إطاراً منطقياً يخنق فيه التجربة ؛ وان قصيدته « بيت يتكلم » لاصدق مثال على هذا .

واضطر العـقاد نتيجة لضغط الظروف الاجتماعية ايضاً ان يتحدث كثيراً عن شعر المناسبات الذي لم يخرج كثيراً في جوهره عن الشعر القديم الا في ان شخصياته صارت اكثر تحدداً وتميزاً من شخصيات سابقيه التي كانت خاضعة للتعميم المطلق والتي يدلنا على مقدار التعميم فيها قصيدة للبارودي في رثاء احد اصدقائه يعلق شارح الديوان عليها بان البارودي جعلها اول الامر في رثاء احد اصدقائه ثم حولها في النهاية الى رثاء صديق جديد .

وكان من تأثير هذه النزعة المنطقية في شعر العقاد ان قصائده اشبه في اساليبها بالنثر منها بالشعر. وثمة ملحوظة جديرة بالاهتمام في شعر العقاد وهي خلوه الى حد كبير من الصورة التي تعتبر دعامة للاسلوب الشعري والتي يعمد كثير من النقاد الى التفريق بين الشعر والنثر عن طريقها .

ونتيجة لهذا التحرر العقلي نفسه بدأ الشاعر يتأمل حياته الذاتية وحياة من حوله، ولكن هذا التأمل بدأ غامضاً قلقاً. وتتمثل مرحلة الغموض هذا لدينا في شعر المهندس علي محمود طه وابراهيم ناجي الطبيب .

فانت تجد شعرهما مكونا من النبضات الذاتية المنفصلة التي لا تكون كلا متكاملا بحيث لو فصلت هذه النبضات الذاتية بعضها عن بعض لخيل اليك انها صادقة الى حد كبير ، فاذا تأملتها في القصيدة اصابتك الحيرة لعدم استطاعتك الربط بينها واستخراج موقف متكامل منها. ويكفيني الاستشهاد على ذلك قصيدة للدكتور ناجي بعنوان « الاطلال » يقول في مقدمتها النثرية «كانا حبيبين ثم انتهت هي بأن صارت اطلال جسد وانتهى هو بان صار اطلال روح»، ويقدم لك الشاعر في اول قصيدته بعض الصور الرائعة لحبه وعلاقته بصديقته فيقول :

لست انساك وقد اغريتني	بفم عذب المناداة رقيق
ويد تمتد نحوي كيد	من خلال الموج مدت لغريق
آه يا قبلة احلامي اذا	شكت الاقدام اشواك الطريق

ثم ينقلب هذا الحب الرائع بقدرة قادر الى حب يائس مظلم ولا يعنى الشاعر على الاطلاق بان يحدثك عن السبب في تحطم هذا الحب وأي معركة نفسية اوصلت الحبيبين الى هذه النتيجة، ولا تحاول اتعاب نفسك بتبين صورة الحبيب او المحبوبة في القصيدة، فلن تجد سوى حب غامض وقلق مبهم وبؤس لا تفسير له. كل ذلك يتتابع في غير ترابط ولا وحدة .. وقد يعترض معترض بأن محمود طه قد تحدث عن تجارب خاصة .. في ميدان المرأة. واحب ان اطمئن المعترض بأن مثل هذه المواقف تمثل عموميات قبل ان تمثل تجارب خاصة .

فلئن كنا نعرف عن القبلة مثلاً انها قد تكون ذات دلالات شعورية متعددة منها القبلة التي تحدث بها المرأة عندما تعجز عن الكلام ومنها القبلة اللذية التي يدفعك اليها غلظ الشفاه او بروزها بصورة معينة. ومنها القبلة التي تجيب بها تحدي المرأة لك محاولا هزيمتها والتي تجيبك عليها بصفعة فلن تجد عند محمود طه سوى قبلة اللذة الخالصة المصفاة ولن تجد محمود طه يقابل امرأة الا في مخدع موشى بالحرير ومطرز بالزهور . فشعر محمود طه مثالي بطريقة خاصة، بمعنى انه يمثل دائماً لا الحقيقة الدافعة للتجربة وانما المثل الجمالي او اللذي الاعلى للشيء الذي يتحدث عنه . ولو تأملت قصيدته «ميلاد شاعر» التي يتحدث فيها عن رسالة الشاعر لرأيت هذه الرسالة متمثلة في ان الشاعر نبي او ساحر مكلف باكتشاف مظاهر الجمال في هذا الكون بل وخلقها ونقل جنة الله الى ارضنا .. ونتيجة لغموض الانفعالات عند هذين الشاعرين اشتد اعتمادهما على الموسيقى التي تلائم جوهما الغامض حتى وصف احد الباحثين شعر احدهما بأنه شعر الضجيج اللفظي .

ولم يبق لاكمال الحركات الكبرى لسلسلتنا الا ان نصل الى شعرنا المعاصر لنحدد الاتجاهات العامة جداً التي تتحكم في مصائر هذا الشعر ، وهذه الاتجاهات تتميز باتجاهين عريضين .

تيار اولئك الذين اخذوا يقدمون لنا لاول مرة تجربة متكاملة حرة نجد نماذج لها في شعر شاعر مثل صلاح الدين عبد الصبور . غير ان هذه التجارب وان امتاز بعضها باللفظات الواعية ذات الدلالة الشعوريه الصادقة والتي نجد امثلة لها في قصيدة مثل «دنشواي» فنجد زهران بشامته وشاله وعمامته وكل سذاجته وفطرته ونظرته المليئة بالحياة وهو يتدلى من حبل المشنقة ... فانها ما تزال في حاجة الى التعمق والوصول بها الى مسارب نفسية اشد عمقاً وسعة . وقد اتجهت هذه المدرسة في بعض الاحيان نتيجة لاتجاهات غير واعية الى الاكثار من التفاصيل التي لا لزوم لها، حتى اصبح بعض هذه التفاصيل اشبه ما تكون بالمسلمات القديمة. وانك لتجد صوراً معينة مبثوثة في قصائد كثيرة مختلفة من امثال صوره الحارس الليلي والمزراب وعواء كلب من بعيد والزير والعنز وما شاكل ذلك وما شابه بدون حقيقية لذكرها، وانما اتخذت كأكليشهات جديدة تدل على ان الشاعر من اصحاب المذهب الجديد او لتدل على واقعية ساذجة غير قائمة على اساس من الانتخاب الشعوري للتفاصيل الموحية .

وبينما كنا نأمل ان يصل هذا الاتجاه الجديد بالشعر العربي الى مرحلة التحرر الكامل والتعبير الحر عن الواقع الانساني ممثلا في تجربة حقيقية .. اصبح هذا الاتجاه نفسه عرضة للانطواء في التيار الجديد الذي اخذ يفرض على الشعر الجديد قبل ان يكتمل تحرره مفاهيم الاشتراكية والكفاح .. ونتيجة لان اغلب شعراء الشباب قد فرض عليهم هذا المفهوم الجديد قبل ان يتم وعيهم بذواتهم وذوات من حولهم، فقد اصبحت هذه المفاهيم اشبه بمسلمات جديدة تخنق الشعر الجديد. وسيطرت المثالية من جديد على الصفات الانسانية، واصبحنا نجد الشر المطلق في جانب الاقطاعي الذي لا يخطئك ان تراه في اغلب الشعر الجديد منتصباً ومسدسه في يده يفري بسوطه ظهور جماعة من الفلاحين البؤساء الاطهار الذين سينهضون بفعل قوة جديدة لا ادري من اين ستأتيهم ليحطموا هذا الاقطاعي ويدوسوه باقدامهم .

وبذلك بعدت المشكلة عن واقعها الانساني .. هذا الواقع الذي نجده ممثلاً عند جوركي اديب الاشتراكية الاول الذي نجد ابطاله يعيشون في واقع انساني حقيقي لا مثالية مجردة، ونجد الصراع بين الخير والشر في نفوس ابطاله سواء منهم الاقطاعيين وابطال الكفاح. ولم يسيء ذلك بحال الى تبشيره بفجره الجديد، وانك لتجد مثلاً لذلك ببطلة قصة «الام»

والدة بافل التي ما كانت تفهم هذه القضية الاشتراكية الا باعتبار ابنها بطل القضية فلم تكن تضحيتها نابعة من فهمها للمفاهيم الاشتراكية وانما نبعت من ايمانها بولدها وزملائه، وما كان موقف الام الساذجة ليكون غير ذلك، ولا يستطيع احد ان ينكر على الاديب احساسه بالمشكلات التي يضطرم بها مجتمعه، ولكننا نريد ان يكون هذا الاحساس عميقاً قوياً ذاتياً غير مفروض من قوة خارجية .

واني اريد في النهاية ان اوجه سؤالا دقيقاً: هل تركزت كل مشكلات الشرق العربي في قضية حياته الاقتصادية، وهل انتهى مثلاً هذا القلق الجنسي المسيطر على نفوس الشباب والذي يضيع اكثر امكانياتهم ويطبع حياتهم بطابع ملتو معقد ؟

وهل فرغنا من قضايا المثالية المتكلفة التي نفرضها على ذواتنا وهل تمت مواجهتنا لهذه الذات بشجاعة حتى نتخلص من قضايا الانانية والتعقيد والدروب الملتوية، ولم يبق في محيط حياتنا غير قضية واحدة او قضيتان ؟

لقد اتجه بعض الادب الملتزم في النثر مثلا الى معالجة قضايا القلق الجنسي المسيطر على نفسياتنا وظهرت رواية «الحي اللاتيني» كمحاولة في هذا السبيل . وكنا نريد ان تعمق هذه الاتجاهات الحرة حتى نستطيع ان نواجه بشجاعة مشاكلنا المختلفة .

نحن لا نهاجم التزام الشاعر لموقف خاص واع من قضايا مجتمعة، وانما نحارب هذا الالتزام اذا كان نتيجة لمسلمة مفروضة تعوق تقدم الشعر وتطوره. وما اجدرنا بان نطالب شعراءنا اولا بالتحرر الذاتي الكامل وسيكون انتاجهم وحده وبدون ان نتكلف تقييدهم بالسلاسل صورة صادقة لمشاكلنا الحقيقية.

واذا كان سارتر وهو من اقوى الدعاة الى الالتزام لم يقو حتى الآن على الدعوة للالتزام في الشعر معللا ذلك بأن للشعر قوانينه الخاصة التي تقربه من الموسيقى والرسم وتبعد به عن النثر ميدان الالتزام .. اذا كان هذا موقف سارتر في فرنسا التي اكتمل تحرر الشعراء فيها من زمن بعيد، فما بالنا في بيئة لم تسعد بهذا التحرر الكامل في عصر من عصورها، وسار شعرها دائماً يزحف تحت نير المسلمات المستمدة من ماضيه والمفروضة فى حاضره، تزيد في قيوده قيوداً جديدة .

القاهرة — عبد المحسن طه بدر

المخاض ..

اني اموتُ ..
يا اخوتي .. اني اموت ..
كالشمعة الخرساء اعصاب رقاق تنعصرْ
كالورد في الابريق .. انفاس ولكن تحتضر
كالحقل مخضراً .. يدب الجدب في بطء اليه
كالنيل تمتصّ الرمال حياته من جانبيه
كالسنديانة ان تكن ملء العيون ..
فالنمل ينخر قلبها .. يا اخوتي هل تسمعون .
إني اعيش الموت في صمتي .. اموت ..
اني اموت !
اني خرجت اليوم من بيتي ، على ظهري صليب
جيبي خراب ...
قلبي خراب ...
أحسستني كالخنفساء ..
يغتالها نعل كبير ..
في حجم الف من قباب الاولياء .
وهناك شيء لا اراه ..
شيء رهيب ..
كالفأر يقرض بين جنبي الحياة
وزحفتُ تلفظني الدروب الى الدروب
والكون مسودّ كأن الفار قد صبغ الصباح
او انني اعمى افتش في الضياء عن الضياء !
او ان خفاشاً كريهاً كالعمى ..
حجب السما ..
كالرخ في اقصوصة للسندباد ..
فرش السواد على المدى .. فرش السواد .
يا اخوتي .. والجوع في طول الطريق ..
افعى لها مليون ناب .
والاعين الحمرا تعاني من غموض ..
شيئاً كآلام المخاض !
وذكرت امي ... انها ماتت بآلام المخاض !
يا قصة الموت الذي يلد الحياه !
اني ارى في داخل الموت الحياه :
فالعطر في هذا العفن !
والنور في هذا الكفن !
والنبت كالاطفال في بطن الجليد !
والنار في جوف الرماد !
والماء يجري تحت هذا « التبن » في صمت عنيد !
والمارد المرصود ينحت في جدار من حديد !
« اماه .. ما اقسى الطريق الى الحيـاه ! »
يا اخوتي .. كنا وكانت في مساء ..
تحكى عن التجار في واد عجيب
خلف البحار السبع .. ماسي الحصى ..
يرمون من اعلى الجبل ..
بالشاة بعد السلخ للقاع الرهيب ...
فتعود ترفعها النسور الى القلل ..
والماس في اللحم الرطيب !
كنا نصلي للشياه ..
الماس مغروز بأضلعها .. فما اغنى الشياه !
ومشيت تلفظني الدروب الى الدروب
حولي عيون
والشاة في كل العيون
يا اخوتي .. واتى المساء ..
فرجعت للبيت الكئيب
امشي على ظهري صليب !
جيبي خراب
قلبي خراب
والماس في لحمي ابر !
يا اخوتي .. أن أرقص المسخُ القرود ..
او اركب العنزات عمداً من بكر ..
او دق طبلاً فاستقامت — كالاناسي — الحُمُرْ
تمشي على رجلين .. او تلقي التحية كالجنود .
او اخرج الحاوي من الطوب البلح .
او صور البطيخ من حب السبح .
او اطلق الكتكوت يصوي من قدح .
او راح يلعب بالحجر ..
والبيض في حذق كاعجاز الاله ..
يا اخوتي .. ان كنت اضحك للمسوخ وللحواه ..
ويلوح في عيني اشراق المرح ..
لا تحسبوا اني فرح
فاللحن اصفى ما يكون اذا تهيأ للخفوت !
اني اعيش الموت .. في صمتي اموت ..
اني اموت ..
لكنني الد الحياه ..
كالامهات يلدن في الالم الحياه ..
امي .. وكل الامهات ! ..

القاهرة — نجيب سرور



الأصمعي

تأليف الدكتور عبد الجبار الجومرد

مطابع دار الكشاف ببيروت – ٣٦٠ ص .

اني لأشعر إذ اقلب صفحات كتاب مثل كتاب « الأصمعي » الذي يعنينا الآن ، اني اضع يدي على شاهد لاحد الاعمال الوطنية ، يتقدم به جندي من جنود الفكر ، يدافع به عن حق سليب ، ويمهد الطريق لركب من الحضارة بعينه : يود لو يراه يعاود السير والانطلاق ، تبعاً لسيرة عرفت عنه وعرف بها ، طيلة قرون متطاولة .

ولنبدأ من البداية .

كانت الدولة التي ملأت العصر الوسيط ، واحتلت الصدارة فيه في العالم هي الدولة العربية ولا شك ؛ وكان من نتائج هذه الصدارة ابداع حضارة ضخمة مزدهرة ، حفلت بشوامخ عالميين من رجال الدين والعلماء والادباء والمفكرين ، أمثال اصحاب المذاهب الاربعة وابن الهيثم والبيروني والخوارزمي وابن المقفع والجاحظ والمتنبي والمعتزلة وابن سينا وابن رشد وابن خلدون وغيرهم وغيرهم ..

ثم جاء حين من الدهر ، اصاب فيه هذه الحضارة وهن وضعف ، وضمور وركود ، ثم موت ، او جمود هو اقرب ما يكون الى الموت ، فانقطعت الاسباب بابحاث ابن الهيثم والبيروني ؛ وقوّ رعيل الادباء الذي خلف ابن المقفع والجاحظ والمتنبي ، وخلا نتاجه من كل خلق وطرافة ؛ وسدوت ومضات الفكر بعد المعتزلة وابن سينا وابن رشد واستحالت شطحات صوفية ؛ وضاعت صيحة ابن خلدون في من اتى بعده لتعهد رضيعه الجديد (علم الاجتماع)، فاهملت كفالته ، وكان من امره ما نعلم ويعلم الجميع .

ولسنا الان في معرض بيان الاسباب لكل ذلك ، فلعل ذلك احرى بسفر او اسفار : تقرر الوقائع ، وتضع القواعد ، وتستخرج الاحكام ، ولكنها لمحة اوردنا اثباتها بصدد صدور بعض المؤلفات ، امثال كتاب « الاصمعي » لمؤلفه الدكتور عبد الجبار الجومرد .

لا شك ان الشرق العربي اليوم هو في سبيله الى قفزة حضارية يشعر بضرورتها ويسعى اليها كل عربي صحيح الايمان ، راسخ العقيدة ، واضح الوعي لوجوده وغايته في هذه الحياة . وكل قفزة الى الامام لا ترتكز على اسس متينة هي قفزة فاشلة، وكل حضارة لا تصل في نموها وتكاملها الى درجة الخلق والابداع هي حضارة ظل ، لا حقيقة لها ولا ثبوت. والخلق في ميادين الحضارة لا يكون الا حيث يوجد جو تتخمر فيه العقليات ومنتجاتها ، وهذا الجو لا يوجد الا بوجود تراث يكون بمثابة الارض الطيبة للبذور الجديدة الصالحة ، يرأمها ويغذيها ، فتمتد جذورها ، وتذهب فروعها في السماء ، فاذا هي حضارة يانعة تسر الناظرين .

إذن ، فكما يسعى العرب الى الحصول على البذور الحضارية مما يكتنفهم من حضارات ، عليهم كذلك ، بل قبل ذلك ، ان يسعوا الى تهيئة التراث الذي ستنمو فيه هذه البذور .

ان هذا التراث موجود ، وهو – الى ما اصابه من نقص وضياع وتلف – متسع ، ذو كنوز ذاخرة . ونظرة واحدة الى كتب الفهارس، القديم منها والحديث ، تنبئنا بمقدار اتساعه وغناه . وكل ما علينا هو ان نحيي هذا التراث ، ليقوم بدوره الخطير في بناء الحضارة التي نحن بصدد تشييدها .

واحياء هذا التراث يكون بنشره وسلكه في ترتيب علمي سديد، وتسليط الاضواء عليه ، ولفت الانظار اليه ، وإلباسه حلة جديدة تحببه الى النفوس وتدعوها الى الالفة معه ، والائتناس به . ان هذا العمل يساعد على اشاعة الجو الحضاري الذي تحدثنا عنه ، بكل ما فيه من توسيع آفاق وايجاد ثقة بالنفس ، ومحاربة لعنصر الشعور بالنقص المستولي على قسم كبير من مثقفي وانصاف مثقفي العرب في هذا العصر .

ان احياء هذا التراث واجب لما ذكرنا ، وان كان لا يفرض فينا ان نبدأ سيرنا في العلوم والفنون من حيث وقف هذا التراث ، لبعد ما بيننا وبينه من الشقة ؛ ولسحق البون الذي سارته الحضارة العالمية في هذه الفترة .

لقد لاحظ برنارد لويس ، كما لاحظ كل معني بدراسة الحضارة العربية، ازدهار الحس التاريخي والميل الى اثبات الوقائع عند منتجي الحضارة العربية . ان هذا الميل وذاك الحس ، وان لم يكونا عامين بحيث يشملان كل ظواهر المجتمع البشري في تلك الازمان ، الا انهما بلغا حداً عالياً من الازدهار، بحيث خلفا لنا اكداساً هائلة من المعلومات ، يمكننا ان نستخرج منها كنوزاً لا حصر لها ، وذلك عن طريقين :

الاول : نشر الموسوعات نشراً علمياً .

الثاني – وهو الافضل لقرب تناوله: استخراج مواضيع كاملة من المؤلفات القديمة، كما فعل مؤلف كتاب «الأصمعي» ومؤلف كتاب «تاريخ التربية الاسلامية» وغيرهما ، وبسط هذه المواضيع وابرازها بحلة يقبل عليها كل راغب في المعرفة.

وهنا نكرر فنقول : ان الغاية من جلاء هذا التراث لن تكون ايجاد نقطة انطلاق في انشاء حضارتنا المقبلة ، وانما ستقتصر مهمة هذا الاتصال الواسع بالحضارة القديمة على ايجاد جو حضاري متصل بالماضي ، وعلى خلق الثقة في النفوس بامكانية الخلق والابداع في الامة العربية . كما يجب الانتباه الى تحذير النشء من الاطمئنان الى هذا التراث والركون الى امجاده الماضية ، ودعوته الى التوجه بأنظاره الى الامام ، والعمل على تكوين حضارة طارفة تتفق والدرجة الرفيعة التي عليها الحضارات في هذا العصر الذي نعيش فيه .

ان جلاء هذا التراث العربي لن يكون له الاثر الذي ذكرنا فحسب، بل سيكون من اثره ايضاً التدليل بوضوح وجلاء وتدقيق ، على ان دور الامة العربية في العصر الوسيط لم يكن حمل السيف والسيطرة على الممالك ، كما يطيب نعته لبعض من في قلوبهم مرض ، فقط ، وانما كان خلق حضارة عالمية خاصة اصيلة ، متكاملة ، ومتصلة – من حيث الجذور – بالاصول الحضارية الشرقية والغربية التي وجدت قبلها ، وقمينة في اي زمن، ولو بعد رقادها القرون المتطاولة ، بأن توجد الجو الصالح لرعاية بذور حضارة جديدة تسهم في اخذ يد الانسانية نحو الاكمل والامثل .

الى هذا النوع المجدي من التأليف يعود كتاب « الاصمعي »، وسيراً نحو هذا الهدف الجليل قام الدكتور عبد الجبار جومرد بهذا المجهود الطيب؛ فله ، ولكل من يحذو حذوه في هذا المجهود البناء ، نقدم عرفاننا وعرفان

***

اتخذ المؤلف موضوعاً لكتابه « الاصمعي » ، ذلك اللغـوي الراوية المحدث الاديب الاريب ، الذي قال له الذواقة هرون الرشيـد : « لا حسن لدنيا لا يكون فيها مثلك يا اصمعي ! »،والذي قال عنه ابو الطيب اللغوي : « الاصمعي ، احد الائمة الثلاثة الذين اخذ الناس عنهم كل ما في ايديهم من اللغة والادب والشعر »، والذي وصفه الامامان ، الشافعي واحمد بن حنبل ، فقال الاول فيه : « ما رأيت بذلك المعسكر اصدق من الاصمعي » ، وقال الثاني : « الاصمعي ثقة ». لقد قال الجاحـظ عنه : « الاصمعي اعذب من تحدث وحكى . » كما قـال ابو نواس : « الاصمعي بلبل يطرب الناس بنغماته ». ووصل الاعجاب عند اسحق الموصلي بهذه الشخصية حداً جعله يقول : « عجائب الدنيا معروفة ، منها الاصمعي . » .. إذن فنحن مقبلون على رحلة عبر حياة واعمال شخصية نادرة فذة ، شغلت الناس طيلة فترة من الزمن امتدت ما بين سنة ١٢٣هـ الى سنة ٢١٧ هـ .والمؤلف ، الذي يقوم بمهمة الدليل لنا في هذه الرحلة هو دليل ماهر ، لا تنقصه دربة في الاصقاع التي يقودنا خلالها، كما لاتعوزه الخبرة في ما يثير النفس الانسانية ويأسر انتباهها ، لذلك فلنأمل كل ممتع ومفيد ومثير من رحلتنا هذه ، ونحن لن نكون من الخائبين .

يستهل المؤلف كتابه فيقودنا مع هذه الجيوش العربية المظفرة التي خلفت الجزيرة وبدأت تكتسح الممالك ، ثم يجعلنا في مرقب عال نشاهد منه ولادة مدينة سيكون لها شأن كبير في التاريخ الاسلامي ، انها البصرة .

انها لا تعدو ، في البدء ، ان تكون معسكراً دائماً يكون نقطة انطلاق للجيوش الاسلامية البكارة نحو الشرق ، ثم ترتفع فيها اعواد القصب تجمع بالطين لتؤلف اكواخاً لسكنى بعض العائلات النازحة مع الجيوش ، وتزول هذه الاكواخ تاركة مكانها شيئاً فشيئاً لبيوت وقصور تنافس مثيلاتها في العاصمتين دمشق وبغداد ، ونحن اثناء ذلك نشهد مظاهر نموها الاقتصادي والسياسي والعلمي بالتفصيل . ثم اذا بأضواء ساطعة تسلط على المسجد الجامع فيها ، فنرى مراحل بنائه ، ونشهد هذه الحركة العلمية الفذة التي تجري فيه ، من حلقات المعتزلة والمتكلمين والحفظة والمحدثين والادباء واللغويين . ثم اذا بنا نشاهد « المسجديين »، وهم تلك الزمرة من الظرفاء التي ضمت الراوية والاديب والشاعر والعالم ومصطنع الحكمة والماجن ، يغشون حلقات الاساتذة ليستمتعوا بما يقع في مجالسهم من نادرة طريفة او شعر رقيق او رواية فكهة او ملحة عذبة او غلطة تنتثر حولها نكات لاذعة .

وتغيب الاضواء عن المدينة لتساط على « سوق المربد » وهي السوق التي قامت في ظاهر البصرة ، وورثت « عكاظ » ؛ نراها في البدء وقد كانت «سوقاً للابل»، ثم اذا بها تصبح مركزاً اجتماعياً وسياسياً وادبياً فريداً ، فيها تلقى الخطب والقصائد والاراجيز ، وتتكتل الجماهير المعنية بالسياسة . نرى هذه السوق وقد امها الفرزدق وجرير وراعي الابل الشاعر والطرماح وسحبان وائل وخالد بن صفوان وغيرهم . ثم نراها تصبح معيناً للغة الفصحى ينتهلها ابناء المدينة من- فم الاعراب الذين لم يلو السنتهم لحن ولا لكنة .

ونحن في كل ذلك نستمع الى شرح دليلنا الوافي وملاحظاته النافذة واحكامه السديدة ، فنشعر بدنيا من المتعة المفيدة تغمرنا ، ونـود لو لم تنته تلك الرحلة عبر تاريخ البصرة ... ولكن هيهات ، فمؤلفنا كريم وقد حوت مائدته افانين كثيرة ، وعلينا ان نجتزىء من تلك الفترة بما شهدنا لننتقل الى غيره مما يدعونا اليه مضيفنا الأريحي .

ها هو يطلعنا على نشأة الشعوبية ويدلنا على مواقع معسكرها واهم القادة فيها ، كما يشرح لنا الدور الذي لعبته في حياة هذه المدينة وحياة كل بارز من رجالها ، ثم ينتقل الى وصفها خارج البصرة . ولمؤلفنا ابحاث واسعة واستنتاجات خطيرة في هذا الموضوع ستظهر قريباً ان شاء الله في مؤلف ضخم سيقلب كثيراً من المسلمات في التاريخ الإسلامي .

وينهي المؤلف هذه الابحاث ، التي ذكرنا لمحة عنها ، بكلمة تبين اصل قبيلة باهلة ، وهي القبيلة التي ينتمي اليها الاصمعي ، وتبين مركزها بين القبائل وأهم رجالاتها .

الى هنا والمؤلف يصف لنا البيئة والعصر اللذين عاش فيها الاصمعي ، فاذا انتهى من ذلك الذي اعتبره كمقدمة لازمة لبحثه دخل في القسم الاول من الكتاب وقد خصص للكلام على بني اصمع في البصرة ، ومولد الاصمعي ونشأته ثم اساتذته ثم خصومه في مجتمعه .

لن ادخل في تفاصيل هذا القسم من الكتاب ، بل اكتفي بالقول ،ان المؤلف كان ذلك البحاثة الامين الذي جمع لنا كل ما يتعلق بهذه الناحية من الاصمعي بجد وامانة ، ثم عمد الى عرضه في لوحات صادقة تنبض بالحياة والحركة ، فاذا لنا من كل ذلك ، فكرة واضحة جلية عن الاصمعي تجعله شخصية حية تتمثل امامنا ساعية نشيطة متدفقة الحيوية ، خفيفة الروح ، فصيحة اللهجة طلقة اللسان عذبة الصوت سريعة التقليد لمحدثيها ، تتذوق القصة وتصغي لها وتلتقطها بسهولة ، هذا الى ذكاء نادر وحافظة جبارة . نرى الاصمعي وقد جعل مجتمع البصرة كله مدرسة له ، فاخذ عن الاساتذة في المسجد ، واخذ عن اصحاب الحرف في الدكاكين واخذ عن اصحاب المهن السيارين ، ولم يتورع عن اخذ ما لدى النسوة والاولاد من طرف وتعابير وافانين . ثم نراه يفيد من المربد افادة جلى ، ولا يكتفي بذلك ، بل يضرب في الفيافي والقفار ، بحثاً وراء البيت النادر من الشعر ، او تحقيقاً ، لقصيدة يحفظها ، في قبيلة من القبائل ، او سعياً للقاء عالم او محدث او امام .

ثم يجعلنا المؤلف نمر في عرض لاساتذة الاصمعي ،فاذا نحن في حضرة ابي عمرو بن العلاء وعيسى بن عمر الثقفي استاذ سيبويه ، والخليل بن احمد ويونس النحوي وخلف الاحمر ومؤرج بن عمر السدوسي ومحمد ابن المستنير البصري والاخفش والامامين مالك بن انس والشافعي وحماد الراوية والفقعسي : شوامخ اللغة والادب والرواية .والدين لكل العصور ،فنكبر هذا الحظ الذي واتى الاصمعي ، ويبطل عجبنا لهذه الثروة غير المحدودة التي كان يتمتع بها ، ويعرض من افانينها على العلماء والخلفاء والاقران ، فيثير الاعجاب ، وينتزع السبق والتقدير والاجلال .

ولا عجب كذلك اذا ارثت هذه المؤهلات الغل والحسد في نفوس الاخصام ، الذين يعدهم المؤلف ويبين نوع ودرجة خصومة كل منهم نحو الاصمعي . ثم يلاحظ ما للشعوبية من دور رئيس في الخصومة الاهم التي تعرض لها الاصمعي في حياته ، عنينا خصومته وتنافسه مع ابي عبيدة ، تلك الخصومة التي حصرتها طيلة حياتهما ضمن نطاقها ، كما تحصر حبال حلبة الملاكمة لاعبين يتنازعان لقب البطولة .

ننتقل بعد ذلك الى القسم الثاني من الكتاب ، وقد خصص للكلام عن شخصية الاصمعي واخلاقه ، فاذا بمؤلفنا يأتزر مئزر القاضي النزيه ويعرض لنا صوراً حقيقية عن رجل كتابه ، فيصف ما فيه من دمامة

خفيفة وفتور غريزة ، واهمال لمظهره مع بخل وحرص ، ثم يفتن في اظهار ظرفه وخفة روحه ، الى ان يصل الى ما يثبت به تدينه وصدق لهجته في كل ما نقل او روى .

واما القسم الثالث فقد خصص للكلام على مكانة الاصمعي العلمية ، فاذا به يصف حلقته في مسجد البصرة كما يتكلم عن العلوم التي برز فيها ومذاهبه في تلك العلوم . لقد كان هذا القسم معرضاً لنواحي العبقرية في الاصمعي فاذا بنا نشهد مناظرته مع سيبويه ، ونطلع على مدى تضلعه في اللغة والنحو والادب والشعر والاخبار والانساب .

وننتقل مع المؤلف ، في القسم الرابع من كتابه ، الى قصر الخلد . فنشهد دخول الاصمعي على الرشيد ، والتحاقه بمجالس الادب واللغة في بلاطه . ثم نراه يفيد من ذلك افادات ثلاث : علمية ومادية واجتماعية ، ثم نشهد نكبة البرامكة بعد ان تتبعنا دور الاصمعي فيها ، لنراه يعتزل الرشيد بعدها ويكر راجعاً الى مدينة صباه البصرة .

وبعد ان يخصص المؤلف القسم الخامس من الكتاب للكلام عن الفترة الاخيرة من حياة الاصمعي التي تقع بين تركه لبغداد ووفاته في البصرة فيتكلم عن اخريات ايام الاصمعي كما يتكلم بأسهاب عن طلابه - ينتقل الى القسم السادس والاخير الذي يخصصه لدراسة آثاره .

وهنا يعدد لنا تصانيفه ومؤلفاته فاذا بها تربو على الخمسين ، ثم يبسط آراءه في الادب ، ثم طريقته في رواية اصناف نوادر الاعراب ليخلص من ذلك الى نماذج من رواياته للشعر والامثال والحكم والطرائف والملح والاخبار التاريخية وسير الشعراء .

انها لمائدة شهية يود القارىء لو لم تنته ، ولكن المؤلف يرفعها من امامنا لينهي كتابه بنظرية عن نشوء القصة العربية ، تدرجاً من رواية الخبر الى الملاحم الشعبية كقصة عنترة وابي زيد الهلالي ، هذه النظرية التي هي غاية في التوازن وفي التحليل والاستنتاج المنطقيين .

***

والآن ، وبعد ان قدمنا عرضاً موجزاً لمحتويات كتاب « الاصمعي » ، عرضاً نشعر بتقصيره عن اعطاء فكرة كاملة عن الكتاب بما فيه من جهد وما يحمل من فائدة ومتعة ، نعود فنكرر شكرنا للمؤلف على تحفته ، راجين منه ان يسرع بتحقيق الوعود التي قطعها في اصدار كتابه التالي الذي لا نشك انه سيكون ، الى جانب اخيه « الاصمعي » ، لبنة قوية في التكوين الثقافي للاجيال العربية الصاعدة .

زهير فتح الله



رجال وظلال

قصص وصور قيمة بقلم مير بصري

شركة التجارة والطباعة المحدودة - بغداد ١٦٠ ص

•

ان من يقرأ قصص مير بصري التي انتظمها كتابه « رجال وظلال » يحكم لاول وهلة ان هذا الاديب العراقي الموهوب قد تتلمذ على « الكلاسيكيين » الفرنسيين ، ولا اقصد بالكلاسيكيين بطبيعة الحال امراء الادب الفرنسي في عصر الملك لويس الرابع عشر وما بعده الذين ثار عليهم شبان المدرسة الابتداعية أمثال لامارتين وفكتور هوغو ، ولكنني أقصد معنى أشمل وأعم اي أصحاب الادب المتين الرصين الذين وجهوا عنايتهم الى تجويد اللفظ والمعنى في وقت واحد . فمير بصري كاتب ارستقراطي يهتم بكلماته اهتماماً لا يقل عن غوستاف فلوبير صاحب « التربية العاطفية » او الشاعر زهير بن أبي سلمى صاحب « الحوليات » . وأبطال « رجال وظلال » اكثرهم ارستقراطيون يمتطون السيارات ويتنقلون بين العواصم الغربية ويقضون الصيف على سواحل البحر . ولا شك ان بينهم أمثال « وسيم » بطل قصة « ضمان الحياة » وهو موظف صغير يعمل جاهداً لبناء سعادته . واذا استثنينا « أحمد » الفلاح العائد الى ارض « نداء الارض » فلما نجد بين هؤلاء عاملاً او كادحاً .

على ان مفهوم مير بصري نفسه لتعبير « الارستقراطية » يختلف عن المفهوم العلمي . ففي مقال له بعنوان « شعراء الخاصة » نشر قبل سنوات قال يتحدث عن ادب الخاصة « ان هذا الادب صورة صادقة لنفوس عظيمة فاصحابه رجال عظام قبل ان يكونوا شعراء عظاماً . واذ كان هؤلاء يمثلون ارستقراطية سامية - هي ارستقراطية الفكر والروح - لم يجدوا في اكثر الاحيان فهماً حقيقياً من عصرهم ومجتمعهم فآثروا العزلة والانزواء وانطووا على انفسهم يستخرجون منها بين الفينة والفينة اناشيد مستخلصة من صميم ذاتهم ، لا يبتغون من الجهر بها غير ارضاء حسهم الفني والافصاح عن خوالج النفس العميقة التي تتصل في مسارب خفية بالعالم الروحاني الامثل بيد ان ابتعادهم عن صخب المجتمع وضوضاء الحياة لم يكن ليجعل شعرهم ادباً ميتاً لا صلة له بالمجتمع والحياة ، فقد وقاه منبة ذلك الاسفاف صدوره عن معين الحياة الخالدة التي لا تعرف الركود ولا الخمود ...

هذا هو الادب « الارستقراطي » الذي يدعو اليه الاستاذ مير بصري ويطبقه في شعره ونثره وقصصه ونقده وسائر الفنون الادبية التي يزاولها ويتفوق فيها . والاستاذ الى جانب ذلك من كبار رجال الاقتصاد تولى مديرية غرفة تجارة بغداد سنوات عديدة وحرر مجلتها الشهرية التي جعلها ندوة لاقلام النخبة الممتازة من العلماء والاقتصاديين . وله مؤلفات اقتصادية متداولة . اما في الشعر فهو مجدد متفنن ، وقد نشرت له مجلة « الكاتب المصري » (١٩٤٦) ملحمة شعرية عنوانها « نهاية الابطال » نظم فيها اسطورة اسكندينافية قديمة عن حياة « الفايكنج » .

ان مير بصري قد خرج في قصصه عن حدود « الاقليمية » فالى جانب القصص العراقية التي ضمنها مجموعته « رجال وظلال » قصص عديدة يصح ان تقع في مكان ما او زمان ما . فتبدأ المجموعة بقصة « الحكيم الصيني » وهو تاجر ترك التجارة الى العلم قائلا : « ان التجار كثيرون وطلبة العلم اقلاء .. فلأطلب العلم لعلي اصيب حكمة فأفيد البلاد والعباد ! لكنه بعد ان انغمس في الحكمة لم يجد ما يفيد به الناس سوى كلمة نطق بها في عزلته وتبتله : « ان الحكمة الحقيقية هي التي تشعر بها النفوس ولا تنطق بها الشفاه !

والقصة الثانية « الرجل الذي لم ينتظر » مشجية حقاً فهي قصة اديب واتته الشهرة والمال ليلة انتحاره ، وقد صدرها الكاتب ببيت لموسيه « قرع الحظ السعيد عند مروره على الباب La fortune en passant a frappé à ma porte. واية سخرية ابلغ من سخرية القدر الذي قرع الباب على هذا الاديب البائس حاملا اليه الثروة والصيت الرفيع ليجده قد انتحر

قبل هنيهة .

اما قصة « شاب من شبان العصر » فهي قصة الشباب المتسامي الذي يندفع بحماسة لاصلاح بيئته وخدمة وطنه . واما « ياسر » فهي قصة الشباب المتخاذل الذي يتاح له الدرس في الخارج والحصول على ثقافة عالية فيعود مترفعاً على اهله ومحيطه . و « العودة » قصة انسانية مؤسية ، هي قصة الوطني المتحمس الذي يكافح ويناضل ويذوق آلام النفي والتشريد في سبيل بلاده ثم يعود اليها بعد ان شرب كأس العذاب حتى الثمالة ليجدها غريبة متغيرة فيخرج « الى البرية شارد اللب زائغ البصر يهيم على وجهه . »

وفي « نداء الارض » نرى روح الاقتصادي المصلح تطغى على القصاص فهو يعالج مشكلة القروي المهاجر الذي يتنقل في المدينة بين شتى الاعمال دون ان يجد فيها الراحة التي ينشدها ولا الرفاهية التي حلم بها . ونراه يحار في امر سكناه ، حتى « ابتنى لنفسه خصاً من البواري والصلصال في احدى العرصات الخالية على مقربة من القصور القائمة في ضواحي البلدة . » ويقول المؤلف واصفاً هذه الاكواخ : « وكان امر هذه الخصاص الحقيرة عجيباً ، فقد جاوزت الصروح الشامخة فبدت كالاقزام الى جانب العمالقة . وان كان اصحابها لا يدفعون عن مساكنهم اجرة ، فقد ظلوا ابداً تحت وطأة العمران المتوسع ، فكلما شرع باعمار الارض التي نزلوها انذروا باخلائها من الفور ، فحملوا اجزاء بيتهم ومتاعهم القليل ومضوا يتقرون المواضع في طلب عرصة من الارض يحطون فيها الرحال . وكذلك انتقل احمد مرات كما شاءت له الاقدار حتى اذا ما ضاق ذرعاً بجوار هذه القصور التي تطرد كوخه كل آن لتقيم في محله قصراً ، انتحى ناحية قصية ليحظى بالراحة بعيداً عن الاحياء الجديدة المأهولة . بيد ان هذه الارض التي اقام عليها خصه وسط الخصاص الكثيرة كانت منخفضة ، فلم تمض أشهر حتى اغرقتها مياه النهر الطاغية ، فنجا المسكين بأسرته وما استطاع انقاذه من متاعه ومضى يبحث عن محل آخر ينصب فيه كوخه السيار .

اية مأساة انسانية مأساة هذا الفلاح المتحضر ، لكنه يعود في آخر الامر الى الارض ليجد فيها السعادة المفقودة .

ولا يتسع المقام لتحليل قصص اخرى من هذه المجموعة الفريدة . وحسبنا ان نذكر قصة « فتاة التلفون » وفيها حوار بارع بين امرأة مجهولة وشاب يبحث عن الحب جمعت بينهما نزوة من نزوات الاخطاء التلفونية . وتنتهي القصة نهاية غير متوقعة ، اذ نرى فتانا يخطب ابنة السيدة المجهولة فتقول الام : « ان ذلك منوط بالفتاة ، وهي حاضرة فوجه اليها الخطاب ! »

وجدير بنا ان لا ننهي هذه النظرة العابرة في قصص الاستاذ مير بصري دون ان نشير الى براعته في التصوير والتحليل ، فالشخوص التي يرسمها في قصصه وصوره القلمية حية تتغلغل في النفوس والاذهان . فهذا « معلم المدرسة » صورة حية للآلاف بل الملايين من حملة العلم المغمورين ، وهذه « العمة » امرأة ولا كالنساء بعزمها وقوة روحها وطيبة نفسها ...

وتذكرنا بعض الالواح الوصفية من قلم الاستاذ بصري بأسلوب فكتور هوغو . فمن قطعه الادبية الرائعة قطعة اسمها L'Enlisement تصف رجلاً تبتلعه الرمال الرخوة شيئاً فشيئاً فكلما يحرك رجلاً او يبذل جهداً لانقاذ نفسه يسيخ به الرمل اكثر فأكثر حتى يدفنه حيا . والاديب الفرنسي الكبير يطيل ويسهب على عادته في وصف مراحل هلاك هذا البائس ، فيرسم كل حركة يأتيها وكل خاطرة تساوره . والاديب العراقي كثيراً ما يتبع هذا الاسلوب في طول الوصف ودقته .

من اليقين ان كتاب « رجال وظلال » يضيف ثروة الى القصة العربية الحديثة .

الاعظمية (بغداد) **حازم نبهان**

كتب وردت الى المجلة

(وسينقد بعضها في اعداد قادمة)

•

* النواضر في الجزيرة العربية — بقلم وداد محمصاني الدباغ
  دراسة — مطابع الآداب ، بيروت — ٢٠٥ ص
* فارس الامل — بقلم جورج أمادو
  ترجمة احمد غربية — منشورات دار الفكر الجديد بيروت — ١٢٢ ص
* محمد علي القابسي — بقلم صدقي اسماعيل
  صفحة من نضال العرب الحديث — الدار العربية للنشر — ٨٠ ص
* حزب العمال والفلاحين — بقلم خالد بكداش
  دراسة — دار الفكر الجديد بيروت — ٨٠ ص
* البيان الشيوعي — بقلم ماركس وانجلس
  ترجمة خالد بكداش — دار الفكر الجديد ، بيروت — ٨٠ ص
* هذا التاج — بقلم واصف بارودي
  رواية — منشورات المكتبة العلمية — ١٨٠ ص
* اولاد الخليلي — بقلم جعفر الخليلي
  مجموعة قصص — مطبعة المعارف ، بغداد — ٢٠٦ ص
* استعمار وكفاح — بقلم احمد محمد جمال
  دراسة — مكتبة الثقافة ، مكة المكرمة — ٢٢٠ ص
* المجنون يعشق الموت — بقلم ميشيل الحاج
  متفرقات — دار الطباعة والنشر ، عمان — ٩٠ ص
* صور متحركة — بقلم سعيد فياض
  مقالات وقصص — مطابع الآداب ، بيروت — ٢٢٦ ص
* قطار الظلام — بقلم سامي طه الحافظ
  مجموعة قصص — مطبعة الهدف ، الموصل — ٩٤ ص
* الحق والقانون — بقلم فكتور هوغو
  ترجمة سعيد ابو الحسن — مطابع الرافدين بالقامشلي — ٩٦ ص
* النظام السياسي في الولايات المتحدة — بقلم دافيد كويل
  ترجمة توفيق حبيب — مؤسسة فرانكلين — ٣٢٠ ص
* جني الثار — بقلم رابندرانات طاغور
  ترجمة اكرم الوتري — مطبعة دار المعرفة ، بغداد — ١٣٣ ص
* نصف لبنان — بقلم عبدالله حشيمه وجوزف حشيمه
  عرض عام للاغتراب اللبناني — دار الغد للطباعة والنشر — ١٥٢ ص
* صور — بقلم عزمي علي البغدادي
  مجموعة قصص — منشورات دار الرواد بدمشق — ١٥٦ ص
* عقلك مفتاح الفرص — بقلم و . ج . انيفر
  تعريب شفيق اسعد فريد — مكتبة المعارف بيروت — ٢٤٨ ص
* المدينة الفاضلة — بقلم كارل بيكر
  ترجمة محمد شفيق غربال — مكتبة الانجلو المصرية — ٢٦٢ ص
* رباعيات — بقلم كارل بيكر
  شعر — مطبعة الخبر ، البصرة — العراق — ٦٨ ص
* في المجتمع العربي — بقلم كاظم حطيط
  دراسات — دار الطباعة العربية ، بيروت — ٩٠ ص

منى

« الى عبد العزيز خاطر .. ذكرى أيام
الدراسة .. والكفاح .. وبواكير الشباب »

كأرض اورشليم
ودمعة اليتيم
في الطهر والصفاء
عيناك يا (منى) ..
عيناك يا منى
حقولنا الخصيبة الفساح
تبسم في الصباح
وتمنح الجمال والغنى
عيناك يا منى
عيناك اغنيات
عيناك ذكريات
طويلة الشجى
من عمرنا البعيد
يلفّها الدجى
بخضرة الاماني .. ولوعة النشيد
أسطورة تدور
من شاطىء غريق
في الورد .. والبخور
تعيش في الخيال
وتغرس الجمال
في عمرنا الغرير !

***

وآه .. يا منى
إن كنت تذكرين
احلامنا وحبنا .. وحبنا القديم
ورفقة صغار
اذا مضى النهار
تفرقوا .. وعاودوا ان اشرق النهار
وكنت يا منى
في جمعهم صغيرة .. نحيلة القوام
كأنك العصفور
وكنت يا منى
بثوبك المزركش المحبب القصير
وشعرك الطويل
وأنفك الدقيق
ونظرة الحنان
عروسة .. من أجلها تعارك الصبيان
وكنت يا منى
لقلبيَ الحبيبة .. الحبية .. الودود
وكنت يا منى
تصدقين كل ما ينمق اللسان
وتسمعين قصة العفريت ذي القرون
ويجمح الخيال
فأجمع البطوله
والجرأة المهوله
وأصرع العفريت في حوالك الدروب
بآية القرآن
وعزمة الشجعان
وكنت يا منى
تصدقين كل ما ينمّق اللسان
مبهورة .. لهيفة .. عتية القلق
فيرجف الحلق
في أذنك الصغيرة المرهفة الاصغاء
فكيف يا منى
تشتت الهنا
ومرت الايام، والشهور .. والسنون
وطوحت بنا
عن حبنا الحبيب في مدينة الامواج
عن شط (راس التين)
فسرت في طريق
وسرتُ في طريق
فأين أنت الآن من دوامة الحياة
أزوجة تجر في مسيرها العيال ؟

***

قد عدتُ يا منى
لحيّنا القديم
هجرته عشرين من سنينيَ الطوال
وعدتُ والخيال
يداعب الشعور
فأنكرت عيناي ما تراه
تغيرت معالم الدروب
وهدمت دكانة الحلاق
في اول الزقاق
ودار عم مصطفى
وبيتنا القديم
رأيت في مكانه عمارة شامخة البناء
وهكذا الحياه
تبدل الجماد .. والانسان .. والايام
وتسعد القلوب
وتنكأ الندوب
ونحن في تيارها نصارع الزمان
ونخلق الجنان

***

لعل في زقاقنا وحيّنا القديم
في هذه الساعات
رواية جديدة تعيدها الحياه
وعاشقين ينسجان قصة الصبا
وحبه الطهور
وبعد حفنة من السنين ينشد الفتى
لحبه القديم
ما أنشد الفؤاد في عينيك من لحون:
« كأرض اورشليم
ودمعة اليتيم
في الطهر والصفاء
عيناك يا منى »

القاهرة **كمال نشأت**

من (رابطة النهر الخالد)



كوكو وفيدو وماري واديل ، طرقت بابهم في امسية يوم احد . وكنت قد جبت شوارع بيروت عبثاً من اجل حجرة استأجرها ، فلما رأيت حجرتهم فسيحة ولها شرفات دفعت الايجار فوراً .

وبعد ان احضرت حقيبتي ورصصت ملابسي في الصوان ، لاحظت الاتربة المتراكمة على الحيطان وخيوط العنكبوت المدلاة من السقف ، والصراصير التي تمرح تحت السرير والصوان .

وفي اول صباح اشرق علي في مسكني الجديد ايقظني صياح الديك من الرابعة صباحاً ، ولم يكف الكلب عن العواء طيلة النهار .

ولكني كنت قد دفعت الايجار .

والشقة مكونة من ثلاث حجرات والمطبخ والحمام : حجرتي ، وحجرة مغلقة دائماً هي حجرة نوم فيدو وماري واديل ، وحجرة الاستقبال والمائدة والراديو معاً وهي دائماً عابقة برائحة التنباك ، ثم الحمام الذي لا ينظف ابداً ، والمطبخ الذي يطبخ فيه اكل فيدو مرة كل يومين واكلهما مرة كل اربعة ايام .

وصاحبتا الشقة قريبتان ، فهما ابنتا خالة ، علاوة على صلة النسب بينهما . فماري زوجة اخ اديل ، علاوة على الزمالة الطويلة بينهما ، لذلك لم تكن احداهما تطيق فراق الاخرى .

وكان من الصعب تحديد ايهما اكبر سناً ، فماري تتصرف كالطفلة الصغيرة ويحلو لها ان تبدو كأنها الغريرة قليلة الخبرة التي لا تعرف امور الحياة . ولعلها كانت في الواقع اصغر من اديل ، ولكنها كانت مجعدة الوجه بشكل يوحي بانها تخطت الستين . في حين تبدو اديل في الخمسين من عمرها ، الا اذا نمت جذور شعرها وبدت بيضاء ناصعة كملاءة السرير .

في يوم مضى في التاريخ القديم كانت ماري طفلة سعيدة لها اب وام واخ وتسع اخوات ، تلعب مع اخواتها بالكرة امام باب بيتها . ثم مات الاب في حرب مع الترك ومات الاخ في حرب ضد الترك ، فحزنت عليهما الام كثيراً واهملت شئون بيتها وبناتها فمات الخمسة الصغار تباعاً ثم لحقت بهن الام وفاء منها لاعزائها ، وبقيت البنات الاربع بلا عائل ولا نصير ، فاجتمع اقاربهن ، وتطبيقاً للمثل القائل « القفة التي لها اذنان يحملها اثنان » تقاسموا البنات فيما بينهم ، فكانت ماري من نصيب اسرة اديل .

وربيت ماري في البيت تخاف من اديل وترجف من والديها واخيها الاكبر ، ولكن كان هناك جورج الاخ الاصغر الذي يقاربها سناً .

ولم تكن ماري جميلة فشفتاها رقيقتان كأنهما غير موجودتين ، وعيناها حولاوان تنظر باحداهما الى الشرق وبالثانية الى الغرب كأنها تريد ان تلم بالكون كله في نظرة واحدة ، علاوة على شعرها الخفيف الذي لا يخفي جلد رأسها .

ولكنها كانت بيضاء متوردة الوجنتين ممتلئة ذات افخاذ وارداف .

وفي يوم انتهزت فرصة غياب اديل عن البيت فجمعت فستانها من الامام بحيث تكشف عن سمانة ساقها وقشت امام جورج . ثم جاءت بدلو مملوء ماء وقطعة من الخيش وبدأت تمسح البلاط في الحجرة التي يجلس فيها .

وتنبه جورج الى الفتاة التي تتحرك امامه مرة الى اليمين ومرة الى اليسار بعكس حركة قطعة الخيش ، وعجب من نفسه كيف لم ينتبه من قبل الى انه في شقة واحدة وتحت سقف واحد مع هذه الفتاة التي يشتهيها في شقق الجيران .

ولم تمانع ماري ، ولكنها بعد قليل بكت بين ذراعيه وبثته خوفها من ان تكون العلاقة الخفية قد اتت بثمرة لا يمكن اخفاؤها . ولكنه هزيء من مخاوف اليتيمة التي تتربى في بيت ابيه ، فهددته بان تقتله وتقتل نفسها ، وخاف جورج من التهديد فاذعن ، ونسيت ماري انها هددته واعتقدت انه قتيل هواها . اما هو فلم ينس ابداً .

واضطرت الاسرة التي كانت تتمنى له زوجة ثرية ان توافق على الزواج الذي اصبح ملحاً .

وانجبت ماري ثلاثة اطفال ماتوا في باكورة حياتهم وتركوا في قلبها جوعاً الى الاشياء الصغيرة السن والحجم . وبعد سبع سنوات من الزواج اضطر جورج الى السفر الى مدغشقر لامر يتعلق بوالده ، ولم يتوقع احد ان تطول غيبته اكثر من عام . ولكن الاعوام مرت تباعاً وهو غائب . وتزوج اخوه الاكبر وأنجب اربعة اطفال وهو غائب ، ووقع ابوه تحت عجل الترام ومات وهو غائب . واختلت مالية الاسرة فانتقلت من غرب بيروت الى شرقها وهو غائب ، واكملت غيبته اعوامها العشرة في كل عام اثنا عشر شهراً وفي كل شهر ثلاثون يوماً . وعندما تتحدث ماري عن غيبة زوجها التي طالت تقول غائب من ست سنوات والسابعة وهذه هي السنة الثامنة .

فتصححها اديل .

— عشرة يا ماري ، اكمل العشرة .

ولكن ماري ترفض ان تصدق هذه الحقيقة فلا تعبأ باعتراض اديل وتكرر ... ست سنوات والسابعة ...

وكان جورج في اول غيبته يكتب لها الخطابات الوالهة وترد عليه هي بخطابات اشد ولهاً كأن رجال المواصلات بين لبنان ومدغشقر لا عمل لهم الا توصيل خطابات « صغيرتي ماري » الى حبيب القلب « جورجي » . ثم خفت حرارة الخطابات وطالت الفترات بينها حتى انقطعت تماماً .

وبكت ماري ولم تستطع ان تخفي انفعالها ومخاوفها فصبت جام غضبها من زوجها على اخته وكالت لها الاتهامات .. اخوك الخائن .. لي رفيقة .. يحب غيري .. وتحملتها اديل في صبر كريم ، ومن قرارة نفسها تلمست لها الاعذار ، وبعد ان جفت الدموع وهدأت الثورة اقسمت ماري انها لن تكتب له ابداً ، وعزت نفسها بانه — على كل حال — ماروني لن يستطيع ان يطلقها ليتزوج من ضرتها المجهولة .

وظهر مفعول الغيرة عليها فذاب شحمها وتلاشت افخاذها وارادفها وتجعد وجهها وتقاطعت على صفحة الاخاديد ونحل شعر فوديها حتى صار من المستحيل إخفاء جلد الرأس تحته ، وازداد الحول وضوحاً في عينيها بعد ان صارت تكحلهما بالاسود . واشاع اصدقاؤها ومعارفها — من وحي ما صارت اليه — ان جورج اراد بعد ان طالت غيبته مفاجأة اهله بعودته . فلما وصل الى بيروت توجه الى مسكن زوجته ورآها خارجة من البيت فلم يعرفها في اول الامر ، ولما عرفها اخفى نفسه عنها وعاد رأساً الى الميناء ، وبأول باخرة الى مدغشقر ثانية .

اما اديل فهي اكبر سناً واقصر قامة واكثر امتلاء . عيناها خضراوان

تخفي خضرتها نظارة سميكة اطارها مكسور وملحوم بقطعة من اللبان الامريكي . وهي حتى اليوم آنسة لم تعرف لمسة الرجل . سلخت من الدهر نصف قرن او يزيد لم تحب ولم تحب . ماتت امها بعد فترة من حضور ماري عندهم ، فتولت هي شؤون البيت تطبخ وتكنس وتغسل وتؤدب ماري .

تقدم لها خطاب ولكن والدها اشترط ان تكون اقامتها بعد زواجها معه حتى تستمر في الاشراف على البيت ، وكان معروفاً بطبعه السيء ففر الخطاب . وما تزال اديل تذكر منهم واحداً اشيب الرأس كثير المال قال لها سوف تندمين .. ولكنها كانت ككل فتاة والدها سيء الطباع لا تملك تقرير مصيرها .

فلما انتبهت الى ان اوانها قد فات ورأت البياض يغالب السواد في شعرها بكت سوء حظها ثم لجأت الى الاصباغ وفنجان القهوة وورق اللعب لعلها تعينها على اللحاق بالركب الذي رحل . وذات مرة جمعت اطراف شجاعتها وحاولت ان تتفاهم مع والدها وتشرح له ان اخاها الكبير تزوج وانشغل بأولاده واخاها الصغير غائب منذ سنوات ولا يعلم احد متى يعود ومستقبلها مخيف ورجته ان يؤمنه بخمسة الاف ليرة يضعها باسمها في البنك ، فنهرها ابوها وهزيء بمخاوفها .

وبعد ايام من هذا الحديث مات الاب تحت عجلات الترام وانكشف الستر عن حقيقة ثروته فاذا هي بعد تسديد ديونه بضع مئات من الليرات اخذ الاخ الاكبر معظمها .

واضطرت اديل الى الانتقال من رأس بيروت الى النهر حيث المساكن رخيصة الاجر كثيرة البعوض . وانتقلت معها ماري ، ومنذ ذلك الوقت تلازمتا ، اديل تقوم بواجبات البيت . واحترفت ماري الخياطة تنزل كل يوم الى معترك الحياة لعلها تصيد قرشاً . ولكن كان لا بد لهما من تأجير حجرة من مسكنهما حتى تستطيعا دفع ايجاره وهكذا دخلت الى محيطهما .

***

انصرم الصباح واديل جالسة بجوار الراديو الذي تديره خافتاً حتى لا يستهلك كثيراً من الكهرباء ، استمعت الى الغناء ثم الاخبار ثم الاحاديث . وكف الراديو وهي ما تزال جالسة مكانها . وسرحت بخواطرها ، لم تكن تفكر في شيء معين ، بل تقتل وقتها . ثم قامت فاحضرت ورق اللعب وصارت ترميه ثم تجمعه وترميه ثانية . ثم نفخت من فيها ... اهكذا تمضي ايامها طويلة مملة عديمة الفائدة .. ؟ وقامت الى الشرفة فاتكأت على سورها تطل على الطريق ، واحتك بها الكلب وعوى . حاضر يا فيدو .. حالاً يا بوحنو ...

وذهبت الى المطبخ فاشعلت الموقد وسلقت قليلاً من المكرونة ثم قلت حبة من الطماطم في الزيت ، ثم اخذت لفة فيها بعض العظام فغسلتها واضافت اليها ماء وملحاً واقامتها على الموقد . وجلست على المقعد تنتظر . فلما غلت الشوربا وتصاعد بخارها اطفأت الموقد . واضافت قطع الخبز الى الشوربا فاعدت منها ثريداً عظيماً . وجاءت برغيف فوضعته على منضدة المطبخ بجوار صحن الطماطم . ثم وضعت المكرونة امام الديك ، وثريد العظام للكلب واكلت هي الطماطم المقلي في الزيت مع رغيف العيش ثم مسحت صحنها بلقمة من الخبز بنفس العناية التي تمسح فيها البلاط وكانت الساعة قد قاربت الخامسة فغسلت الاواني التي اكلت فيها هي والكلب والديك ثم استأنفت الجلوس الى الراديو . وكان فريد الاطرش يغني وهي تحب اغانيه وتغنيها احياناً ولكن بعد ان تحور في انغامها وكلامها فتصبح وكأنها من اغاني مطلع القرن .

لولا الراديو لماتت اديل مللاً ، ولكنها في تلك الليلة عوضت عن صبرها خيرا ، فدق جرس الباب . واديل تكتفي في البيت بلبس القميص اقتصاداً ، وقبل ان تفتح شراعة الباب لترى الطارق تضع « بلوزتها » حتى تخفي ثدييها المهلولين المطلين من فتحة القميص . فلما رأت القادم ابن عمها تهللت ورحبت وفتحت له الباب واسرعت الى حجرتها تكمل الطقم بلبس الجونلة .

وحجرتهما هذه لا مثيل لها الا في كتب دستوفسكي . فهي مظلمة دائماً ، لها بابان احدهما لا يفتح ابداً ، والثاني يفتح مواربة ضيقة لتنفذ منها ماري ، او اكثر قليلاً لتنفذ منها اديل ثم يقفل سريعاً خلفهما . وفي الحجرة سريران ، تنام ماري واديل في واحد والكلب في الثاني ، وفيها صوان فيه ملابسهما القليلة ، ومنضدة وكراسي قماشها مهلهل وعلب من الكرتون ومن الصفيح واشياء اخرى كثيرة لا حصر لها .

وقضت اديل سهرة ممتعة مع ابن عمها حدثته فيها عن كل شيء حتى لم يبق شيء فأنشأت تعيد ما قصته قبلاً . واعدت له نارجيلة ولنفسها اخرى ففي مطبخها سبع نارجيلات تحتفظ بها منذ ايام رأس بيروت . وجلس الاثنان يكركران . ثم احضرت ورق اللعب ولكنها لم تبصر بالمستقبل بل لاعبت ضيفها الباصرة والكونكان .

ولما انصرف الضيف وعادت ماري من الخارج كانت اديل سعيدة تغني النغمة التي لا تتغير مهما تغير الكلام :

« ليه تكايدني والله لاكيدك
حرمتني النوم ايه راح يفيدك »

وفي صباح يوم بعد خروج ماري دق بابها طارق ، واسرعت اديل الى بلوزتها ثم الى الشراعة فوجدت رجلاً زائغ النظرات كثير الشبه باللصوص أخبرها انه يريد تعليم ابنته الخياطة ، فادخلته واجلسته على اقرب مقعد للباب . واخذت تقرظ مهارة ماري وتتحدث عن شهاداتها التي عليها ختم الحكومة وعن الخياطات البارعات اللاتي تخرجن على يديها من الجامعة الاميركية . وسألها الرجل عن الاجر الذي تطلبه ولكنها كانت تلاحظ نظرات عينيه فبدلاً من ان تجيبه سألته :

– لماذا تتطلع حولك ؟

فقام الرجل وانصرف بعد ان وعد بالعودة . ولعله لم يجد في الحجرة ما يستحق أن يتطلع اليه ، او لعله كان يعلم ان الجامعة الاميركية لا تخرج خياطات ، فانه لم يعد ابداً .

فلما قصت على ماري قصته غضبت غضباً شديداً وسألتها :

– لماذا حادثته ؟
– كيف ؟ هل اجلس امامه خرساء ؟
– يظهر انك طلبت منه اجراً عالياً !
– يعلم الله لم احادثه عن نقود ابداً .

فتصرخ ماري :

– لماذا تتدخلين في شؤوني ؟
– عيب يا ماري .
– هل انت الخياطة ام انا ؟

واخيراً لم تحتمل اديل فهربت منها الى الشرفة وهي تصرخ .. دخيل الله يا ماري . وطاردتها ماري الى الشرفة . ثم الى المطبخ واديل تفسر

امامها وهي تصرخ والكلب بين ارجلهما ينبح .

كانت ماري بارعة في انتهاز الفرص للانتقام من اديل لطفولتها التي ملأتها بالرعب، وانتهى الامر بأن اصبحت اديل تخاف من ماري التي قوى من ساعدها انها اصبحت عائل الاسرة .

ولكن ماري كانت بدورها تخاف من فيدو . تخلع الحذاء من قدمها وتصرخ فيه :

– يا كلب .. يا ابن الكلب .

ولكن فيدو بدلاً من ان تذله هذه الحقيقة يكشر عن انيابه ويزوم فتسرع بلبس حذائها وهي تستغيث بأديل في صوت متخاذل :

– سيعضني !

– أتركيه وشأنه !

فيشمخ فيدو برأسه ويبرطع في البيت ، يرفع رجله اليمنى ويتبول حيث يشاء ويتمدد على الاريكة بمفرده . ولكنه كان يخاف من رابعهم كوكو الديك ، الذي ينقر كل من يقترب منه . وهكذا قبعت اديل في ذيل السلسلة التي يتصدرها الديك .

***

وحل اليوم الذي تعطلت فيه ماري عن العمل فلم تخرج في الصباح . جلستا متقابلتين تنظران الى حيطان الحجرة ، ثم لم تحتمل اديل الموقف وانهارت اعصابها فصرخت :

– يا رب ... يا الله ..

واسرعت ماري الى حجرتهما وعادت بسيجارة ونصحت اديل .

– اشعلي النارجيلة

ومضتا تدخنان في انتظار الفرج فاستنفد التنباك والسجائر ما بقي معهما من قروش .

وكان من عادتهما ان تقضيا يوم الاحد عند اخيهما الاكبر . فلما عادتا من عنده ذلك الاحد اسرعت اديل الى حجرتها فبحثت هنا وهناك حتى عثرت على حبات الاسبرين فابتلعت حبتين وتمددت على الاريكة مغمضة العينين .

كان كل ما تبقى معهما فرنكين دفعاها اجر الترام الذي اقلهما الى بيت اخيهما . وبعد ان اكلا الملوخية التي وعدتهما بها زوجة اخيهما منذ الاحد السابق ، جلسوا جميعاً يدخنون النارجيلة .

قالت اديل لاخيها وهي تقلب امامه كيسها الخاوي :

– اخي ، ماري بدون عمل منذ اسبوع وكيسي خاوي ليس فيه ليرة ولا نصف .

– وماذا تريدين مني يا اختي وانا صاحب اولاد ؟

فبكت اديل بحرقة :

– وانا يا اخي ليس لي عائل ولا مورد ولم أتزوج من اجلك انت واخيك .

– انا موظف حكومة يا اختي واولادي اربعة في المدارس والدنيا غلاء .

وبكت اديل ثانية حتى اصابها صداع ، ليتها تموت وترتاح ..

وقطب الاخ وجهه وسهم يفكر وهو يكركر بالنارجيلة ، هل يعطيها .. ؟ .. وكم يعطيها .. ؟

– خذي يا اختي ورقة بعشر ليرات ، والله لولا الغلاء ...

وفي اليوم التالي دبت الحياة في المطبخ ، الموقد مشعل واديل تصرخ

– ماري الحقيني .

وكانت ماري في حجرتها تقلب في محتوياتها العجيبة :

– ماذا تريدين مني ؟

– الحقي الرز .

وطارت ماري الى المطبخ وهي تصرخ :

– ما به الرز ؟

وانهمكت الاثنتان في طبخه ، واحدة تقلب بالملعقة والثانية تخبط على الصنوبر الذي يشح بمائه ، ثم صبتا الماء على الارز فارتفع صوته وتعالى بخاره وملأت رائحته المطبخ وارتاح بالهما ..

ثم نفدت الليرات العشر وعاد المطبخ الى وحشته واديل الى ورق اللعب تبحث فيه عن مخرج وتخاطب نفسها وهي ترص الورق وتعيد رصه بعد اربع نقاط .. اربعة ايام او اربعة اسابيع او من يدري ... اربعة اشهر .

– ابصقي من فلك على هذا الفال ...

ولكن ازمتهما حلت قبل الايام الاربعة فجأة وبشكل موقت .. حياكة خمسمائة علم ملون لتزيين شوارع بيروت بمناسبة زيارة ضيف هام .

ورابطت اديل امام ماكينة الخياطة وذراعها لا يكف عن الدوران طيلة النهار ومعظم الليل، وكأنما تريد ان تثبت انها تصلح للعمل وقادرة عليه ، لا تترك مكانها الا عندما تشتد حاجتها الى دورة المياه .

وماري تهرول بين البيت وصاحب العمل تسلمه ما جهز منه وتستلم منه الخيوط والقماش المقصوص . وفي استعجالها سقطت اثناء نزولها من على السلم وتدحرجت الى اسفله وقامت تنفض الغبار عن ثيابها وتضغط على ركبتها التي اصيبت وهي تعض على شفتها .

ولشدة تعبهما التهب حلق ماري فربطته بمنديل اسود وانفك معصم اديل من ثقل يد الماكينة فشدته بقطعة من الصوف واستمرتا تعملان. وحتى لا تستهلكا كثيراً من الكهرباء اشعلتا شمعة تسهران الى الثالثة صباحاً على ضوئها . وفي اليوم الاخير كانتا تشتغلان بغل وفي صمت ... اما ان تهزما او تنتصرا وتسلما الاعلام في موعدها .

كل هذه الضجة والاندفاعات والانفعالات وفيدو راقد على اكوام القماش الملون يبصبص بذنبه...

وفي يوم الاحتفال لبست ماري فستانها الاسود الذي يزيد من نحافتها، ولبست اديل فستاناً ابيض به ورود من حجم رغيف العيش مما يزيد من سمنتها وربطتفيدو شريطاً احمر في عنقه وسار ثلاثتهم كأنهم ذاهبون الى عرس .

وقالت اديل لماري والكلب يسير بينهما :

– كل رئيس بلد له علم خاص، فعندما يأتون لزيارتنا نزين لهم الطرق باعلامهم .

ونظرت ماري امامها وتنفست عميقاً ثم قالت في امل :

– سمعت ان ثلاثة رؤساء سيزوروننا في الشهر القادم ...

ولما وقفتا على الرصيف بين الجماهير المتجمعة لتحية الضيف لم تكونا تتطلعان الى الجهة التي ينتظر مجيئه منها ، بل الى اعلا ... الى الاعلام التي تخفق مع النسيم .

اسما حليم

الرسائل المحترقة

ومضيتُ أمس .. على جناح الذكريات
ورؤى المساء ..
كانت معي ..
ونوافذ الليل العميق ..
متفتحات .. !

***

ووجوه أحلامي الحزينه
ورسائلي .. كانت سجينه
تحت اللظى ..
ولهاثها المحموم في لهب السعير ،
أوجاع زنجي أسير . !

***

هذي الخطابات المزوقة اللعينه
تحت الرماد
جثث مهينه
خلطتْ دماء غرامها .. بدم الحريقْ !

***

ورأيت وجهك .. من خلال الذكرياتْ
عبر اللظى .. « بادي الشحوب » ..
في مأتم الحب الكبير ..

***

بالأمس .. وجهك كان ممتقع العيونْ
وانهار في قلبي الكسير
حبي الكبير ..
وهتفت في يأس مرير :
لا تحقري مجد الفقير
لكنني أبصرت في عينيك زوبعة تثور
ورماد إعصار سجين ..
وعلى الجفونْ
غضب أسير ..
غضب الغني على الفقير .. !

***

لا تخجلي .. فأنا فقير ..
لكنّ قلبي .. فيه أشواق الحياه
فيه المحبة .. والصفاء
كنز الحياه .. !

***

ولويت وجهك .. في احتقار
فلعقت أحزاني الجريحه
ويدي تصلصل في القيودْ
ومضيت منطفىء الضمير
فنبشت مقبرة العبيد
وغرقتُ في حزن النهار

***

لا تحزني .. فغداً أعود
كما يعود الاغنياءُ
ويطل وجهك من بعيد
كالنور مبتسم الضياء
كالياسمينْ
كالزنبق النديان يعبق في المساء
كحمامة بيضاء ترتشف الربيع
على الغصون . !

***

لا تحزني ..
سأبيع أيامي لمصّاصي الدماء
وأعود مغبرّ الضمير
أعود مثل الكاذبين
الساقطين .. على الدروب
صرعى .. كأوراق الخريف على القبور
ما زال « هولاكو الجديد »
يهب الحياه
يهب النضار
للطامعين الادنياء

***

وغداً .. أقرقر مثل اوراق الخريف
الشاحبات على الطريق ..
ويدوس « هولاكو العظيم »
جسدي .. وتسحقني خيول الفاتحين .
سأعود مخضرّ الثار على طريق الظالمين
فلقد شربت مع المساء ...
شربت دمع الكادحين ...
وبقيت ألعق من دماء الآخرين .

***

سأعود منتفخ الجيوب
كالادعياء .
الساقطين على دهاليز الشتاء !

***

ويموج طوفان اللهيب
فيطل سطر من دماء غرامنا
ويسيل في قلبي الجريح ...
فأرى دمي ... وأرى دماء الآخرين
فوق الغروب على ازاهير الشفق
وغدي البعيد ...
أراه من قمم الغيوب على الافق ...
متبسماً فوق الشفاه ...

***

وأرى قيودي في اللهيب
وأحس دمدمة الحياه
كصراخ أجيال سجينه
نفضت مسامير القيود . !

***

ويقرقر اللهب العنيد
على رسائلك اللعينه
وتطل بسمتك الحزينه
وتئن اوراق الخريف
وتنام في سجن الرماد
جثث مهينهْ
جثث الخطابات المزوّقة اللعينه
ويغيب وجهك في طريق الذكريات !

القاهرة — **محمد فوزي العنتيل**

الموسيقى بين الموضوعية والذاتية

بقلم أمين معلوف

لست ادري اذا كانت الالحان التي نسمعها بقصد او بغير قصد تفعل في نفوس الآخرين ما تفعله في نفسي ، فانني لا اكاد اسمع لحناً يعجبني من الموسيقى الخفيفة او قطعة من رفيع النغم الكلاسيكي حتى يستهويني ما في تلك الالحان من معاني الجمال والتشويق فأروح ارددها فترة من الزمن وانا مشغوف بها مفتون بسحرها. لكن شأني مع تلك الالحان كشأن الرجل الذي يقبل على شيء من اشياء الحياة يروقه ، ثم لا يلبث ان يمله بعد ان يستمتع بحلاوته فيطرحه جانباً. وهكذا اتخلى عن الحاني الاولى التي تكون قد عمرت نفسي وبيتي وما حولي مدة لأعود، فآخذ بالحان جديدة ما تلبث هي بدورها ان تتلاشى . وبعد الروية والاختبار، وجدت ان تلك الالحان لم تزُل من خاطري كما كنت اظن، بل هي في ذاتي مختبئة لا تتيقظ الا اذا صادفت محركاً يشعرها بوجودها ويفتح لها كوى تطل من خلالها على اسلة اللسان او على رؤوس الأنامل . فالطبيعة في فصولها الاربعة مملوءة بالالحان تحث الانسان على الغناء وتغريه بانغام شتيتة شجية. فللصيف انغامه وللشتاء الحانه وللخريف وللربيع اصواتها ايضاً . والطبيعة هي المحرك الاساسي لما في النفس من شحنات صوتية، وهي بتأثيرها على المزاج تجعل من الانصات الى الانغام الموافقة لطبيعة الحال امراً مفروضاً .

وللشباب ايضاً الحانه كما للكهولة وللشيخوخة الحانها. ولشتى الاحوال النفسية من فرح وبهجة ، وأسى واكتئاب، وفراق ولقاء ، ووداع واستقبال ، وهدوء وصخب ، وانسانية مفعمة بالحب ، واثرة وكلف بالذات ، حظ وافٍ من الانغام المستفيضة المعبرة. على ان الطبيعة هي المنظمة لتلك الالحان تبعث منها ما يوافقها وتلجم بعضها عن الظهور، وذلك بتأثيرها على الانسان من حيث لا يدري . من هنا يمكننا ان نعلل فكرة تلاشي الالحان بأنها ظاهرة طبيعية، وان ما نسميه نسياناً هو في الحقيقة خمود وقتي وانصراف ذهني من شيء الى شيء ولا بد ان تعيده الى الاثر المهمود ظواهر الانسان والطبيعة .

وللتدليل على عنصر المزاج في تقييم الاثر الموسيقي اقول بان النغم الذي تحتويه مثلا قطعة « اضواء المسرح » يذكرني بالفترة التي انعم بها تحت دفء الشمس على الشاطىء الموار في ايام الصيف ويعبر لي اعمق تعبير عن فكرة البحر والسابحين والسابحات اكثر مما تعبر لي قطعة « البحر الهادىء» للموسيقى مندلسون التي الفت خصيصاً لتكون المعبرة دون سواها عن موضوع البحر وما يتصل به من بعيد او قريب .

ويتساءل القارىء بعد هذا باستغراب عن الوحدة القائمة في الموضوع بين قطعة « اضواء المسرح » والبحر ، فيجد ان ليس هنالك وحدة ولا انسجام وان الفرق الذي بين البحر والمسرح لأعسر من ان يوحد في لحن من الالحان . ومع هذا استطيع ان اشرح الدافع الذي يقرب لي البحر عندما استمع الى « اضواء المسرح » بالفكرة التالية : ان التلازم بين الموضوع الموسيقي وبين مطـابقه على الواقع لا يفي بالغرض الذي من اجله يقع التوافق الذهني ، بل التوافق منوط بواقع الانسان ومزاجه وليس للموضوع المنغم ولمطابقه اي تأثير في حصوله . ومعلوم ان التلازم بين موضوع قطعة «البحر الهادىء» والبحر الذي هو مطابقة على الواقع قوي جداً ومع هذا اتلمح فكرة البحر من خلال « اضواء المسرح » لانني سمعت هذه القطعة وانا على الشاطىء . فواقعي المؤيد بالحواس هو الذي جعل التوافق يتم لقطعة لا تـلازم بين موضوعها ومطابقه على الواقع .

ومهما يكن من شيء فان تلك الظاهرة لا تكون دائماً مسلماً بها على انها التعليل الصحيح لائتلاف الالحان في الخاطر، ذلك ان الاخذ بها سيؤدي حتماً الى اسقاط العنصر الموضوعي في الموسيقى، وهذا مـا لا يسلم به متذوق. فالموضوعية في الموسيقى وخصوصاً الكلاسيكية منها واضحة جلية ، فنحن نلمحها في مقطوعات باخ ، وبراهمس، وتشايكوفسكي بشكل ظاهر بتقيد هؤلاء بالاشكال الكلاسيكية المعهودة. ونكاد ايضاً نتبعها في المقطوعـات التي وسمتها روح الرومنتيكية بالعنصر الذاتي ووشتها باهواء النفس ونزواتها خصوصاً في السوناتا التاسعة «لبتهوفن»، وفي «افتتاحية اوبرون» لفبير ، ونكاد نتيقنها حتى في « السمفونية الخيـالية » لبرليوز ، وفي « ليالي » شوبان ، ومقطوعات فاغـنر . فالموضوعية اذاً ظاهرة حتى في اكثر المؤلفات الذاتية عند كبار الكلاسيكيين.

وانه لمن الغبن بمكان ان نرد دائماً الموسيقى الى محور الذات وان نتصرف بالاثر كما نتصرف بدمية لايشاطرنا قسمتها احد.

على ان العنصر الذاتي له دور مهم في احداث التذوق ، علاوة على انه قد يخرج بالانسان في بعض الحالات عن حدود اللحن ، فيحصل له ما حصل لي في تذوقي لقطعة «اضواء المسرح» على المحيط البحري ، محطماً بذلك اساليب الموضوعية منطلقاً في مجالات لا يحدها قيد . اما دور الذات في أحداث التذوق فواضح عند اغلبية الناس ، ذلك ان الشعور الداخلي يدفع الانسان الى سماع ما ينطبق تماماً على مقتضى الحال ، فعمله اذاً عمل انتقائي بحت يوافق بين المختار من النغم وبين الحالة النفسية المسيطرة . وللدلالة على ذلك اقول انني ما تلهفت الى سماع « السمفونية السادسة » لبتهوفن الا عندما كنت في الجبل في الصيف الفائت والطبيعة هادئة لا يعكر مزاجها الا اصوات الريف المنطلقة في الاجواء العطرة ، فطوفت بالي للحال انغام السمفونية تنطلق بهدوء لا اثر للعنف عليها و كأنها تعدو في مساحب النغم على جوانح الفراشات الملونة . واني ما تشوقت الى سماع «السمفونية التاسعة» لبتهوفن ايضاً الا عندما كنت استشعر الطمأنينة والشمول وينتابني شعور غريب قوامه المحبة ، والرحمة ، والانسانية المثلى . وكذلك حالي مع « رقصة المقابر » لسان سانس ، فانها تطيب لاذني عندما اكون في اسى شديد و كآبة ممضة . اما في حالة الاستقرار النفسي والراحة التامة ، فانني اتحول نحو السمفونيات ذات الحركات الاربع لتسير مع اللحن وانصت بكلية الى التغييرات الآلية ، لا يصرفني شيء عن تتبع الشكل الهندسي ولا يثنيني لحن رئيسي أخاذ عن تقصي التطور النفسي للقطعة. فالسمفونية « السادسة والثلاثون » لموزرت هي خير مثال لهذا اللون من الوان السمفونيات التي تستدعي انتباهاً كبيراً ، وهذا ما لا يتأتى لمن كانت نفسه نقالة تعوزها الوحدة والجمع.

فالعنصر الذاتي اذاً موجود لا مجال الى الشك فيه ، وعمله كما رأينا عمل انتقائي بحت يقتصر على الناحية السلبية دون الناحية البناءة ، وهو يخرج من الانسان ليلاقي الاثر ، بينما يسير العنصر الموضوعي باتجاه معاكس ينطلق من الاثر وينتهي بالانسان . فالموسيقى بحد ذاتها موضوعية صرفة ، اما التذوق الموسيقي فموضوعي ولكن على نحو ذاتي ، وهو بانتقاله من الخارج الى الداخل يتحول من الموضوعية الى الذاتية في ذائقة الانسان .

ولكي يصبح النغم الموسيقي ذاتياً يجب ان يمر الاثر بالطور الموضوعي المعهود . فاذا لم يكن الاثر في الاساس غيرياً لا يمكن ان يرتاح اليه الانسان ويجد فيه بلغته من الفيض الجمالي والتوفيق الايقاعي . اقول هذا وانا على يقين من ان المؤلف الذي يسعى بما عنده من ملكات فنية الى الخروج بالاثر من حدود الغيرية الى الاخذ بموازين ذاتية ظناً منه انه يستطيع بفعله هذا ان يلج مشاعر الغير دون مشقة ، هو مخطىء جد الخطأ ، لان المتذوق لا يمكنه ان يأخذ بالاثر الا بعد ان يزن بميزان المقارنة الابعاد الصوتية والاشكال المعهودة ليقيم بعدها الدليل على صلاحية الاثر او عدم صلاحيته . هذا ما اراد فعله الموسيقي المعاصر سترافنسكي ، فانه نحا هذا النحو الفريد فوفق في بعض الاحيان واخفق في البعض الآخر ، وحسبنا ان نستمع الى قطعته « عصفور النار » لنجد انه كفر بالقيم الموضوعية التي سار عليها اقرانه من مؤلفي اوروبا ، وانه اطلق العنان لنفسه تبني وتهدم في جميع آثاره دون ان يعير اهتماماً كبيراً الجمهور المتذوق الذي راح يعرض بشكل ظاهر عن موسيقاه بعد ان مجتها الاذواق ونفرت منها الآذان . وسترافنسكي في الموسيقى كبيكاسو في التصوير صاحب مدرسة ثائرة تمثل نزوات جيل معين ولكنها ليست لكل جيل .

وهكذا نخلص الى القول ان في الموسيقى وحدة في ما هو موضوعي وما هو ذاتي ، فالحلقة التي تسير فيها الموسيقى واحدة ، ذلك ان ما تفقده القطعة من مقوم موضوعي يكسبه السامع بالمقوم الذاتي ، وهذه هي الحال في الموسيقى الرومنتيكية ، وان ما يفقده الاثر من عنصر ذاتي يكسبه السامع بالعنصر الموضوعي ، وهذا ما نجده في موسيقى كبار الكلاسيكيين . ولكن يجب ان نحتاط من طغيان احد هذين العنصرين على الآخر ، كطغيان العنصر الذاتي مثلاً ، فتفقد القطعة الموسيقية بادرة التقليد والنسج على الاشكال المعهودة فى التأليف ، فلا تتم عندئذ مشاركة ، ولا يتم اخذ ، وهذا ما يحل باكثر مقطوعات سترافنسكي وشتنبرغ . فهما يخرجان بالسامع عن حدود القوانين المرسومة دون ان يكون لهما في نقضها فضل المجددين على الاطلاق .

اميل المعلوف

من أغاني العائدين

"رسالة من لاجيء الى زوجته"

[مهداة الى يوسف الخطيب شاعر النكبة]

عيناك، والمصباح والفجر المخضب والقنابل
ومجازر الدم والحديد، ولون قريتنا [الكئيب
وخيال «فخر الدين» عبر حقولنا، عبر [المنازل
مترنحاً مثل المسيح على الصليب
بشجيرة الزيتون - يا صديقنا - مثل المسيح
وابي، واخواني واشلاء النساء
حمرا تخضبها الدماء
ونضالنا الدامي ... واصوات المدافع
وصراخ طفلتنا، وزحف جيوشهم عبر [المزارع
عبر الممرات الخضيبه
ما زلت اذكرها رؤى حمراً وعينك [يا حبيبه

***

سمراء.. يا لون الصباح البكر في الوادي [الخضيب
يا برعم الوطن الحبيب
يا انت يا زيتونتي الخضراء في السفح الرطيب
ما زلت اذكر وجنتيك
والبسمة الخجلى والوان الحنان بمقلتيك
ايام كنتُ على يديك
حرّان يصهرني لهيبي

***

سأظل احلم (يا وفاء) بمقلتيك وبالليالي
وعرائش الكرم الندية والخمائل والزهور
وغناء فلاح صغير
في حقله الزاهي النضير ...
(افديك بالدم يا بلادي
يا غابة الزيتون يا ارض البطولة والجهاد
روحي فدىً لك يا بلادي)
ومع الصباح اذا اطل عليك يا بنت الصباح
زهوان بالانداء، بالنسمات طافحة العبير
أو تذكرين مع الصباح
من كان يهزأ بالجراح ؟

***

لا شيء يا انشودتي... لا تيأسي فغداً نعود
ونعيش رغم الطامعين فلا تفرقنا حدود
ولنبنينّ من الجماجم
وتراب قريتنا الخضيبه
بيتاً على اشلائهم .. بيتا لطفلتنا الحبيبه
لا تيأسي فغداً نعود
ونعيش رغم الطامعين
بارضنا ارض الجدود .
وحياة عينك (يا وفاء) لاضفرنّ من الوفاء
ومن الشقيق الاحمر القاني كالوان الدماء
ومن الزنابق والسنابل
وزهورنا عبر الحقول
تاجاً لمفرقك النبيل

***

ماذا؟.. أأنسى جرحك الدامي وبسمتك [الرقيقه
ويداك ترتجفان والمصباح يخفق في شحوب
وقذائف الموت الرهيب
عبر المزارع والدروب
يا انت يا أبهى رفيقه
انا لست انسى بسمة شدت جراحاتي

***

قولي غداً للثائرين اذا اغتلت آلام حاقد
وتكاتفت همم الرجال وزمجرت نار [السواعد
وتفجرت حمم البطوله
حمم الشباب الثائرين
قولي لهم «آن الاوان
يا فتية الوطن المهان»
وغداً وبعد غد اذا عصف الحديد
في افقنا الزاهي الجديد
وتعانقت زمر الفدائيين يغمرها الحنان
ويشدها شوق الى الوطن المهان
شوق سيعصف بالرزايا
بالراقصين على اللظى والشاربين دم الضحايا
قولي لهم (في الشرق ساعد
متمرد العضلات حاقد
ما زال يهزأ بالجراح
لهفان يرتقب الصباح
فتفجروا آن الاوان
يا فتية الوطن المهان)

***

مازلت ارتقب الصباح هنا واحلامي وبأسي
ويداي والغل الثقيل،
وارادتي والفأس والسكين والحقد السجين
(باسم الحياة وباسم قومي باسم عالمنا الجديد
يا اخوتي يا ثائرين
الفجر يوميء من بعيد.. من بعيد
بين المآذن والضباب الفجر يوميء من بعيد
سأحطم الغل الثقيل وانتحي صوب الضباب
صوب المآذن والقباب
هيا بنا يا ثائرين
يا فتية الوطن الطعين)

***

الفجر يوميء يا وفاء فضمخي بالطيب بيتي
وترنمي باسم الطفولة يا حبيبة باسم بنتي
(ترعاك عين الله نامي
يا بسمة الغد في ذرانا
الفجر يوميء والرجال رجالنا بدم الضحايا
بين القذائف والحرائق والرصاص:
يتلمسون طريقهم عبر التلال الى ربانا
يا بسمة الثوار نامي
يفديك سفاكو دمانا)
الفجر يوميء والرصاص واصدقائي اللاجئون
والجوع والتشريد والشرف المهان
الحقد والشرف المهان
وحناجر الثوار خلف قلاعهم خلف [الحصون
(يا امنا غداً اللقاء
سنعود والفجرَ المخضب بالدماء
يا انت يا ارض الجدود ...
مع الصباح غداً نعود
فلا حدود ... ولا يهود)

الكوت (العراق) **محمد جميل شلش**

فتاة في المدينة !

قصة بقلم محمد ابو المعاطي ابو النجا

لا ... ليس ما تحس به هو انها تكاد تغرق . فالاحساس بالغرق حاد ولكنه قصير ، ينقذنا منه ذلك الموت الحاسم الذي يتسرب الى الجسد مع المياه من الفم والانف والاذن . ومع ذلك فقد كان الاحساس بالغرق هو اوضح مايمكن ان تعبر به عما تحسه . فقد كانت تشعر ان الاشياء من حولها رطبة كالمستنقع ، وان قوى هائلة تتجاذبها كالموج ، وانها لا تكاد تملك امر نفسها كالغريق ...

***

– تفضلي يا مدموازيل

– وشاعت في الوجه الصغير موجة من الكبرياء الحانقة . وظلت واقفة ، وبهزة رأس خفيفة متمنعة فهم الشاب ان الآنسة ترفض ان تجلس في المقعد الذي تركه من اجلها ، فعاود الجلوس وقد احس بحرج بالغ ، وسرعان ما خبأ وجهه بين صفحتي جريدته كأنما ليقطع الصلة بينه وبين العيون التي احس بها تنظر اليه في سخرية واشفاق معاً ...

اما هي فقد كانت مسحة من العناد تغلف ملامح وجهها الفاتن فتزيده قسوة وفتنة معاً . وبين لحظة واخرى كانت تهز رأسها كأنما لتنفض عنها نظرات الركاب التي كانت تحس بها ثقيلة كريهة كالذباب ...

– القصر العيني ... يا لله ... بسرعة من فضلك ...

وانقطع صوت الكمساري . وهبط بعض الركاب . وخلت بعض المقاعد . كان من بينها مقعد الشاب الذي دعاها للجلوس منذ حين ، ومع انه كان اقرب اليها من اي مقعد آخر ، فقد تركته لتحتل مكانها الى جوار كهل كان يقرأ جريدة الاهرام . واحست بعد لحظات قصيرة ان عيني الكهل تتسللان الى وجهها من وراء منظاره في وقاحة وضعف ثم وقفت العربة فجأه في المحطة التالية ، فأحست بكتفه تصدم جسدها بفعل الوقوف المفاجيء . ومع انها لم تكن محطتها فقد نزلت . لم تعد تطيق العربة ولا الركاب ولا عيون الذباب ولا جريدة الاهرام ... وحين احتواها الشارع احست بنوع من الهدوء يتسرب الى نفسها . ونظرت في ساعة يدها ... لا يزال هناك بعض الوقت ... يمكنها ان تتمشى قليلا قبل ان تذهب لتشاهد حفلة العرض الصباحية بسينما الشرق . وبدون قصد تقريباً ، وجدت نفسها تسير في شارع هاديء نوعاً ما . كانت تكره الشوارع المزدحمة بالناس كما تكره العربات المكتظة بالركاب ولا تدري لماذا عادت الى مخيلتها في تلك اللحظة صورة الركاب وفي مقدمتها صورة الشاب الذي ترك لها مقعده ... وكأنما اسفت لما حدث . كان وجهه ودوداً وأخجله رفضها ... اتراها كانت قاسية ؟ واحست بموجة من الضيق تكتسح نفسها ... كم تكره في نفسها هذا الضعف ... كلهم كلاب ... كلاب ... ولفحت وجهها خفقة من النسيم ، فارتجفت تلك الخصلة المدلاة من شعرها الناعم وومضت عيناها العسليتان ببريق خاطف هو مزيج من الثقة والخوف . لم تكن تخاف شيئاً معيناً ، ولم يكن بينها وبين ذلك الشاب ما يدعو الى الخوف . كان واحداً من هؤلاء الذين تجمعنا بهم المصادفة في عربة او قطار ، ومع ذلك فقد كان يجثم في اعماقها احساس غائم بالخوف ، الخوف الذي يثيره في نفوسنا ... اننا لا نثق بالاشياء التي حولنا ... كانت تحس ان الاشياء من حولها ليست كما تبدو لاول وهلة ... كلمات الناس ... حركاتهم ... بسماتهم ... كل ما يفعلون ... كل هذه الاشياء جدران لا نبصر منها سوى ناحية واحدة ، ويظل في الناحية الاخرى شيء لا يمكن ان نراه . ويبقى ذلك الشيء يثير فينا الخوف الذي يصنع بدوره قدراً من الثقة ... ومع ذلك فهي تذكر جيداً ان هذا لم يكن شعورها حيال الاشياء قبل ان تعرف « فهمي » . كانت قبلها لا تدرك سوى ان للاشياء وجهاً واحداً هو ما تراه العين لاول وهلة ... واصطدمت قدمها بكرة صغيرة من المطاط كان يلعب بها ولدان ... في الشارع ... لا بل ولد وبنت ... لعلهما اخوان ... لا يهم ... وظلت سائرة ... وعادت الى خيالها قصة فهمي ... كانت في طريقها الى المدرسة حين تطوع لها فهمي بمقعده في العربة وجلست شاكرة ، وكان في يده هو الآخر حقيبته المدرسية فحملتها عنه وتبادلا كلمات قصيرة لم تكن تعرفها قبلها . ان هذا الشاب الرقيق الذي ترك لها مقعده يسكن قريباً من منزلها ... لم تكن وقتذاك تفهم للاشياء اكثر من معنى واحد ، لقد ترك لها مقعده وتحدث اليها في رقة وحياها وهي هابطة . ما معنى كل هذا ؟ وفي المرات القادمة لم يترك لها مقعده لانهما كانا يجلسان معاً تحدثه عن مدرسة الرسم ويحدثها عن مدرس الانجليزي ، وتتفرج على كتبه ويتفرج على كراساتها . لقد احبته ولم تكن تحبه وحده بل كانت تحب العربة . والركاب . والمحطات التي تمدها كل صباح وهي ذاهبة الى المدرسة . والكمسارى الابق الذي يتجاهل يدها الممتدة بثمن التذكرة ليأخذ ثمنها منه ... كانا حبيبين ... لا تدري كيف احبته هكذا بدون ان تشعر ؟ كان كل شيء فيه يدعو الى الحب ... عيناه الثرثارتان بما لا يحب ان يسمعه الركاب ، ابتسامته الماكرة حين يلقاها في الطريق مع امها فلا يستطيعان سوى تبادل البسمات ، جبهته السمراء التي يختفي نصفها تحت خصلة الشعر المتهدلة برغمه ، قامته الرياضية التي تكاد تخفيها عن الركاب حين تجلس بجواره ... لون سترته البني الداكن . رباط عنقه الاحمر ، حتى حقيبته ... كانت تحبها ... كانت تضمها الى صدرها كطفل حين تحملها عنه في العربة . لقد كانا يخرجان خلسة في بعض الاحايين ، ويتحدثان عن عبد الوهاب وفريد الاطرش . كانت تحب فريد ، اما هو فكان يتحمس لعبد الوهاب . كان مزاجها يتفق في الافلام فكلاهما يحب عماد حمدي وفاتن حمامه ولم يتحدثا يوماً عن الزواج . كانت تعتقد انه من العيب ان تتحدث فتاة في مثل هذه الشئون . وان الفتاة الكريمة لا ينبغي ان تثير موضوعاً كهذا . كانت تعتقد انه هو الذي سيثير هذا الموضوع في الوقت المناسب ، فهي لم تكن تجهل انه لا يزال طالباً وانها لا تزال صغيرة .. ! ودوى خلفها صوت بوق ومرت بجوارها سيارة انيقة يقودها شاب . كانت السيارة قد هدأت من سرعتها بالقدر الذي يسمح للشاب ان يهمس ببضع كلمات لم تسمعها بوضوح وان كانت فهمتها بصفة عامة واحمر وجهها وتعثرت خطاها ووقفت تماماً حتى تبتعد العربة ماذا يظنها هو الاخر ؟ كلهم هكذا ... كلاب ... كلاب ... لم تكن تعرف ذلك تماماً قبل ان تنتهي علاقتها بفهمي على هذه الصوره العجيبة لم يتخاصما ... لم يحدث بينهما شيء يمكن ان يتسبب في انهاء علاقتها بتلك الصورة القاسية . كانت تظن ان نجاحها في نهاية العام الدراسي يعني بالنسبة اليهما شيئاً كبيراً ... يعني خطوة الى المستقبل الجميل . ولكن الذي حدث هو انه سافر الى بلدته في

الاجازة ولم يعد ... لم يعد حتى الى البيت الذي كان يسكنه فقد سكن مكانه في العام الجديد طالب آخر ... ذهب حتى بدون ان يودعها . بدون ان يفعل شيئاً يجعلها تحس ان كل ما كان بينهما لم يكن حلماً باهتاً لا ظل له ! ماذا كانت هي بالنسبة له ؟ ما كان معنى علاقتهما ؟ انه لم يقل شيئاً ... لم يحاول حتى ان يكذب ..! ومع ذلك فقد ظلت فترة طويلة تعيش في هذا الحلم مغمضة العينين ... كانت تود ان تلقاه مصادفة كما لقيته اول مرة لتقول له انه حقير وتافه، وانها لم تعد تحبه . ولكن القاهرة كبيرة جداً الى الحد الذي لا تسمح فيه بتكرر المصادفات ..! ومع ذلك فقد ظلت تقولها ... تلك الكلمة ..، انت حقير وتافه ... تقولها في صمت، لكل من يحاول ان يترك لها مقعده في العربة ...

— ها . ها . ها

والتفتت نوال خلفها ... كانت هناك شلة من الشبان تقترب ، تسبقهم عاصفة من الضحك

— ماشيه لوحدك ليه ..؟ هو القمر بيطلع بالنهار ..؟ يا ترى انت رايحه لمين ؟ يا هنا الموعود ..!

ولم تعد نوال تميز الاصوات ... واحست كأنها تجر قدميها . كانت مرتبكة . كانت تحس بلذة لا طعم لها ... لذة بغيضة . لم يكن بمقدورها ان تتكلم او ان تقف ... متى سيسكتون ؟ الطريق خالية نوعاً ما وهذا مما يشجعهم ..! ورفعت رأسها حين لم تعد تسمع شيئاً ..! وبلا وعي وجدت اعماقها تتساءل ... اين ذهبوا ..؟ لقد اختلف طريقهم عن طريقها ... الطريق وحده هو الذي جمعهم ... المصادفة وحدها ... انهم لا يعنون شيئاً ... لو ان فتاة اخرى كانت تسير مكانها لما تغير شيء ..؟ وحاولت عبثاً ان تبلع ريقها ... كان جافاً ... وكانت تشعر ببرودة قاسية ... وشحب لونها ... كلهم هكذا ... ومرة اخرى بدأت تحس بالخوف يتسلل الى نفسها في قسوة ... لا ... لا ينبغي ان تخاف ... انها طالبة وحين تفرغ من دراستها لن تكون في حاجة الى احد ... وارتسمت على شفتيها بسمة مرهقة كانت تعبر عن الخوف اكثر مما تعبر عن الثقة ... فعلى حافة المستقبل، في الطريق وفي الترام وفي العربات وحتى في مكان العمل ، كان يتراءى لها اطياف رجال ... يبتسمون دائماً في رقة، وتنساب من شفاههم الكلمات المذبة التي لا تعني شيئاً ... وبدا لها المستقبل رهيباً بدون رجل تثق فيه ... وبدأت تشعر ان المسير في الشارع امر قاس جداً .. لم يكن الشارع خالياً تماماً .. فبعض الفتيات يلعبن على الحبل « النطة »، وتنفرج بعض النوافذ عن حبل تدلى في نهايته سلال صغير يضع فيه بائع الفول الاخضر ما تريده السيدة التي تساومه من الطابق الثالث .. وخادمة صغيرة لا تكاد تبصر الفتيات يلعبن على الحبل حتى تقف قليلاً تتفرج عليهن ثم لا تلبث ان تمضي بما اشترته من البقال قبل ان تشعر سيدتها بتأخرها .. وبجانب الحائط وقفت قطة بيضاء تتمسح بالارض وترمق بائع الفول الاخضر في بلاهة .. اما نوال فقد كانت تبصر هذه الاشياء كلها دون ان تعيها تماماً ..!

***

الظلام يسود قاعة العرض والموسيقى التصويرية تهيىء المشاعر لموقف غرامي تلتقي فيه بطلة الفلم حبيبها بعد غيبة طويلة .. ثم يلتقي الحبيبان . وتغمض نوال عينيها على ذلك المنظر الفاتن وتجتاح اعماقها مشاعر غامضة تستسلم لها في نشوة حلوة . ولكنها لا تلبث ان تفتح عينيها في دهشة . حين تحس ان يداً تلامس يدها .. وادركت في لحظة ان المقعد الذي كان خالياً بجوارها قد جلس فيه صاحب اليد الممتدة .. لم تثر .. لم تنبس شفتها بكلمة واحدة. ولكنها تمالكت نفسها تماماً وسحبت يدها من يده وغادرت مقعدها ... لم تكن تظن ان وجهها قد شحب الى هذا الحد قبل ان تبصره في احد المرايا بمدخل السينما .. وجلست بالاستراحة المعدة للرواد .. كانت منفعلة جداً .. لم يكن بمقدورها ان تواصل السير .. لقد احست بهوان عجيب .. لم يكن يفزعها ما حدث في ذاته وانما — ولم تخجل هذه المرة من مواجهة مشاعرها في صراحة — وانما يفزعها ان يحدث بهذه الصورة .. ان هذا الشاب لا يعني شيئاً .. فهو لا يعرفها .. ولم تكن هي بالنسبة اليه سوى مصادفة سعيدة يشكر عليها الحظ . الحظ الذي جعل مقعدها بجواره .. انه لا يعنيه منها سوى انها فتاة ... فتاة تبهج في حياته لحظة . انه لم يأت الى هنا من اجلها هي .. انها لا تنكر ان اعماقها كانت تحلم بشيء كهذا حين اغمضت عينيها على ذلك المنظر الفاتن ان يكون بجوارها رجل .. تلتصق به وتدفن يدها في يده .. رجل جاء معها، جاء من اجلها ... اما ان يحدث الامر كذلك فهذا ما يثير في وجدانها شعوراً بالتقزز .. بالهوان .. لا .. لن تسلم نفسها بهذه السهولة لمخلوق .. انها ليست شيئاً .. انها .. واحست في عينيها نداوة الدموع وتماسكت قليلاً حين انحنى امامها الجرسون يسألها عما اذا كانت تريد شيئاً . وطلبت كوباً من شراب الليمون. لم تكن تقصد شيئاً معيناً .. لقد ذكرت اقرب شيء الى لسانها .. كانت تريده ان يمضي .. لقد احست بكراهية له .. كان هو الاخر يتكلم برقة زائدة وينحني اكثر من اللازم .. كلهم زائفون .. كيف تعود الى البيت ..؟ النقود التي معها لا تكفي لاجرة التاكسي .. لقد بدا الامر صعباً الى حد كبير . الطريق مليء بالرجال .. والعربات العامة والترام . في كل مكان يوجدون دائماً .. وعاد الجرسون .. وفي يده صينية انيقة فوقها كوب من عصير الليمون .. وكانت وهي تشرب تحس بعينيه المتهوئتين تتلصصان فوق جسمها في فضول، وفي سرعة راحت تجرع الكوب حتى نهايته . وغادرت السينما .. وحين وضعت قدمها في بداية الطريق احست انها تكاد تغرق . لا .. لم يكن ما تحس به انها تكاد تغرق ، فالاحساس بالغرق حاد ولكنه قصير ينقذنا منه ذلك الموت الحاسم الذي يتسرب الى الجسد مع المياه في الفم والانف والاذن ، ومع ذلك فقد كان الاحساس بالغرق هو اوضح ما يمكن ان تعبر به عن نفسها . فقد كانت تشعر ان الاشياء من حولها رطبة كالمستنقع وان قوى هائلة تتجاذبها كالموج وانها لا تكاد تملك امر نفسها كالغريق ..!

القاهرة — **محمد ابو المعاطي ابو النجا**

القصة وحاضر الانسان

بقلم خيري الضامن

حسُّ الحاضر هو الميزة التي ينفرد بها الانسان ، لانه يختلف عن الموجودات الاخرى بامتلائه وعياً فعالاً لحاضره ... وليس معنى هذا انعدام الحاضر لدى تلك الموجودات ، بل معناه انعدام الوعي الفعال لذلك الحاضر عندها . ان حس الحاضر هو الذي يخلق القيمة الانسانية ، ولكن هذا الحس يبعث القلق والاشمئزاز في نفس الانسان في أحايين كثيرة ، ومع ذلك فان هذا الاشمئزاز وذلك القلق لا يخلقان قيمة سالبة كل السلبية ، اذ ان رد الفعل الناتج عنهما عند الانسان هو ما يشكل جانباً من قيمة ايجابية لها كثير من الاهمية .

ان القيمة الفعالة التي يخلقها وعي الحاضر وادراكه تتضح في عمل ذلك الوعي على تأكيد وجود الذاتية الانسانية ، ذاتية النوع ، وجوداً مجسماً ذا امتدادات نحو كل الجهات ... ان ذلك ما يلح الانسان في طلبه إلحاحاً كلياً حتى اذا وجده بقي في شوق الى الاستزادة منه ، لكي تحقق لك تلك الاستزادة من الوعي اثباتاً صارماً لوجوده الذاتي .

ان وعي الانسان الحاضر يمكن ان يتهيأ في الحياة العادية والواقعية ، لكن الانسان في كثير من الاحايين لا يقتنع بذلك النوع من الوعي فهو يحاول — عن طريق الفنان — وبكل جد ان يخلق وعياً جديداً للحاضر ويحاول ان يسبغ على ذلك الوعي كل مقومات القوة والفعالية .

ويمكن خلق وعي للحاضر الانساني من خلال الفنون جميعها ، ولكن ذلك الوعي يختلف قوة وضعفاً باختلاف تلك الفنون ، اما اكثر الفنون قابلية على خلق الوعي الاقوى فهو فن القصة ، لانه الفن الوحيد الذي يجسم الشخصية الانسانية تجسيماً امتدادياً على نطاق واسع ... ان اكثر الفنون ومن بينها الشعر ، تهتم اهتماماً تجزيئياً بالشخصية الانسانية ، اما الفن الوحيد الذي يهتم بتلك الشخصية اهتماماً كلياً فهو فن القصة .

ان الوعي العادي الناتج عن وجود الحياة العادية هو وعي متوفر لان حياة الانسان العادية مستمرة كاستمرار وجوده الطبيعي ، ولكن الانسان — والفنان خاصة — أبعد ما يكون عن القناعة ، فهو يبحث باستمرارية ملحة عن وعي جديد اكثر امتلاء من الوعي العادي ، تدفعه الى ذلك البحث نزعة تحقيق الوجود وتأكيده عن طريق الوعي الفعال ، وقد لا يحصل الانسان بالبحث المستمر على وعي قوي فيضطر الى خلق ذلك الوعي خلقاً ... وقبل خلق وعي حاضر الانسان ينبغي خلق الانسان نفسه ، وهل يستطيع الانسان — من غير الفنانين — خلق الانسان ؟ وهل يستطيع الفنان — من غير القصاصين — خلق الانسان بأكمله ؟ ان مثل ذلك الفنان لا يستطيع الا تحقيق جزء من الانسان ، اما القصاص فهو الذي يستطيع خلق انسان جديد كامل له حاضر ممكن او فعلي ، ومن ثم لنا نحن — فنانين او غير فنانين — وعي لحاضر ذلك الانسان .

ان الانسان — الشخصية — الذي يخلقه القصاص هو انعكاس تام للانسان القصاص نفسه وللانسان الآخر ، وفي الحالين يكون القصاص مندفعاً — خلال عملية الخلق وبعدها — بسبب الرغبة في خلق وعي الحاضر الانساني ومن ثم تأكيد الوجود الانساني .

قد يُرى ان القصاص — عندما يخلق شخصية انسانية — لا يخلق وعياً يتناول حاضره هو ، وانما يكون ذلك الوعي متناولاً حاضر الشخصية التي يخلقها فقط . ان القصاص لا يخلق وعياً الا ويتناول حاضره هو ، انه لا يريد ان يخلق وعياً يتناول حاضر الآخرين ، فهو لا يريد ان يؤكد وجود الآخرين قدر ما يريد ان يؤكد وجوده هو بالذات . فاذا كانت الشخصية التي يخلقها القصاص انعكاساً تاماً عن الآخرين ، فان ذلك القصاص لا يريد خلق وعي يتناول حاضر اولئك الآخرين على اعتبار فردياتهم ، وانما على اعتبارهم مثلاً للنوع الانساني الكبير ، وعلى اعتبار القصاص ذاته داخلاً ضمن هذا النوع الانساني الكبير ، فالوعي الذي يخلقه ، اذن ، وعي يتناول حاضر القصاص نفسه ، على وجه او على آخر .

ولنر بصورة تطبيقية صحة ما نقول . ان كل النتاج القصصي

في العالم ، على مر الازمان ، ومع ضخامة ذلك النتاج ، يمكن اعتباره بشكل او بآخر نتيجة لنزعة خلق وعي الحاضر الانساني ، حتى تلك القصص التي هي انعكاس معقد للانسان عن طريق الشخصية الحيوانية او شبه الحيوانية ، صادرة عن تلك النزعة ذاتها . ان اقاصيص « ايسوب » و « كليلة ودمنة » و « امثال لافونتين » وكثيراً من اقاصيص «هانس اندرسن» مثال على ذلك . اما قصة « الف ليلة وليلة » وما هي شبيهة به على وجه من الوجوه ، « كالالياذة » و « الاوديسة » وما هو شبيه بها من قصص الخيال المتأخرة ، فهي لا تخرج عن ذلك النطاق مع اختلاف بسيط،هو ان مثل هذه القصص اكثر تطرفاً بخلق الوعي لحاضر الانسان — مع مراعاة نسبية ذلك الحاضر لعصر الانسان الذي تخرج فيه كل قصة من القصص — مما جعل كاتب مثل تلك القصص يخلق اجواء اضافية لتسلية او لايلام شخصيته القصصية ، كما فعل مؤلف « الالياذة » عندما اعطى دوراً كبيراً للآلهة في ملحمته تلك، وعندما جعل هذه الآلهة اداة نصر للشخصية الانسانية مرة، واداة خذلان لها مرة اخرى ، وكما فعل مؤلف « الف ليلة وليلة » عندما جاء بكثير من قصص الخيال المتنوعة في سبيل تسلية بعض الشخصيات الاساسية في القصة .

اذن فكاتب مثل هذه القصص لا يكتفي بخلق وعي للحاضر الانساني النسبي ، وانما يضيف الى ذلك الحاضر تنوعاً وتلويناً كبيرين ، مما يجعل في وعي ذلك الحاضر شيئاً كبيراً من الطرافة والتنوع .

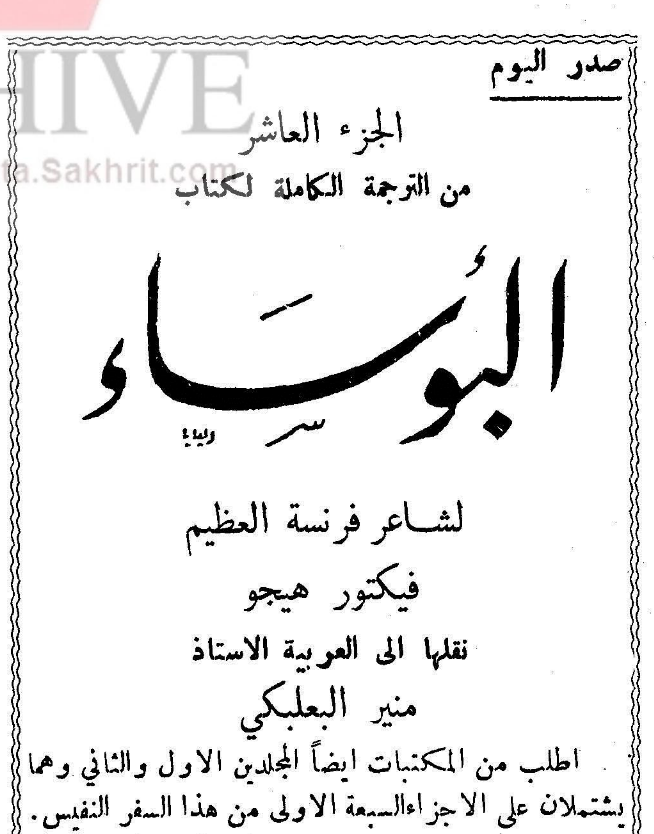
والقصص الحديث ، على اختلاف مدارسه ، يقوم ادلة قوية على اعتبار الدافع الاساسي لكتابة القصة ، هو رغبة القاص في خلق وعي قوي لحاضر الانسان ،اي لحاضره هو ، ومن ثم رغبته في تأكيد وجود الانسان الفعلي — عن طريق وجوده يحس ويأكل ويتحرك — والممكن — عن طريق فكرة تخليد الوجود الانساني بواسطة الاثر القصصي الذي يستعاض فيه عن الانسان الفعلي بشخصيته الممكنة مع كونها نسبية الى زمنها التي خرجت القصة فيه .

ويقوم كالدويل في « طريق التبغ » وشتاينبيك في « فئران ورجال » وفولكنر في « الصخب والعنف » وهمنغواي في « الشيخ والبحر » ، امثلة على القصاصين الواقعيين الذين لا يكتبون القصة الا عن شعور بالحاجة او تحيز — كما يقول اهرنبورغ — الى الوعي القوي لحاضر الانسان .

اما خلال القصص الوجودي فلست تجد اوضح من نزعة الوعي القوي لحاضر الانسان، واذا كنت تعرف ان تلك النزعة لا تعتبر غير دافع للقاص — من غير المدرسة الوجودية — في كتابة قصته ، فهي من خلال القصص الوجودي لا تقوم دافعاً فحسب وانما هي دعوة صريحة تجدها باكبر ما يكون الجلاء في أية قصة وجودية لأي كاتب وجودي . ولا عجب فان الالحاح على وعي الحاضر الانساني هو الاساس الاول للفلسفة الوجودية كلها ، وهل تجد ركضاً وراء تأكيد وجود الانسان وتضخيم ذاتيته بل وتأليهها اكثر مما تجده في الفلسفة الوجودية والادب الوجودي ؟

انك لا تجد عند كامو في « الطاعون » ولا عند سارتر في « الايدي القذرة » ولا عند سيمون دي بوفوار في « الأفواه اللامجدية » اكثر مما تجد من النزعة الى وعي حاضر الانسان وعياً ايجابياً فعالاً .

البصرة — **خيري الضامن**



في الحان... لاجئة

[مهداة الى الشاعرة المبدعة الآنسة فدوى طوقان]

•

كتضرّمي
شفق توشح بالدم
في الافق ، في المنأى المباح المفعم
بالآه، عبر الليل ، قاء عصارة المتجهم !
مرّت على حان الظلام وحولها الندمان صرعى المأتم !
مصفرّة الاجفان، تغرق في الذهول المظلم !
ورؤى الخطايا في العيون الحوّم
اشداق عارٍ ، معرم
وعلى الفم
ألف من اللعنات مرضى ، تستفز صدى السؤال المبهم !
وصديد جوع في الرموش يسح بغي المجرم
وبلا دم ... راحت تحوم ، وترتمي
وتلوذ بالوغد الظمي
وبمعصمي
شدت ذبول الهون والاغلال والامس الملوث بالدم
يا ليت ايامي العقيمة تستغيث وتحتمي
بالعهر ، طوبى للعبيد النوّم
اني هتكت تلعثمي
وتجهّمي
اليوم ، والليل الطويل عزيف حقد المستميت المرزم
مدّي لهم يدك الكسيرة ، فالجناة بمحرم
يتساقطون على بوار المعدم !

ولظى الدم
يصلي جباه المارقين ، وطغمة الفتح الكسيح ، بميسم
مدي لهم يدك الذليلة ، ويك يا بلوى اسلمي
العار لطخ مجدنا ، فتقحمي !
طهر الهياكل ، وارجمي
وترحمي !
انّا غواة... توهم !
ملء الكؤوس نعب سم العلقم
ونذوب من غصص الجراح النازفات ونحتمي
بلهاثنا المسعور ، يجأر في الصدور ، وفي الضلوع ، على الفم
مدّي لهم يدك الندية ، بالدموع وبالدم !
وتضرمي ، أيان يزأر معصمي
ويفل قيد تحكمي
وتبرمي !
عبر الغد المترنم
بالثأر ، مات العارُ ، لا تتجهمي !
سنعود للوطن المباح على النجيع الملهم !
اختاه ، إنا لن نموت ، فزمزمي
بالويل ، واللهب الظمي
ولظى الدم !

بغداد — علي الحلي

زيدون ... الشهيد!

بقلم عثمان سعدي

كشفت جريدة « الاكسبريس » الفرنسية بعددها الصادر في ١٠/١١/١٩٥٥ - القناع عن جريمة قتل قام بها البوليس الفرنسي بالجزائر وذهب ضحيتها شاب جزائري كان قد تخرج سنة ١٩٥٤ من كلية دار العلوم بجامعة القاهرة وهذا ما كتبته الجريدة الفرنسية:

« يبدو ان المغالاة في التنكيل لم تكن في يوم من الايام افضح مما هي عليه الآن في الجزائر منذ عام ، فقد اصبح التعذيب بالكهرباء والغطس في الماء امراً طبيعياً اعتادت عليه السلطات الفرنسية البوليسية في قسنطينة ووهران ضد كل من يشتبه في امره ... وان مثل هذه الاعمال الوحشية سيأتي اليوم الذي تصل فيه الى كل الاسماع ، فتكون فضيحة كبرى لفرنسا امام الرأي العالمي ..

وهناك قضية قتل ، دبرها بعض رجال البوليس من ذوي النفوذ في الجزائر ، وضحية هذه الجريمة شاب جزائري مسلم يبلغ من العمر ٣١ سنة واسمه « زيدون بن القاسم » ، وكان قد القي عليه القبض في ٣ نوفمبر سنة ١٩٥٤ في مدينة وهران ، وكانت السلطات الفرنسية تعلم انه من الوطنيين الذين كانوا في القاهرة ، وظنت انها قد وقعت على صيد ثمين حيث توهمت انه همزة وصل بين الثوار الجزائريين والقاهرة ... وبعد مرور ثمانية ايام قضاها في سجن وهران نقل الى الجزائر حيث سلم لبوليس العاصمة للتحقيق معه ، وما ان وصل الى غرفة التحقيق حتى اتضح لجلاديه ان التعذيب السابق قد افقده النطق ، وبالرغم من هذه الحالة البشعة التي صار فيها جسده عبارة عن قطعة لحم تشبه الجثة الهامدة فقد تداولت تعذيبه المرة تلو المرة ايدي المجرمين الى ان فارق الحياة ... وعندذاك قام المجرمون بتنظيم مسرحية يوهمون بها الناس بأن « زيدون بن قاسم » تمكن من الفرار من السجن ، ولكن المجرمين ارادوا ان يخفوا جريمتهم النكراء فوضعوا جثة الشاب الجزائري داخل زكيبة ، ثم اثقلوها بسبعين كيلو من الرصاص ، والقوها في البحر على بعد ٤٠ كيلومتراً من الساحل ...

ومن سوء حظ المجرمين من رجال البوليس الفرنسي ان رجلاً اكتشف الجثة قرب دلتا (وادي الحميز) وكانت امواج البحر قد دفعتها الى هذا المكان بعد ثلاثة اسابيع.

ولقد تمكن اهل « زيدون بن القاسم » من التعرف عليها ، رغم ما اصابها من تشويه ... »

★

قتلوك يا زيدون ... واثقلوا جثتك بالرصاص ثم قذفوا بها في اعماق البحار بعد ان نهشوا لحمها كما تنهش الكلاب المسعورة جثة بطل انسان ...

لقد ارادوا ان تكون جثتك طعمة للسمك ، الا ان السمك ابى بغريزته البريئة ان يسيء الى جثتك عند ما احس انها جثة بطل .. جثة انسان ... يا عجباً ! يحترم الحيوان الانسانية في رفاتك ، ويدوسها ويعبث بها اخوك الانسان .. يا عجباً ، تضغط غريزة الحيوان على الجوع الذي أمسك به اكراماً لانسانيتك ، ويهينها اخوك الانسان اشباعاً لشراهته ونهمه ..

لقد رموا بجثتك في اعماق البحار لانهم ارادوا ان يحرموا تربة الجزائر الحبيبة حتى من جثتك .. ولم يدر هؤلاء الاغبياء انك اسمى واعز من ان تتخلى عنك تربة الجزائر الحبيبة ، التي ثارت عند فراقك فولولت وانتشت ، وانطلقت ولولتها وأناتها عواصف هائجة الى البحر ، فأثارت امواجه ، واجبرته على ان يتخلى عنك ، بعد ان عشق معناك في جثتك ، واراد الاحتفاظ بك في اعماقه ...

لقد رموا بك في اعماق البحار .. بعد ان اذاقوك ما يذوقه كل حر على يد اعداء الحرية والانسان ، فافقدوك النطق بعد اسبوع من اعتقالك .. ولم تبق الا عيناك ، تشعان بنظرات ساخطة ، وبشرر من اللعنات ، لم تتحملها عيون جلاديك فضاعفوا في تعذيبهم ، وعجلوا في القضاء عليك ..

وبعد ان قتلوك ، بقيت عيناك شاخصتين في وجوههم الكريهة ، ترسلان اشعة ساخرة ، ولعنات محرقة ، وعلت وجهك ابتسامة فيها معنى مزدوج من الاطمئنان والسخرية فيها ما يحسه كل من ادى واجبه نحو وطنه ثم رحل مطمئن البال مرتاحه ساخراً من هؤلاء الجلادين الذين حرموا هذا الاطمئنان .. وبقيت هذه النظرات والابتسامات ، تطاردهم بعد موتك ، فرموا بك في اعماق البحار تخلصاً منها ، لانهم جبناء يا زيدون ، خشوا ان ينقلب جثمانك الى تراب يعمي أبصارهم ، بعد ان تذروه الرياح .. رياح الجزائر يا زيدون ..

جبناء ... قتلوك وانت لا تملك الا قلمك ، والا ثقافتك الانسانية ، ولو خصصوا لك احد كتابهم ليبارزك بالقلم عن شرعية الوجود الفرنسي بالجزائر ، لاسكته بحجتك ولافحمته بسخريتك ، لان الحقيقة هي التي ستعقب جرات قلمك لتدحض اقوالا كلها ظلم ، كلها كذب ، كلها بهتان .. ولو وجدوك

حاملا لبندقية في الجبال لما استطاعوا قتلك لانك في هذه الحالة تصير حاملا للعصا التي يخشاها العبيد الجبناء ...

لقد قبضوا على مصطفى ... يا زيدون ، مصطفى الذي يحبه كل قلب ينبض بالجزائرية .. مصطفى بطل ثورتنا الجميلة ، انهم حكموا عليه بالاعدام ثم خافوا تنفيذ الحكم ، الى ان سنحت له الفرصة ففر من السجن هو وزملاؤه الابطال . أتدري لماذا ابوا تنفيذ الحكم فيه .. لانهم وجدوه حاملا مسدساً : لهذه اللغة التي لا يفهم غيرها الانذال ..

***

وامك يا زيدون .. لقد ودعت الحياة ، وجاءك خبر وفاتها وأنت لا زلت في القاهرة ؛ لقد كانت تتحرق شوقاً الى ذلك اليوم السعيد الذى ترجع فيه الى الجزائر وانت « عالم » .. أتدري يا زيدون .. من هو « عالم » بمفهوم امهاتنا الساذج ..؟ انه يعني « عالماً باللغة العربية » ، لان مقياس العلم عند امهاتنا هو معرفة اللغة العربية ، وليكن الشخص مهندساً او طبيباً ، فانه جاهل في نظرهن ما دام لا يحمل هذه الميزة .. أتدري يا زيدون .. ما يعنى هذا اذا ترجمناه الى لغة الثقافة ..؟ انه يعني ان امهاتنا يفسرن كل شيء بمفهوم الوطنية الساذج عندهن ..

لقد رجعت يا زيدون فلم تجد هذه الأم في انتظارك وأخبروك انها تركت لك هدية . هدية كل ام الى ابنها .. عدة الزواج ، كسوة العروسة .. واثاث البيت .. بيتك المقبل .. اتدري من أين اتت بهذا كله يا زيدون ..؟ انها كانت تحسم بالفرنك من مرتب ابيك البسيط وتشح على معدتها وعلى معدات اخوتك الصغار ، ثم تختلس من الحياة القاسية في كل شهر شيئاً .. لقد كانت تطوف الحمامات في كل اسبوع ، وتشرد بنظرها بين بنات المدينة ، وكانت كلما أعجبتها فتاة اقتربت منها واحتضنتها ثم همست في أذنها بقولها: « انك من نصيب ابني زيدون ... الا تعرفين زيدون ...؟ انه ابني الذي سيرجع من القاهرة - عما قريب - « عالما ». فكانت تزوجك في كل اسبوع مرة حتى صارت خطيباتك تعد بالعشرات ... أتدري يا زيدون ماذا سيفعل ابوك الآن بهذه « الهدية » ..؟ انه سيبيعها ويدفع بثمنها للثوار ، لكي يزفوا به الموت الى جلاديك الانذال ...

القاهرة — عثمان سعدي

رومولو وريمو

قصة لألبرتو مورافيا

ترجمة : ادغار سركيس

ان الجوع لا سبيل الى مقارنته بأية حاجة اخرى . حاول ان تردد بصوت مرتفع : « اني في حاجة الى زوج من الاحذية ... اني في حاجة الى مشط ... اني في حاجة الى منديل » . توقف لحظة لتسترد انفاسك ، ثم قل : « انى في حاجة الى طعام » وعند ذاك تحس حالاً بالفرق . فمهما يكن الشيء الذي تحتاج اليه ، فان في وسعك ان تتأمله ، وتفتش عنه ، وتختاره ، وقد ترفضه في النهاية . ولكن في اللحظة التي تقر لنفسك بانك في حاجة الى الطعام ، فانك تفقد مقدرتك على الصبر ، ويتحتم عليك ايجاد الطعام ، او الموت جوعاً .

في الخامس من شهر تشرين الاول من هذه السنة ، جلست الى حافة ينبوع في حي كولونا ، وقد انتصف النهـار ، وقلت لنفسي : « اني في حاجة الى طعام » . ورفعت عيني اللتين كنت ركزتهما على الارض خلال التأمل في الطعام ، ونظرت صوب (كورسو) فظهرت لي البلدة في حالة تقلقل واهتزاز . كان قد مضى علي اكثر من يوم دون ان ابتلع شيئاً من القوت ، والمرء اذا انهكه الجوع فان اول شيء يحدث له انه يبدأ يرى الاشياء هزيلة مترجرجة ، كما لو كانت هي التي تعاني آلام الجوع . وبعد تأمل طويل قلت لنفسي انه اصبح من الضروري ان اسرع في الحصول على القوت قبل ان تفلت الامور من يدي واصير عاجزاً حتى عن التفكير في الطعام . وشرعت افكر في اقرب السبل الى تحقيق هدفي ، ولكني لم اصل الى شيء ، لان المرء اذا كان في مواجهة امر مستعجل تملصت منه الافكار . وما هذه الخطرات التي لمست فكري غير ضرب من التخيلات الروائية . فقد تخيلت ان اقوم فاقفز الى داخل العربة واسرق محفظة نقود احد الركاب ... واهرب . او ادلف الى احد المخازن والتقط ما في الدرج ... واهرب . واخيراً قلت لنفسي : « ليكن ما يكون ... ان خير ما افعله هو ان اقوم باهانة احد رجال الامن فاعرض نفسي للتوقيف في مركز الشرطة حيث يقدم لي الحساء بصورة دائمة » . وفي هذه اللحظة صرخ صبي كان بجواري منادياً رفيقه : « رومولو » فأثار هذا الاسم في خاطري ذكرى شخص يدعى رومولو ايضا كان قد خـدم الجندية معي . وشعرت بميل الى مجالسة رفيقي القديم والافضاء اليه بطرف من الاكاذيب المضحكة ، كأن اقول له اني كنت ميسور الحـال في قريتي ، وان لم اكن قد ولدت في قرية وانما في ضاحية من ضواحي روما تسمى (بريما بورتا) . وفي الحق ، اني وجدت ان مثل هذه الكذبة قد تنفعني الآن . وكان رومولو قد فتح مطعماً بجانب (البانتيون) ، فقلت لنفسي : لماذا لا أذهب اليه واتناول هناك وجبة الطعام التي انا في اشـد الحاجة اليها ؟ اما عند دفع الحساب فاني سأكشف له عن صداقتنا الودية القديمة واحدثه عن الخدمة العسكرية والذكريات المشتركة ، ولا احسب انه بعد كل هذا سيلجأ الى الشرطة لتوقيفي .

وقبل البدء بتنفيذ الخطة وقفت امام واجهة زجاجية لاحد المخـازن لافحص هيئتي . ومن حسن الحظ اني كنت في ذلك الصباح قد حلقت لحيتي بآلة الحلاقة العائدة لرب الدار . وهو فراش في محكمة كان قد اجر لي الطابق الارضي من داره . والقيت نظرة على قميصي فوجدت انه وان لم يكن نظيفاً حقاً الا انه كان مقبولاً ، اذ لم اكن قد ارتديته الا لمدة اربعة ايام متتاليات . واما البدلة الرمادية فكانت تبدو جديدة ، وقـد كانت هدية من امرأة طيبة كان زوجها الضابط رئيسي خـلال الحرب . وكان الرباط متدلياً فوق القميص ، احمر اللون ، يعود عهده الى قبل عشر سنوات كاملات . ورفعت ياقة قميصي وعقدت الرباط على نحو جعل احـد طرفيه قصيراً جداً والآخر طويلاً جداً ، فعمدت الى اخفاء الطرف القصير تحت الطرف الطويل ، وشددت ازرار الرداء حتى الرقبة . وعندما بدأت ابتعد عن واجهة المخزن ، لاحساسي بان الانظـار شرعت تتجه الي ، شعرت بدوار في رأسي ، واصطدمت بشرطي كان واقفاً على حـافة الرصيف . وقال لي الشرطي : « انتبه وانظر اين تضـع قدميك . هل انت سكران ؟ » وبخطوات متمايلة اتجهت صوب البانتيون .

كنت اعرف العنوان ، ولكني لم اصدق عيني عندما وصلت الى المطعم . فقد كان الباب قبيح المنظر ، يقوم في نهاية زقاق صغير ، وقد استقام بجانبه عدد من البراميل المليئة بالفضلات . وكانت اللوحة المعلقة ذات لون كلون دم البقر ، وقد كتبت عليها هذه العبارة : « مطعم — مطبخ العائلات » . وكانت الواجهـة ذات لون احمر ايضاً ، وان كل ما فيها من معروضات لم يخرج عن تفاحة واحدة . اقول تفاحة واحدة وانا اعني ما اقول ، ولا اقصد الى الهزل . وشرعت القي نظرة فاحصة لأتبين حقيقـة الامر ، ولكني وجدت نفسي اندفع الى الداخل . وما كدت اجـد نفسي داخل المطعم حتى ادركت كل شيء ، ولكن خيبة الامـل ضاعفت احساسي بالجوع . وقد استجمعت شجـاعتي وجلست الى احدى الموائد الاربع او الخمس التي كانت قائمة في الصالة المهجورة المعتمة .

وكانت قطعة قذرة من القماش تستر الباب المؤدي الى المطبخ . وطرقت المائدة بقبضة يدي وصحت : كارسون ! فحدثت حركة في المطبخ وازاحت الستارة القذرة وظهر شبح ثم عاد واختفى ، ولكني استطعت ان اميزه ، فقد كان شبح صديقي رومولو . وانتظرت لحظة ثم طرقت المائدة مـن جديد . وفي هذه المرة اندفع صاحبي الى خارج المطبخ وهو يشد في عجلة ازرار ردائه الابيض العتيق الملطخ بالزيت . وتقدم مني وسألني في نبرة متسرعة مليئة بالامل : « هل من خدمة ؟ » . وقبل ان اجيب : « اريد ان اتغدى » فتح قنينة خمر ووجدت نفسي ملزماً بالشرب . واخذ صاحبي ينظف المائدة بقطعة من القماش ، ثم توقف فجأة وقال وهو يتـأملني : « ولكن ... انت ريمو ...» فاجبته باسماً : « آه ... لقد عرفتني ...» . فقال : « وكيف لا اعرفك ؟ الم نؤد الخدمة العسكرية معاً ؟ الم يكن الرفاق يسموننا رومولو وريمو والذئبة ، بسبب الفتاة التي كنا نشترك معاً في مغازلتها ؟ » . وبالاختصار : الذكريات القديمة المشتركة ! وقد كان واضحاً انه لم يسرد علي هذه الذكريات لتعلقه بي شخصياً ، ولكن لاني كنت في تلك الساعة زبوناً ، وبعبارة اصح ، الزبون الوحيد في مطعمه .

١ نقلاً عن ترجمة فرنسية ظهرت في مجلة Preuves

ولا شك في ان الذكريات تساعدني دائماً على ان احظى بالترحاب .

واخيراً لمس كتفي بيده وقال : « ريمو العجوز ! » ثم استدار الى المطبخ ونادى : « لوريتا » ، فارتفعت الستارة وظهرت امرأة بدينة متمنطقة بمئزر ، تبدو عليها الكآبة والشك . وقال لها مشيراً الي : « هذا ريمو الذي حدثتك عنه كثيراً » . وابتسمت المرأة نصف ابتسامة والقت علي التحية بحركة مقتضبة . ووقع نظري في هذه الاثناء على صبي وصبية واقفين خلف المرأة . واخذ رومولو يتمتم :«حسناً ، حسناً،حسناً جداً» وظل يكرر هذه العبارة كالببغاء ،وهو ينتظر اوامري.واخيراً قلت له:

– رومولو ، انا الآن في طريقي الى روما .. في مهمة تجارية .. ولما كان لا مناص من ان اتناول وجبة الغداء في مكان ما ، فقد قلت لنفسي لماذا لا اذهب الى مطعم صديقي رومولو ؟

– حسناً فعلت . والآن ماذا تريد ان نقدم لك من الطعام الجيد ؟ سباغيتي؟

– طبعاً .

– سباغيتي على زبدة وجبن (بارميزان) ... فان هذا اللون من الطعام خفيف ويسهل اعداده بسرعة . وماذا بعد ؟ « بيفتك » من الصنف الجيد ؟ قطعتين من لحم العجل ؟ قطعة كبيرة من لحم البقر ؟ شريحة صغيرة من لحم العجل مقلية بالزبدة ؟

ولاحظت ان هذه المأكولات التي يقدمها مطعم رومولو بسيطة جداً وفي امكاني شخصياً اعدادها على موقد الزيت.فسألت صاحبي في شيء من الخبث:

– وماذا عن لحم الخروف ؟ هل عندك شيء منه ؟

– آسف .. اننا نعد لحم الخروف للعشاء فقط .

– لا موجب للاسف . هات قدة من لحم البقر مع بيضة ... على طريقة بسمارك

– على طريقة بسمارك ؟ حسناً .. مع بطاطة ؟

– مع سلطة .

– نعم ، مع سلطة .. ولترة من النبيذ .. المعتق .. اليس كذلك ؟

– من النبيذ المعتق .

وعاد الى المطبخ وهو يردد كلمة « معتق » ، وبقيت جالساً وحدي ، ورأسي لا يكاد يستقر في موضعه من الوهن . وبدأت اشعر بدناءة العمل الذي أقوم به ، ولكن تصميمي على انجاز هذا العمل بعث في نفسي شيئاً من الراحة والسرور ، فان الجوع يحمل المرء يميل الى القسوة . وقد خطر لي ان رومولو قد يكون اشد جوعاً مني ، ولكن هذا الخاطر بعث المتعة الى نفسي . وفي غضون ذلك كانت عائلة رومولو بأسرها تتشاور في المطبخ ، وكنت اسمع الزوج يتكلم همساً في شيء من العجلة والقلق ، والزوجة ترد في لهجة تنم عن عدم الرضى . واخيراً ارتفعت الستارة واندفع الصبي والصبية الى خارج المطعم ، وخطر لي ان رومولو لم يكن يملك حتى الخبز في مطعمه . وفي اللحظة التي ارتفعت الستارة استطعت ان ابصر المرأة واقفة امام الموقد تحاول ان تعيد الحياة الى النار الخامدة في الموقد . وخرج الزوج من المطبخ وجلس الى مائدتي ليتحدث الي ويتيح بذلك لولديه الفرصة الكافية لجلب الحاجات المطلوبة . ودفعني الخبث الى ان أسأل صاحبي :

– ارى انك استطعت ان تدير محلاً ظريفاً .. كيف حال العمل ؟

فاجاب منكساً رأسه :

– بخير ... العمل يجري بخير ... طبعاً ، تحدث احياناً بعض الازمات فاليوم ، هو يوم الاثنين ، ولكن ليس في وسعنا ان نخرج للنزهة ، كما هي العادة هنا .

– ارى انك قد ركنت الى حياة الزواج والاستقرار،أليس كذلك؟

ونظر الي قبل ان يجيب . كان وجهه ممتلئاً وعلى شيء من الاستدارة كوجوه اصحاب الفنادق بصورة عامة ، ولكنه كان شاحباً ، ينم عن اليأس ، وقد تكاثف عليه شعر اللحية . وقال لي بعد برهة قصيرة :

– يبدو انك انت ايضاً قد ركنت الى الاستقرار .

فاجبت دون ان ابدي اهتماماً لملاحظته :

– في الحق ، ليس عندي ما اشكو منه .. وان ارباحي في الشهر تتراوح بين مائة ومائة وخمسين ليرة..ولكن يجب ان اقر بان العمل شاق.

– ليس العمل عندنا شاقاً دائماً .

– حقاً .. انكم يا اصحاب المطاعم تقامرون بما ليس فيه مجازفة . فالناس قد يتخلون عن كل شيء الا عن الطعام . وانا اراهن على انك استطعت حتى ان توفر مبلغاً من المال .

وفي هذه المرة التزم الصمت مكتفياً بابتسامة حزينة اثارت في نفسي شعوراً بالشفقة عليه . وقال بعد لأي ، كمن يطلب الشفاعة : « عزيزي ريمو العجوز .. هل تتذكر الايام التي قضيناها معاً في (كايت)؟» واخذ يستعرض الذكريات ، لانه وجد في ذلك ما يصرفه عن سرد الاكاذيب عن مطعمه وعمله ، ولان هذه الذكريات تشكل اسعد ايام حياته ، على اغلب الظن . وفي هذه المرة ثارت في نفسي عاطفة صادقة قوية ، ومنحته الاطمئنان بقولي له بأني اتذكر هذه الايام . وفي الحال ، احس صاحبي بالانتعاش وبدأ يتحدث ويضحك ويضغط على كتفي بين فترة واخرى .

وعاد الصبي الى المطعم يمشي على اصابع قدميه، حاملا بين يديه قنينة نبيذ وملأ رومولو كأسي. واسرع في ملء كأس له حالما طلبت منه ذلك. وقد اطلق النبيذ عنان لسانه اكثر من قبل، وبدا واضحاً ان معدته ايضاً كانت خاوية. وبقينا نثرثر ونحتسي الخمر مدة تقرب من عشرين دقيقة الى ان رأيت، وكأنني في حلم، الصبية الصغيرة عائدة الى المطعم. يالمسكينة! لقد كانت تحمل بين ذراعيها الصغيرتين رزمة قد اسندتها الى صدرها، وبدا لي ان الرزمة تحتوي على قليل من كل الاشياء التي طلبتها. فتلك قطعة البيفتك قد لفت بورقة صفراء، والبيض قد غلف بجريدة قديمة، والخبز قد وضع في حقيبة جلدية بلون الكستناء، والزبد والجبن في ورقة مشبعة بالزيت. ووقع نظري ايضا على السلطة في هيئة كتلة خضراء، وعلى قنينة خمنت بانها تحتوي على زيت. وقد اتجهت الصبية مباشرة الى المطبخ، تبدو عليها ملامح الرزانة وامارات الارتياح، واذكر انها عندما اقتربت منا في طريقها الى المطبخ، اخذ رومولو يتحرك في كرسيه ذات اليمين وذات الشمال، محاولا حجبها عني. ثم ملأ كأسه وعاد يشرب ويتحدث عن الذكريات من جديد. وفي اثناء ذلك سمعت الام تحدث ابنتها في المطبخ بصوت منخفض: «انه لم يقبل ان يعطيني اقل مما اعطانيه». وبكلمة واحدة: احسست بما تعاني عائلة رومولو من بؤس كامل مطلق، يكاد ان يكون اشد فظاعة من بؤسي. ولكني كنت جائعا، فما ان وضعت الصبية صحن السباغيتي امامي حتى اندفعت التهمه دون ان اشعر بوخز في الضمير بل اكثر من هذا: ان فكرة تناول الطعام على حساب اناس بلغوا من الفقر مبلغ فقري قد اثارت الشهية في نفسي. ولحظت رومولو ينظر الي في شيء من الحسد وفكرت في ان صاحبي هو الاخر، ما كان ليسمح لنفسه ان يكثر من تناول هذا اللون من الطعام. وقد خطر لي ان ادعوه الى مشاركتي فقلت له: «هل ترغب في ان تتذوقه؟» فهز رأسه علامة الرفض، ولكني تناولت كمية بالشوكة ودفعتها الى فمه، فأخذ يلوكها ويقول، كمن يحدث نفسه: «فاخر. ليس فيه ما يعاب». واحضرت الصبية بعد ذلك صحناً من البيض والسلطة، ويبدو ان رومولو احس بالخجل من بقائه الى جانبي يحصي علي كل لقمة ابتلعها، فقام واتجه الى المطبخ. وبقيت وحيداً التهم الطعام التهاماً حتى أحسست بالتخمة. وما الذ الاكل عند الجائع! كنت ادفع بقطعة الخبز الى فمي، والحقها بجرعة كبيرة من النبيذ، فامضغها، ثم ابتلعها! وفي الحق، انني لم اشعر بمثل هذه المتعة منذ سنوات طويلة.

وفي ختام الوجبة احضرت الصبية كمية من الفاكهة والحلوى، فطلبت اليها ان تأتيني بقطعة من جبن (البارميزان) لاتناولها مع الكمثرى. وعندما انهيت وجبة الطعام، ارتميت على مقعد الكرسي، ووضعت بين شفتي مسواكاً لتنظيف اسناني. وعند ذاك خرج من المطبخ افراد العائلة بأسرهم واحاطوا بي متأملين اياي كمن يتأمل شيئاً ثميناً. وكان رومولو منشرحاً، بتأثير الخمرة بلا شك، واخذ يقص علي قصصاً عن النساء اللاتي تعرفنا اليهن عندما كنا معاً في الفرقة العسكرية. اما الزوجة فعلى العكس، كانت تبدو حزينة جداً بوجهها القذر الملطخ بالفحم. وحولت نظري الى ولديها فلحظت الشحوب يعلو وجهيهما من قلة التغذية، وبدت عيونهما اكبر من ان تنسجم مع رأسيهما. وتملكني فجأة احساس بالندم، وبالاخص عندما قالت الزوجة:

— لو يأتينا، في كل وجبة، خمسة او اربعة على الاقل من الزبائن الذين هم على شاكلتك، اذن لتحسن العمل.

فسألتها متظاهراً بالسذاجة:

— ماذا، الا يأتيكم زبائن؟

— يأتينا منهم عدد قليل فقط، وعلى الاخص عند وجبة العشاء، ولكنهم فقراء، يجلبون معهم بعض الطعام التافه الخفيف، ويطلبون نبيذا... آه... قليلاً فقط من النبيذ... قدحاً واحداً... واما في الصباح فانني لا اتكلف حتى اعداد الموقد، اذ ليس من احد يأتينا.

ولم ادر لماذا اثار هذا الحديث رومولو، فقد التفت الى زوجته وقال:

— كفي بالله عن هذه الانات والآهات، فانها تجلب الشقاء.

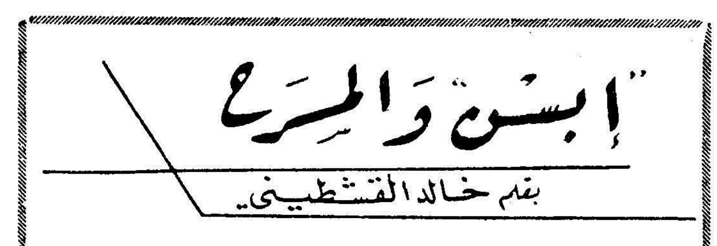
فاندفعت زوجته ترد عليه في شيء من الفظاظة:

— الشقاء؟ انك انت الذي تجرنا اليه... وما انت الا طير الشؤم... انني اجهد اشد الجهد واقتل نفسي من اجل انجاز عملنا، في الوقت الذي تتقاعس انت عن القيام باي جهد وتقضي وقتك في استعراض الذكريات عن الايام التي كنت تؤدي فيها الخدمة العسكرية... فمن هو طير الشؤم اذن؟

كان هذا المشهد يجري امامي في الوقت الذي لم اكن افكر الا في الطريقة التي تساعدني على التخلص من دفع الحساب. ومن حسن حظي ان ثار رومولو اخيراً ورفع يده وصفع زوجته. فما كان منها الا ان اندفعت الى المطبخ واحضرت سكيناً حاداً طويلاً يستعمل لتقطيع لحم الخنزير واشهرته في وجه زوجها وهي تصرخ: «سأقتلك». وارتعب الزوج وانطلق صوب القاعة مصطدماً بالموائد والكراسي. واخذت الصبية تجهش بالبكاء، وذهب اخوها الى المطبخ وتناول مدقة ليدافع بها عن ابيه، او عن امه — لم يكن في وسعي ان اعلم. وادركت ان هذه هي الفرصة الوحيدة التي استطيع فيها ان انجو بنفسي، فقمت عن الكرسي واخذت اقول: «الهدوء... يا للشيطان... الهدوء، الهدوء» وبقيت اكرر هذه العبارة حتى وجدت نفسي خارج المطعم. واسرعت الخطى واستدرت الى جهة البانتيون، ثم بدأت اتمهل في المشي متجهاً صوب كورسو.

نقلها عن الفرنسية

بغداد — ادغار سركيس



إبسن والمسرح

بقلم خالد القشطيني

ما زلنا نذكر تلك الضجة التي اثيرت هذا العام حول مشروع طه حسين في ترجمة اعمال شكسبير . ولعلهم ما زالوا يبدعون آثارهم البلاغية في ضروب السب والشتام ؛ ما اذا كان قد ولد من ينازع شكسبير عبقريته او لم يولد بعد ، ما اذا كانت الجموع العربية ستقتات على مائدة « ماكبث » وتنتشي بخمرة « فولستاف » ام ان حياتها في خزان اسوان وبترول كركوك - زراعة وصناعة وعلوماً . ولكن شئنا أم ابينا ستظهر امامنا ترجمات جديدة لشكسبير وسنبقى نرى ترجمات جديدة حتى يهيء الله لاهل الشأن ان يوحدوا الجهود وينظموا الجهود فلا يطبع « لسان العرب » ثلاث طبعات في عام واحد ولا تترجم « يوليوس قيصر » اربع مرات في فترة واحدة !

وكان من خطايا هذه السياسة ، سياسة « غزارة في الانتاج وسوء في التوزيع » (هذا اذا آثرنا التواضع واعتبرناها غزارة) ، ان تكدست مؤلفات في ناحية من المكتبة العربية وانعدمت اخرى في ناحية اخرى وافلتت شخصيات بكاملها من ناحية ثالثة . وكان من هذه الناحية الثالثة ان افلت الكاتب النرويجي هنريخ ابسن (١٨٢٨ - ١٩٠٦) من المترجم العربي .

وفي الوقت الذي اخذنا نشعر فيه بتقصيرنا في ناحية المسرح ودابت دار العلم على طبع « روائع المسرح العالمي » تجسمت امامي الحاجة الملحة لرفع صوت « الابسنية » في شرقنا العربي ، فلن يكن لمكتبة المسرح ان تكتمل بدون آثار ابسن ولا لدراسة مسرحية بدون فصل وافر عن الثورة الابسنية وانجازاتها في اواخر القرن الماضي .

في عصر كان المسرح يتخبط فيه في تقاليد فنية شاذة ، في ضروب الميلودراما Melodrama والـ Farce والـ Extravaganza ، بحسيات القرن التاسع عشر وعاطفياته وبما يصحب كل ذلك من عناصر المبالغة والتهويل والزيف الاجتماعي ، ظهر ابسن ليعلن وثبة المسرح الحديث بعد ان هضم وامتص فحوى التقدم العلمي وضرورات المجتمع الصناعي وتناقضاته . وما كادت « نورا » تضرب الباب وراءها في « بيت اللعبة » على مسرح بركن هاجرة زوجها حتى دوت اصداء ضربتها في جوانب اوروبا وسادت الثورة شرقاً وغرباً فتلاقفها الكتاب الفرنسيون والالمان وقوض بها شو اسس المسرح الفكتوري واثمرت بدائعها في روسيا على يد جايكوف باشكاله الذهنية والنفسية . ولا عجب أن يدعى بعد ذلك بابي المسرح الحديث .

لكي نتصور فقط مدى الحدث الذي احدثه ابسن علينا ان نذكر انه تناول الموضوع والاسلوب والتكنيك . وعلينا بعد ذلك ان نلقي نظرة على كل من هذه الوجهات الثلاث لنفهم كيف تم كل ذلك .

اما من الناحية الموضوعية فقد هجر كل الموضوعات الفكتورية بقيمها الزائفة ونهاياتها السعيدة ومواضيعها الخداعة (التي تشبه من بعض الوجوه افلامنا العربية) وانصرف الى مواضيع الواقع الاجتماعي بنزاعه ومرارته . ولهذا جاءت معظم رواياته بيتية Domestic تناولت بصورة خاصة تحرر المرأة كما في « بيت اللعبة » وهو الوتر الذي يتردد في معظم رواياته في تلك الشخصية الابسنية الشهيرة : المرأة التي وجدت طريقها الى العزم والتعالي فاخذت تلهم الآخرين كما في ابنة الطبيب في « عدو الشعب » و « ثي » في « هيدا كابلر » . وهي المرأة التي نجد خيوطاً لها في امرأة جايكوف الكادحة المستسلمة حيث نرثي لها دون ان نثور معها .

لم تلق المرأة مطلقاً على يد اي اديب ما لقيته على يد ابسن من الاكرام والانتصار . فمن ام تتعارك دفاعاً عن ابنها « بيير كنت » وافتراءاته ، الى حبيبة تقضي عمرها متغنية منتظرة حتى يعود حبيبها شيخاً ليجد على صدرها الحنان وسر الحياة الذي اعياه البحث وراءه ، الى المرأة الاسطورية التي يهرب الجن من ذكرها صارخين «النجاة! ان وراءه امرأة تحميه».

وتناول بسخرية متئدة بارعة اسس مجتمعه والمتصرفين في مقاديره فهاجم القومية المغالية ، والروح الفردية والرومانسية في « بير كنت » ، والمثالية في « براند » والديماغوجية في « عصبة الشبان » والسلف « الصالحين » في « اشباح » . وعندما مثلت « عدو الشعب » في لندن قبل شهور وفيها هاجم الديمقراطية البرلمانية باكثريتها السادرة وصحافتها المستأجرة لم املك نفسي من ان اصرخ مع البطل « لا بد ان يعرفوا الحقيقة يوماً » وقد ارسل الانكليز المحافظين الى البرلمان باكثرية متزايدة . ولم يكن في كل ذلك بالخائف او المتردد او المراوغ مما اوقع رواياته في معظم البلدان تحت رحمة الرقيب ، حتى لم يجد شو طريقاً لها في لندن غير النوادي .

انتقد النقاد طريقته بكونها سلبية لم ترحم قيمة قائمة ولم تأت بجديد يقوم ولكن الظاهر ان تلك السلبية جاءت كنتيجة لعدم تبلور المستقبل السياسي للمجتمع الصناعي آنئذ ، في بلاده - النروج - على الاقل ، بالشكل الذي نجد فيه البرولیتاريا كقوة حاسمة . قال ان غايته هي ان « ينهض بالشعب ليفكر بنبل » وما اشبه هذا بقول تلميذه شو انه لا يريد ان يقود الجمهور الى تفكير معين بل يريدهم ان يفكروا فقط . كل ذلك يجعل لهذه الآثار اهمية خاصة في شرقنا الحاضر لتقارب همومه من همومنا

ولتناظر مرحلته بمرحلتنا من قريب او بعيد . ولنذكر دائماً ان ما قدمه ابسن الى المجتمع – كما قال شو مقارناً اياه بشكسبير – لم يقدمه اي مسرحي قبله .

غير ان موضوعات الاديب لا تجعل منه حدثاً في تاريخ الادب . انما هو في ابسن التطور الاسلوبي في آثاره مستمداً قواه الدافعة من الدراسات العلمية والسايكولوجية للمجتمع وافراده ومن خبرته الطويلة وراء كواليس المسرح، فجاءنا بتزاوج بين موضوع واسلوب لم يسبق اليه ، جعل من الواقعية محرابه الذي صف حوله الصفوف فشذب الوسائل الدرامائية قاصداً هذا الغرض . فكان أن تخلى عن الحوار الجانبي Aside والانفرادي Soliloquy والحركة الالية الحسية حتى غدا من ضرورات الاخراج الابسني اليوم تحاشي الممثل اشعار الجمهور حتى بما هو مقدم عليه . ويمثل ذلك وصفت الممثلة ايفا كالين صعوبة دورها « هدا كابلر » عندما كان عليها ان تخفي نياتها لا عن خصمها « تي » وحدها بل حتى عن النظارة . وكذلك تحولت شخصية كاتم الاسرار Confidante البدعة التي يركبها المسرحيون التقليديون للاتصال بالنظارة فأصبحت عند ابسن شخصية رئيسية مندمجة بالحبكة نلمس مكانها الرصين في شخصية « كرستين » في « بيت اللعبة » .

وعوض عن تلك الوسائل بمهارة خارقة في الاداء والحوار. وبعد عام ١٨٦٠ هجر التاريخ والشعر نهائياً منتصحاً بنصيحة زميله براندز وليجعل الجمهور يشعر بأن القصة حادثة حقاً كما قال. والواقع ان منحاه هذا في هجر الشعر طفرة مبلورة للتطور التدريجي الذي انتهجه شكسبير في حبيبه الدراماتي في حذلقات Love's Labour's Lost الشعرية المفككة الى تراجيدية « هملت » الرصينة المنثورة . فالاعوام الستة التي احتاجها شكسبير قطعها ابسن في قفزة واحدة .

واذ نسف ابسن كل تلك التقاليد الراسخة كان عليه ان يجد أسساً جديدة قبل ان يتقوض مسرحه امام الاذهان الدارجة على الماضي . وهنا تجلت عبقريته : لم يحاول ان يضع تقاليد جديدة ، حيلاً او فذلكات مسرحية أخاذة، بل صب قلمه على اسس العمل المسرحي : العقدة والشخصية . فكان في غوره الى اعماق النفس مثلاً احتذاه جونسون وجيكوف وشو وكلسورثي ، وان في « هدا كابلر » وحدها معيناً لا ينضب للدراسة من حيث سايكولوجية اشخاصها وعلائقهم الدقيقة مع بعضهم، تلك العلائق التي وصلت حداً من المنظور Perspective لم يسبقه اليه غير سوفوكليس .

والواقع ان من العسير تقديم فكرة عن عبقرية ابسن في حبكاته لمن لم يدرس رواياته . ويغنينا ان نقول انه نفخ روحاً جديدة في التراجيديا اكسبتها حياة بعد موت . وكان ذلك بالباسها ظروف المجتمع الحديث ، فبعد ان كانت القوى الميتافيزيقية تتصرف بالشخصيات الكلاسيكية، اصبحت القوى الاجتماعية والتاريخية هي الحاكم في التراجيديا الابسنية . فما بدأه مارلو بانزال المصير التراجيدي من المستوى الميتافيزيقي الى المستوى الفيزيقي اتمه ابسن بجره الى الارض حيث اليد والمال .

وكنتيجة ايضاً لاتجاهه الواقعي نجد مسرحه عامراً بالاثاث الرزين وطيداً في الاشادة ، محكماً في الاخراج ، لا يكفيه الرمز ولا ما يخف حمله . ولهذا جاءت معظم رواياته ذات مشهد واحد دأب على احكام تصميمه فملأ مقدمات فصوله بالشروح والملاحظات وهي ملاحظات لم تقتصر لذاتها ولا لاعطاء كتبه صفة قصصية ، وانما هي ملاحظات يدرك المخرجون فقط أنى هي واي استاذ وضعها . في مشهد واحد نرى البهو وغرفة النوم وغرفة الدراسة وباب الدار والسلم الصاعد وصندوق البريد دون ان يشعر الممثلون ونحن باي ارهاق او تعثر .

بعد ان عرفنا شيئاً ، ولو يسيراً ، عن اهمية هنريخ ابسن من حيث تأثيره على المجتمع وعلى تاريخ الادب وعلى فن المسرح ، ومن حيث قيمته بصورة خاصة على ظروفنا الاجتماعية المعاصرة ونهضتنا الادبية باعتباره مثلاً احتذاه المسرحيون من بعده وبصفته حلقة الاتصال بين القديم والجديد ، نرجو مخلصين الا يكون هذا آخر عهد القارىء به . فما زالت رواياته تترجم وتفسر وتمثل . ولعله جاء بعد شكسبير في مدى اتساع تمثيله في لندن اذ شهدنا له اربع روايات في اقل من عام . واخيراً فلأقل وأردد قول ميخائيل نعيمة « فلنترجم » .

(لندن) خالد القشطيني

النشاط الثقافي في الغرب

ايطاليا

الجوائز الادبية لعام ١٩٥٥

تقوم مؤسسات مختلفة في ايطاليا بتخصيص جوائز لاجود ماينتج في حقل الادب ، وهذه المؤسسات لا تتسم بطابع حكومي ، بل تتكون من مجموعة من رجالات الفكر الذين يتمتعون بثقة المجتمع دون اي اعتبار المدرسة التي ينتمون اليها ، او السياسة التي يعتنقونها ، فتأتي الجوائز الممنوحة بعيدة عن كل تحيز وحزبية، تنبعث دليلا ساطعاً المرامي التوجيهية السائدة في الثقافة الايطالية .

ان الجوائز التي تلاقي اكبر تقدير هي تلك التي تمنح في « فياريجو » Viareggio حيث احتفل هذه السنة بعيدها الخامس والعشرين . وقد حظي « فاسكو براتوليني » Vasco Pratolini جائزة القصص ، وهو مؤلف قصة « متلو » Metello التي يصف فيها الطبقة العاملة في فلورنسا ، مسقط رأسه في الوقت الذي بدأت تتيقظ فيه باوائل هذا القرن . وقد صور بوصفه المسبوك العمال ومحيطهم تصويراً حياً ، وهذه القصة هي الاولى من سلسلة ثلاثية يحاول فيها تصوير حياة الطبقات الشعبية الايطالية والبرجوازية الصغيرة .

ومنح « اوجانيو غارين » Eugenio Garin جائزة لكتابه « حوليات الفلسفة الايطالية » وهذا الموضوع ليس بغريب على الادب لان الفلسفة الايطالية ، التي سيرها في النصف الاول من هذا القرن ، العبقريان الكبيران « بنديتو كروتشي » Benedetto Croce « وجوفاني جنتيلي » Giovanni Gentile ، شديدة العناية بالجماليات وبالمسائل الادبية .

ويعود ابداع « غارين » في اسلوبه الى انه لا يسرد المذاهب الفلسفية كانها برزت « دفعة واحدة » كاملة البنيان ، من ادمغة واضعيها ، بل انه يرينا اياها متكونة شيئاً فشيئاً اجابة للمعضلات العملية الناشئة من ظروف العصر ومقتضياته ، ولا كمنتوجات صنعها العقل « على البارد » ، بل كمخلوقات حية ولدت ضئيلة الجسم في الهواء الطلق ، فنمت تدريجياً حتى اصبحت كاملة الاعضاء . وبذلك تبدو نتيجة براهين كل مذهب فلسفي في كتاب غارين كما لو كانت الفصل الاخير من رواية مسرحية ، حية في حوارها ، متنوعة ومتلونة في مشاهدها .

وقد اتبع « جوزيبي رافنياني » Giuseppe Ravegnani عين هذا المنهج في كتابه « رجال رأيتهم » الذي نال به جائزة التاريخ ، وفيه يعطينا منظراً عاماً للادب الايطالي الحديث مجسماً في الاشخاص الذين « رهنوا وجودهم في تلك المقامرة الخطرة المسماة بالادب . » على قول اللجنة الحكمة .

وقد خصصت جائزة اخرى لكتاب « اشعار » لمؤلفه « كارلو بتوكي » Carlo Betoechi الذي يتضمن انتاجه من سنة ١٩٣٠ الى يومنا هذا . وهو شعر يجول بين الخيال والحقيقة وبين الرومنطيقية والرمزية ، مجرداً من الاوزان الشعرية المألوفة ، ولكنه متزن ومتين في نظمه ، دقيق في تحديده .

واخيراً فالجائزة التي تمنح لاول كتاب ينشره مؤلف ، قد اصابها « جوفاني روسو » Giovanni Russo لكتابه « اسياد وفلاحون » الذي تناول بالبحث فيه حالات الفلاحين الاجتماعية في جنوب ايطاليا . وبهذا تنتهي سلسلة جوائز فياريجو .

وقد منحت جائزة « ستريغا » Strega لجوفاني كوميسو Giovanni Commisso الذي الف مجموعة من القصص ومنها تلك التي عنوانها « اجتياز قط الطريق » وهي تدور حول خرافة تقول ان ظهور القط فجأة يعتبر من دواعي الشؤم . ويعالج المؤلف هذا الموضوع بسرده المعاكسات غير المنتظرة التي صادفها مع صديقة بعد ان قطع قط طريقهما بينما كانا في سيارة تقلهما الى حفلة تقام في قرية . غير ان هذه المعاكسات ، التي انتهت الى عطل طفيف في السيارة ، والى الصعوبات التي لقياها قبل اصلاح ذلك العطل ، لم تخلق في نفسية المسافرين شيئاً من القنوط والتذمر ، بل انها كانت على العكس بمثابة تسلية مرحة لهما ، لان ذلك الهر بعث فيهما روح الرغبة في متابعة ما يحصل لهما فيما بعد ، فوقفا بذلك موقف المتفرجين . ومغزى القصة ان مصير الانسان ، في مراحل وجوده ، مطابق لما حصل لهذين المسافرين . فحياته غير مسيرة بارادته بل هي عرضة لالعاب القدر الذي يجعل حوادثها كأنها (بلاطات) متداخلة ببعضها بشكل هندسي في مسطح واحد هو الحياة - فينجو الانسان من اليأس الذي قد يصيبه لكونه العوبة في ايدي الاقدار والمصادفات بأخذه موقف المتفرج على احوال ذاته وحوادث حياته .

ان الفن الذي انتهجه « جوفاني كوميسو » قد مكنه من جعل هذه القصة ممتعة بالرغم من ضعف الموضوع وتفاهة بطليه وما احاق بهما من احداث . واقاصيصه الاخرى هي من اللون نفسه ، اي انها عبارة عن احداث صغيرة اذا ما نفذت اليها نظرة عميقة واصابتها عناية قلم انت بمعنى ومغزى . واما انشاؤه فانه يجتنب التعقيد ويسعى للانطلاق والانفلات من كل قيد .

ويتميز كتاب « صبيان يعيشون الحياة » لمؤلفه « بير باولو بافوليني » Pier Paolo Pavolini الحائز على الجائزة ايضاً ، بمين هذه البساطة في الانشاء ، ويقودنا الموضوع الى تلك السلسلة من الافلام الايطالية التي تبدأ بقصة « لصوص الدراجات » اذ يصف المؤلف ايام اولاد الشعب الذين قذفتهم الحياة الى الشارع خلال ايام الحرب الاخيرة ، واثناء احتلال الحلفاء لروما فعاشوا في فوضى من امرهم تتنازعهم الاهواء والنزوات المختلفة .

وقد حلل الكاتب عقلية هؤلاء الصبية بكل ما يكتنفها من ملابسات وتناقضات وصور انتقالهم بلا واسطة من الحنان والغيرية الى القساوة اللاشعورية ومن اختلاجات المراهقين الرقيقة الى وحشية جنسية تمت قبل اوانها ، ثم من « المقالب » البريئة الى « المقالب » المعقوتة ، فالجرائم .

وتجري المحاورة بين ابطال القصة الشبان باللهجة الرومانية العامية ، كما ان الوصف في مجمله قد جاء هو ايضاً زاخراً بالتعابير الدارجة .

ومنحت جائزة اخرى لكتاب « المسحورون » بقلم (ليفيا دي

النشاط الثقافي في الغرب

ستيفاني) Livia de Stefani الذى ينفرد بجاذبية خاصة تجعله يتميز عن الكتب الثلاثة التي اصابتها الجوائز . وهو عبارة عن ثلاث قصص طويلة ابطالها من ذوي الاخلاق والعادات المقاربة للجنون : - فمثلا نرى المركيز « فونتسكا » Fontesecca منزويا مع جميع افراد عائلته ، رغم انه كان فيا مضى من رجالات المجتمع اللامع ، واذ برزت في نفسه نزوة شائكة تمتلكه ، وكأن قد لسمته افعى المرض النفساني ، فتملكه الخوف فتقلص من محيطه وانطوى على نفسه خشية ان ينقل الزائرون اليه جراثيم الامراض المعدية . وكانت ابنته الفتية يموج في نفسها حب التعارف الرائع والرغبة في الزواج ، فكانت تنزل آونة على رغبته وتجاريه في حياته الخارقة للعادة ، وتثور عليه حيناً اخر . ولكنها في النهاية ترضخ لارادته تمسكاً بالتضامن العائلي .

وها هي عائلة « مالاسبينا » المدمنة على الكوكايين تنعم في جنتها المصطنعة التي اصبحت جحيماً بعد ان جعلت الحرب هذا المخدر صعب المنال . - وهكذا تنعكس المأساة العالمية على المأساة البيتية حيث الام والاولاد يتنازعون بعنف لا هوادة فيه ما تبقى لديهم من الانبوبات الصغيرة الحاوية على ذلك المخدر النادر الوجود . وبينما هم في هذه الحال اذ بقنبلة تهبط على المنزل فتدمره وتقضي بذلك على التضحية التي كانت تقوم بها الام وهي تهم باعطاء ابنها البكر الانبوبتين الوحيدتين اللتين كانت تحتفظ بهما لنفسها في صندوقها .

وقد جاء وصف هذه الحالة بليغاً ودقيقاً في عاطفة الام المتقلبة ، وفي الارادة المنهدة ، المنغمسة ، اللاوعية .

وها هي اخيراً المأساة المضحكة التي حصلت « لفوستافو دارو » ذلك الرجل الخشن المسكين المتدين الذي يقع في غرام سيدة حسناء انيقة وثرية . وبينما هو في صراع بين ضميره ونزوته الخجلة المضحكة ، اذ به يعمد الى استعمال اغرب الوسائل لاستمالتها اليه . وقد بلغت ليفيا دي ستيفاني في فنها المشهور بقصصها الثلاث هذه الذروة .

وقد قامت مؤسسة اخرى بمنح الجوائز ليس للادب فقط بل للفنون وللطب ايضاً وهي تلك التي تحمل اسم الكونت جايتانو مارزوتو Gaetano Marzotto الذي يدير ولده مدينة نسج الصوف في (فالدانيو) التي تعتبر مثال المؤسسات الصناعية ، العاملة على راحة العامل ورفع مستوى معيشته . وقد نال جائزة مرزوتو للادب البالغة ثلاثة ملايين ليرة « اردنغو سوفيتشي » Ardengo Soffici الذي يعتبر من ابرز الكتاب والرسامين الايطاليين في عهدنا هذا ، وذلك تقديراً لكتابه « ذكريات حياتي » . وقد ولد هذا الكاتب في توسكانا سنة ۱۸۷۹ وعاش في باريس عدة اعوام زاول خلالها مهنة الرسم ، ثم جاء ايطاليا حيث عمم الطريقة الانطباعية Impressionisme الفرنسية وشرح الطريقة التكعيبية Cubisme ثم تحمس للفوترزم Futurisme ونادى به .

ومع الزمن اقترب (اردنغو سوفيتشي) بادبه وفنه من مثالية المدرسة الكلاسيكية . ولكنه كان دوماً ، بقلمه وريشته ، اميناً لطبيعته المبدعة ثائراً على المجردات والنظريات المقيدة لحرية الفنان . فهو توسكاني حر يتقد حيوية وذكاء ، سريع الخاطر ، عبقري فريد في كل مراحل حياته الفنية .

ومنحت مؤسسة مارزوتو جوائز ادبية اخرى لانا باودي Anna Baudi مؤلفة الحكايات الممتعة النابضة بالحياة ولقصة « الاولاد » لمؤلفها « بيجارتي » Bigiarretti وللجولات الجريئة الجميلة في عالم المستحيل للكاتب « لاندولفي » Landolfi الذي وصفته اللجنة التحكيمية بأنه الكاتب الاكثر حيوية والمنقطع النظير بين روائيينا العصريين .

ولم تغفل الكتب المخصصة للاولاد . فقد منح من اجلها جائزة « فولكو كويليتشي » Folco Quilici مؤلف كتاب « مغامرات في القارة السادسة » وكذلك لم ينس فن الترجمة الذي تميز به « انجلو ربلينو » Angelo Repellino في ترجمته وتعليقاته للشعر الروسي في القرن التاسع عشر .

وقد حصل « فدريكو زاردي » Fedrico Zardi على جائزة المسرحيات من اجل مسرحيته « اليعقوبيون »

وأخيراً أعطيت في نابولي جائزة للرواية أصابها « مارينو موريتي » Marino Moretti من أجل رواياته وقصصه التي لا تزال في الطليعة منذ عام ۱۹۱۰ .

النشاط الثقافي في الغرب

ويمكننا القول ان الجوائز الممنوحة في سنة ١٩٥٥ تدل في الادب الايطالي الحديث على الاتجاهات التالية :

١ – الابتعاد العام عن التصنع والفخامة الكلامية وعن « الاكاديمية » والاصطلاحية .

٢ – تحبيذ الخيالي واللاعقلي والمستحيل ، شرط ان يحذق الكاتب في الباس ذلك كله بألوان الواقع والممكن .

٣ – الاهتمام بالمظاهر والمشاكل الاجتماعية .

٤ – الثورة على التجريد ولو في حقل الفلسفة .

٥ – تراجع المدارس الادبية امام شخصية الكاتب الذي يريد ان يظهر ذاتيته قبل كل شيء .

انكلترا

الانكليز والفن

من المعروف عن الشعب الانكليزي انه غير ميال في مجموعه الى الفنون . ولكن هذه الحقيقة قد تعدلت بعد الحرب الاخيرة ، على ما يقوله التقرير الذي وضعه « مجلس الفنون » وأكده بالارقام . فان قاعة اوبرا « كوفانت غاردن » ومسرح « اولد فيك » ومسرح « ستراتفورد » تقدم اليوم آثارها امام جمهور كبير يظهر حماسة وتفهماً عجيبين . وفي بريطانيا اليوم زهاء مئة مسرح لكل منها فرقته الخاصة ، وهذا ما يساوي ثلاثة أضعاف مسارح عام ١٩٣٠ . ولكن لا بد ان نذكر هنا ان معظم هذه المسارح والدور تنال مساعدة مالية من الحكومة ، ولولا ذلك لاصيبت بخسائر فادحة .

هذا وتمثل الآن على مسرح اوبرا « كوفانت غاردن » اوبرا « اوتيللو » لفردي بقيادة مدير الفرقة الجديد « رافائيل كوبليك » الذي يكشف عن قدرة عجيبة في قيادة الفرقة الموسيقية التابعة للمسرح .

ارقام قياسية

بالرغم من ان الارقام غير قادرة على ان تعطي فكرة صحيحة عن الدرجة التي بلغها شعب من الثقافة ، فانها تعطي دلالة واضحة واتجاهاً صريحاً . وليس من شك في ان انكلترا تضرب الرقم القياسي العالمي في عدد الكتب التي تنشرها . وقد صدر في عام ١٩٥٥ زهاء عشرين الف كتاب جديد بلغ عدد المباع منها ارقاماً خيالية ، اذ هو يتجاوز ١٦ مليون نسخة ، وذلك في الطبعات الشعبية لسلسلتي « بان وبنغوين » . ولا يذهب الظن بالقارىء الى ان هذه الكتب جميعها من الروايات البوليسية ، فهناك عدد كبير من الكتب الادبية والفنية القيمة .

اسبانيا

موت اورتيغا إي غاسيه

اختفى بموت دون جوزيه اورتيغا إي غاسيه Ortega Y Gasset اكبر وجه من وجوه الادب الاسباني المعاصر . فان هذا المفكر الكبير الذي ينتمي الى جيل ١٨٩٨ كان معلم جيلين لاحقين تأثر به تأثراً عميقاً في النظر الى الحياة وتكوين مفهوم فلسفي لها . والواقع ان دي غاسيه ليس هو فقط عالماً تربوياً كبيراً بل هو كذلك فيلسوف ذو اسلوب عالمي . وقد قاده فضوله الذي لا يرتوي الى معالجة مختلف الموضوعات ، وكان همه في ذلك كله ان يرد الى الارض ما شاء غيره ان يحمله الى السماء . وهو يعتقد ان الارض تكفي الانسان . وهو يقول في اشهر كتاب له « ثورة الجموع » ان « القضية هي من الانسانية والبشرية بحيث يعجز الزمن عن التأثير فيها » ويضيف الى ذلك قوله : « إن عصرنا يستسلم لسرعة مدوخة لانه كله سقطات وهبوط » وقد تنبأ بما حصل للعالم كله : سقوط هائل في البدء ، ثم هادىء مؤلم معذب .

وقد أصدر دي غاسيه ابتداء من عام ١٩٢٣ « مجلة الغرب » Revista de Occidente ولكنها لم تعش الى اكثر من عام ١٩٣٦ ، ثم اصدر مجلته « Tertulia » التي كانت مهوى المفكرين والادباء جميعاً ، يناقشون فيها مختلف الموضوعات الادبية والسياسية والفنية .



النشاط الثقافي في الغرب

وقد مات اورتيغا في حالة فقر تقريباً ، واحتفظ حتى آخر لحظاته بوعي وصفاء كاملين . وهو يعتبر في طليعة قادة الفكر في العصر الذهبي الاسباني .

فرنسا

احسن عشرة روائيين

نشرت مجلة « لينوفيل ليتيرير » في عدديها ١٤٧٥ و ١٤٧٦ استفتاء كبيراً سألت فيه عدداً من الادباء الفرنسيين المعاصرين ان يذكروا لها افضل عشرة روائيين فرنسيين في السنوات العشر الاخيرة، اي من ١٩٤٥ الى ١٩٥٥ . وقد كانت النتيجة كما يلي :

هرفيه بازان	Hervé Bazin	٢٥ صوتاً
فيليسيان مارسو	Félicien Marceau	٢٤ صوتاً
ميشال دو سان بيير	M. de Saint- Pierre	٢٤ صوتاً
روجيه نيميه	Roger Nimier	٢١ صوتاً
انطوان بلوندان	Antoine Blondin	١٧ صوتاً
جان هوغرون	Jean Hougron	١٦ صوتاً
روجيه بيرفيت	Roger peyrefitte	١٥ صوتاً
روجيه فايان	Roger Vailland	١٥ صوتاً
بيار غاسكار	Pierre Gascar	١٤ صوتاً
موريس دريون	Maurice Druon	١٣ صوتاً
سيرج غروسار	Serge Groussard	١٣ صوتاً

وقد جرى الاستفتاء حول ١٧٦ روائياً ، ولذلك لم يكن الاختيار يسيراً . وقد استبعدت اسماء سيمون دو بوفوار والبير كامو وسواهما لأنهم بدأوا بانتاج آثارهم قبل عام ١٩٤٥ ، وكان الاستفتاء يشمل الفترة القائمة في السنوات العشر الاخيرة فقط .

معركة الجوائز

اعلنت في اواخر العام الماضي نتائج الجوائز الادبية الكبرى .

وقد فاز النقاد الشاب روبير ماليه Robert Mallet بجائزة النقد لعام ١٩٥٥ على كتابه «ميتة غامضة» Une mort ambigûe وفيه يحاول الكاتب ان ينفذ الى سر الانسان الغامض ، ويدرس دراسة عميقة كلاً من«جيد» و « كلوديل » .

اما جائزة « انترالييه » للرواية ، فقد فاز بها الروائي فيليسيان مارسو الذي يعد واحداً من خيرة الروائيين الفرنسيين المعاصرين . وتدعى روايته الفائزة « اشواق الفؤاد » Les Elans du cœur .

ومنح اندريه دوتيل A. Dhotel جائزة فينا لهذا العام على روايته«البلد الذي لا يبلغ » le pays où l'on n'arrive jamais .

وذهبت جائزة غونكور الشهيرة الى روجيه ايكور Roger Ikor على روايته « المياه المختلطة » Les Eaux mêlées .

واما جائزة رينودو فقد فاز بها جورج غوفي Georges Govy على روايته « حاصد الشوك » Moissonneur d'épines .

هذه هي الجوائز الكبرى التي منحت في اواخر العام الماضي ، والى جانبها عشرات الجوائز الصغيرة ، وكلها تجعل الحركة الادبية في فرنسا ناشطة الى ابعد حدود النشاط ، بفضل ما تثيره بين الكتاب والنقاد والروائيين من منافسة ، وما تبعثه في الاوساط الأدبية من حركة ونقد. والواقع ان السنة بطولها تستغرق الكتاب بحمى هذه الجوائز ، من انتظار وترقب ، الى لهفة وشوق ، الى نقد وتعليق وتحبيذ وتجريح . وقد بدأ الكتاب منذ الآن يستعدون لمعركة آخر العام الجديد ، عاكفين على آثارهم الجديدة التي قد ترفع كلاً منهم الى قمة المجد .

مُناقشات

مكانة ادبنا في العالم

بقلم سليم التكريتي

اين موقع ادبنا الحديث بين آداب الامم الاخرى ؟ وما هو حظه من تقدير المحافل الادبية العالمية ؟ وهل تحدثت اوساط الادب والعلم يوماً عن مؤلف عربي مثلما تتحدث عن غيره ؟

هذه الاسئلة واخرى غيرها تتوارد في ذهني وتصدم تفكيري كلما وصل الى يدي واحد من هذه الكتب الرائعة التي ما فتئت القرائح النيرة في الشرق والغرب توحي بها ويقبل عليها القراء في شتى انحاء المعمورة .

وهذه الاسئلة وامثالها هي التي حفزتني الى ان اعالج – في كلمتي الموجزة هذه – بحثاً لا يستطيع حتى المكابرون نكران خطورته وهو : هل استطاع ادبنا الحديث ان يوجد له مكانة بين آداب الامم الحية وان يبلغ بينها من الذكر ما يهؤه لان يعكس لتلك الامم صورة الحياة العربية الراهنة وخصائصها ، ويعبر عن هذه الحياة تعبيراً صادقاً يصبح معه اداة من ادوات كفاح الشعب العربي في تطلعه الى الحياة الحرة السعيدة ؟

فلقد اجتاز ادبنا الحديث منذ ظهوره حتى الآن مرحلة ليست بالقصيرة اذا ما قيست بعصر السرعة والتطور الوثاب ، ذلك ان هذه المرحلة تمتد اكثر من قرن من الزمن .

على ان هذا الادب رغم ما يبدو من مظاهر تقدمه وازدهاره ، وظهور طبقة من الادباء تمتعت بالشهرة والمال على حساب الادب ، بالرغم من ذلك كله ما يزال الادب العربي الحديث ادباً اقليمياً ضيق الافق لم يستطع اجتياز حدود الوطن العربي ، وشق طريقه الى ميادين الامم . ذلك لان اشهر اديب عربي يكاد يكون غير معروف في الغرب وهو ان عرف فيه اقتصرت تلك المعرفة على نفر ضئيل قد لا يتعدى طائفة المستشرقين . لا اجحد ان بضعة من ادبائنا المحدثين امثال جبران والريحاني وطه حسين وتوفيق الحكيم وغيرهم قد عرفوا في بعض الاوساط الادبية العالمية . غير ان تلك المعرفة لم تتعد حدوداً معينة . فجبران والريحاني مثلاً قد عرفا بآثارهما التي وضعاها بالانكليزية ، في حين اقتصرت شهرة طه وتوفيق على بعض الادباء الفرنسيين دون سواهم .

وواضح ان ترجمة كتب عربية تعد على اصابع اليد الى اللغة الفرنسية او الانكليزية لا يعني ان الادب العربي الحديث اصبح في متناول القراء في العالم على اختلاف لغاتهم ، ولا يعني انه اكتسب بذلك مكانة في الاوساط الادبية العالمية .

والامر الذي يثير التساؤل في هذا الموضوع هو معرفة العائق الذي يحول دون ظفر الادب العربي الحديث بمنزلة مرضية بين آداب الامم الاخرى . فهل يتمثل هذا الحائل في اللغة العربية ؟ ام في الاوضاع السياسية والاجتماعية والاقتصادية المزرية التي تعيش الشعوب العربية في ظلها ؟ ام انه يتمثل في ادبنا الحديث ذاته ، في الموضوعات التي يعالجها ، والصور التي يرسمها ، والانطباع الذي يتركه في ذهن القارىء الذي يقرأه بلغته الخاصة ؟

لست انكر ان الشعوب العربية لا تزال ، رغم استقلالها المموه ، غير متمتعة بالحرية التي كانت تنشدها من وراء كفاحها الطويل الشاق ، وان قيوداً تضاف الى القيود التي تكبلها اليوم كلما امتد الزمن بهذا الاستقلال ، وان الادب العربي – وهو يعكس حياة الامم – لم يظفر بالجو الذي لا يتاح له بدونه أن يعيش ويزدهر ويؤدي رسالته . ولكن هل كان الشعبان الهندي والصيني مثلاً قبل استقلالها لبضع سنوات خلت – ينعمان في ظل الاستعمار البغيض الجاثم على صدريها منذ مئات السنين ، بقسط من الحرية اوفر مما تنعم به الشعوب العربية اليوم ؟ ومع ذلك فقد احتل الادبان الهندي والصيني ، وما زالا ، مكانة مرموقة في عالم الادب .

اما مسألة اللغة فلست اعتقد ان العربية هي العقبة الكأداء الرئيسية في طريق انتشار الادب العربي واشتهاره في العالم . فمع انها تعد اقل اللغات الحية انتشاراً خارج نطاق البلاد العربية ، وحدود بعض الممالك الاسلامية ، الا ان جهل سكان اوروبا وامريكا بها ليس اوسع من جهلهم بالهندية او اليابانية او الصينية بل وحتى الروسية والرومانية والاسكندنافية وغيرها . واذن فبم نفسر شهرة الكتاب الهنود واليابانيين والصينيين في الغرب ، وظفر مؤلفاتهم بصيت حسن مع انهم وضعوا تلك المؤلفات بلغاتهم القومية وهي مجهولة لدى معظم اهل الغرب كالعربية سواء بسواء ؟

كان توماس مان ، وستيفان زفايج يكتبان بالالمانية ، وكان اينازيو سيلوني ، ولويجي بيراندللو ، والبرتو مورافيا يضعون كتبهم بالايطالية ، وهنريك ابسن بالاسكندنافية ، وبنايت ايستراتي بالرومانية ، ورابندارنات طاغور ، وملك راج اناناد بالهندية . ومع هذا كانت آثارهم تترجم الى مختلف اللغات حال عرضها في الاسواق ، وقد فازت بعضها بجوائز عالمية سنية كجائزة نوبل مثلاً . ومثل هذا نقوله عن آثار مشاهير كتاب الصين واليابان من امثال لين يوتانغ ، وفونغ يان ، وايكواوياما وغيرهم . فلمَ يا ترى لم تنقل بعض مؤلفات المبرزين من ادبائنا المحدثين الى بعض اللغات العالمية ليعرف العالم الغربي الادب العربي الحديث ، ويطلع على ميزاته ، ويقدره حق قدره ، اوليس بين الانجليز والفرنسيس والطليان والروس والالمان من يجيد العربية ، ويحسن النقل عنها مثلما ينقل عن الاوردية ، او الصينية ، او اليابانية ؟

من هذا يظهر لنا ان اللغة العربية – كما اسلفت – ليست هي الحائل الاول في طريق تعريف ادبنا الحديث الى العالم ، واحلاله المنزلة التي يستحقها بين الآداب ؛ وانما الحائل – كما ارى – يتمثل في الادب العربي الحديث ذاته لانه لم يبلغ بعد من سمو الفكرة ، وروعة التصوير ، وقوة الملاحظة ما يجعله ادباً انسانياً تجد فيه الامم الاخرى صورة صادقة للمجتمع العربي الراهن ، وصفحة من صفحات كفاح الانسانية في سبيلها نحو الكمال .

بغداد   سليم طه التكريتي

حول « معنى الحرية »

بقلم انيس القاسم

الى الاستاذ عبد اللطيف شرارة

تقول يا اخي عندما قرظت كتابي « معنى الحرية في العالم العربي »* ان المؤلف اخفق في بيان موضوعه الاساسي الذي يضمه عنوان الكتاب وتقرر ان هذا الاخفاق راجع الى طريقة خاطئة في التفكير . وهذا قول خطير لا يقوله ناقد الا وهو مطمئن كل الاطمئنان الى ما يقول . ويخيل الي ان هذا الحكم الذي اصدرته ناتج حقاً عن طريقة خاطئة في التفكير . فانت تقرر انه لا يكون للحرية في العالم العربي « معنى» «سوى التخلص من سيطرة الاجانب والحؤول دون تدخلهم في شؤون الاقطار العربية ومقاومة الضلالات الشعوبية ومكافحة الصهيونية على جميع الجبهات وفي جميع بلاد الارض . وكل معنى آخر يعطى لكلمة « الحرية » في العالم العربي في المرحلة الراهنة من التاريخ انما يكون من قبيل الرياء والدس والتضليل ».فانت عندك فكرة واحدة ومعنى واحد للحرية في العالم العربي ولا تريدان تسمح لغيرك بأن يعالج موضوع الحرية من جانب آخر . فالاخفاق ناتج عن ان الكتاب لم يعط للحرية المعنى الذي تريده . لك يا اخي رأيك وللغير رأيه وليس لك ان تعد اختلاف الغير معك في الرأي اخفاقاً من جانبه .

يا أخي هل وقفت عند هذا المعنى الذي تعطيه للحرية في العالم العربي ؟ أتظن ان في استطاعة العالم العربي ان يتخلص تخلصاً كاملا لا رجعة فيه من سيطرة الاجانب ما لم يكن العالم العربي يقظاً حقاً – يقظا يقظة واعية على النحو الذي شرحته في كتابي ؟ وهل تظن ان هذا الهدف الذي نطمح ونعمل اليه جميعاً يمكن ان يتحقق تحققاً كاملا ما لم ينشأ بيننا جيل يقدر مسؤولياته حق قدرها – جيل قد اكملت الحرية المسؤولة أهليته ؟ الا تذكر يا اخي ان كبت الحرية بالمعنى الذي ذهبت انا اليه كان سلاحاً حاداً استعمله الاجنبي في بلادنا لتثبيت سلطانه وسلطان اذياله ؟ الا تذكر المجالس النيابية المزيفة وما جرته من مصائب على الوطن العربي والشعب العربي ؟ فهل يكون مرائياً وداساً ومضللاً من يبين معنى حق الشعب في تقرير مصيره لا في شؤونه الخارجية فحسب وانما في شؤونه الداخلية كذلك؟

وما رأيك في التمويه على الشعب وتضليله من الحكومة والاحزاب والكتاب وغيرهم ؟ هل تظن ان هذا يساعد في معركة الحرية التي تدعو اليها ؟ اما انا فلا اعتقد ذلك ، ولهذا حللت هذا الموضوع وبينت معناه في العالم العربي . يا اخي انت تشكو وتستشهد بالدكتور طه حسين للقول ان الحرية في العالم العربي في « حالة منعجمة » . والحرية التي تحدث عنها الدكتور وتحدثت انت عنها ليست الحرية بالمعنى الذي تريده ، وانما هي الحرية بالمعنى الذي ذهب اليه كتابي . فهل من الدس والرياء والتضليل ان يسعى المرء لدراسة هذا الموضوع ومعالجته ؟ وتقول ان الحرية اذا تحققت في العالم العربي على النحو الذي وصفته في كتابي لها معنى خطير جليل ضخم . فاذا كانت هذه النتيجة تترتب على المعنى الذي وصفته في كتابي فهل يكون الحديث عن الحرية بغير المعنى الذي تريده رياء ودساً وتضليلاً ؟ كلا يا اخي ، هذا كلام لا يجوز ان يصدر عنك ، وانت تعلم ان المجتمع العربي لا يكفي لقيامه على اسس سليمة اعتناق الحرية بالمعنى الذي تريد قصره على الحرية. ان طرد الاجنبي من البلاد العربية لا يكفي لقيام مجتمع صالح فيها ولا يكفي لتمتع الشعب العربي بخيرات الاستقلال ، عد بذاكرتك قليلا الى الوراء لتتأكد من صحة ما اقول .

امامنا يا اخي مشكلة الاستعباد الداخلي الى جانب الاستعباد الخارجي. ويقيني انك لا تريد منا الا نتعرض للاستعباد الداخلي لتقويضه ، وماذا يقوض الاستعباد غير الحرية وما الذي يضمن عدم عودة الاستعباد الا استقرار مبادىء الحرية على الوجه الذي تعرض له كتابي وبالمعنى الذي تحدثت عنه ، وهو معنى في صميم الثورة الانشائية العربية ؟ هل تريد ان يستمر او يقوم في العالم العربي استعباد داخلي يقتل الانفس الوطنية الطاهرة ويسكت الالسن الابية المخلصة ويسلط على الشعب سوطاً من الجهل والرقابة والبوليس السري ؟ طبعاً لا تريد ذلك . ومعنى الحرية في هذا المضمار هو معنى لها في العالم العربي .

هل من الصواب ان يطلب من الكتاب الا يتحدثوا الا عن الاستعمار وكأنه هو الداء الوحيد الذي تئن منه الامة العربية ؟ اريد ان اعرف كيف يكون خروج المستعمر نهائياً من بلادنا اذا لم يكن الشعب العربي قد اصبح يقظاً واعياً ؟ وكيف نستطيع بناء مجتمعنا الافضل اذا لم نبدأ من الآن في تحديد الهدف ووسائل تحقيقه ؟ وكيف تكون اليقظة واعية وكيف يكون الهدف مستمداً قوته وحقيقته ووسائله من الشعب اذا لم يكن للحرية التي تحدث عنها كتابي معنى في العالم العربي ؟ هل نشرع في هذا كله بعد القضاء على الاستعمار ؟ وماذا يكون حالنا في فترة الانتقال هذه ؟ هل يسمح لنا الاعداء وهل يسمح لنا الزمن وهل يجوز ان نسمح لانفسنا بفترة اخرى من الحيرة والتذبذب ؟ ان كل حركة وكل عمل يوقظ الامة العربية وينير لها السبيل في زاوية من الزوايا ويقوى في ابنائها شعورهم بالمسؤولية وحقهم في الحياة هو معول في تقويض السيطرة الاجنبية ولبنة متماسكة قوية في بناء المجتمع العربي السليم .

لا يا اخي لقد كنت مصيباً عندما قلت في تعليقك ان للحرية بالمعنى الذي ذهب اليه الكتاب معنى خطيراً جليلا في العالم العربي ، وليس مرائياً ولا داسا ولا مضللا من يتحدث عن هذا المعنى .

ويخيل الي يا اخي انك لم تقرأ الفصل الاخير من الكتاب قراءة المتروي الناقد . فانت قد اخذت منه فقرة ، وهي الفقرة التي نقلها الاستاذ الدكتور اسحق موسى الحسيني عندما تفضل فكتب مقدمة الكتاب . ولم تحفل ببقية الفصل . لقد دعوت في ذلك الفصل مفكرينا الى دراسة مجتمعنا العربي من جميع نواحيه، واشرت الى بعض هذه النواحي ، لعلهم يخرجون من هذه الدراسة بفكرة عربية توجه خطانا الحائرة وتجعل يقظتنا واعية معروفة الهدف وتقوم عليها الاسس الثابتة لمجتمعنا . وفي الفقرة التي نقلتها لقراء « الآداب » بينت اهمية ظهور هذه الفكرة لاقنع المفكرين بضرورة تبني الرأي الذي ذهبت اليه . ويحضرني ، والالم يحز في نفسي ، حديث جرى بيني وبين احد اقطاب السياسة في العالم العربي . لقد كتب ذلك السياسي يعبر عن ايمانه بالوحدة العربية وبأنها ضرورة لا بد من تحقيقها . واجتمعت بذلك السياسي ودفعني ايمان الشباب الى الاعتقاد بصحة ما اعلن عنه فقلت له : الا ترى ان من الواجب تمهيداً لهذه الوحدة ان يتناولها الدرس من جميع نواحيها لعل مفكرينا يساهمون هذه المرة في توجيه العالم العربي والسياسة العربية الى الهدف المنشود ؟ هذا ما يحدث في جميع

* راجع العدد الحادي عشر من « الآداب » ١٩٥٥ .

العالم الا في بلادنا . لقد رد علي يا اخي بانه كان يتكلم سياسة . ان هذا الذي دعوت اليه والدراسة المفصلة التي تحدثنا عنها هي التي ستوقظ الشعب وتوقظ نوابه وتبلور الهدف الذي نسعى اليه فلا يكون بعد ذلك مكان لكلام الساسة ولا يجرؤ بعدذلك سياسي على التمويه على الشعب، فان الشعب سيلفظه .

خذ هذا المثل بالذات : الوحدة العربية . هل تعتقد ان الوقت لم يحن بعد لدراسة هذا الموضوع وتحديد مفهومه ، اي تحديد فكرته وفلسفته ، ليصبح جزءاً من كياننا وتفكيرنا وبرنامجنا العملي ؟ هل تظن ان الساسة متفقون على معنى الوحدة العربية وهل تظن ان اهل الفكر متفقون على ذلك ؟ ان للافكار قوة تحطم امامها معاول الاستعباد فلماذا لا تنطلق الافكار في هذا الاتجاه ؟ يا اخي ليس انبل من هذا عملاً لمفكر ولا أنجح في تقريب اليوم المنتظر .

ما كنت اظنك تأخذ علي هذه الدعوة . انني لا اهيم في وادي الخيال والاحلام. ان هذه هي الطريقة الوحيدة لتصبح الآمال برنامجاً عملياً واهدافاً واقعية . انني لا ادري ما معنى ان الفلسفة تظهر عفواً ؛ والذي افهمه هو ان الفلسفة عمل فكري مستمد من الواقع المادي والمعنوي وقائم فوق هذا الواقع ومستوعب له . انك لا تريدنا ان نصدق ان فلسفة كارل ماركس او هيجل اوهل او غيرهم من الفلاسفة ظهرت عفواً. فالثابت ان هؤلاء الفلاسفة درسوا المجتمع والفكر والتاريخ البشري دراسة عميقة وخرجوا من هذه الدراسة التي تتنافى مع فكرة العفو بفلسفة كان لها اثرها في تاريخ الامم . ويخيل الي انك اردت ان تفرق بين فلسفة عملية منتجة وفلسفة تظل نظرية قاحلة لا مجال لتطبيقها . وهذه تفرقة اوافق عليها وهي التي حملتني عندما تحدثت عن الفكرة العربية او الفلسفة العربية الى الدعوة لوجوب الرجوع الى المجتمع العربي لدراسته على ما هو عليه مادياً ومعنوياً لتكون الفكرة العربية او الفلسفة العربية التي توجه هذا المجتمع منتجة وعملية .

ان هذه الدعوة في حينها وامامنا دليل قريب على ذلك وهو المناقشات العديدة والمقالات التي ثارت على صفحات هذه المجلة في الاشهر الاخيرة حول الفكرة العربية والقومية العربية . اليست هذه المقالات والمناقشات استجابة للدعوة التي تتردد في نفس كل عربي مفكر والتي ترددت في نفسي فسطرتها في كتابي ؟ اتراهم يصطنعون الآراء التي يعبرون عنها؟

لا اريد ان اخوض معك في الشروط التي اشترطتها لظهور فلسفة ما، ولكن هل تريدني ان اصدق ان الشعب الانكليزي او الشعب الالماني او الشعب الفرنسي او الشعب الروسي كان متفهماً للآراء السياسية على اختلافها وتنوعها وتعددها قبل ظهور فلسفة كارل ماركس ؟ وهل كان الشعب الروسي متفهماً لهذا كله قبل ظهور فلسفة لينين ؟ وهل كان الشعب الايطالي متفهماً لهذا كله ايضاً قبل ظهور الفاشيستية ؟ ان الشعب لا يضع فلسفة كما انه لا يضع نظرية معينة في الطبيعة او الكيمياء او الرياضيات او الادب ، وانما يتقبلها تبعاً لمسايرتها او تباعدها عن واقعه وآماله . نعم هذا شرط واجب للفيلسوف ولكنه شرط استحالة بالنسبة الى الشعب . ارني الشعب الذي كان متفهماً للاراء السياسية على اختلافها وتنوعها وتعددها قبل ان تظهر فيه فلسفة من الفلسفات .

وبعد يا اخي لقد عجزت عن التوفيق بين مستهل مقالك وختامه ما لم اكن قد اسأت فهم واحد منهما . اما الختام فهو يتجاوز عن شخصي ليشمل كل فلسطيني عربي ويقيني انك تعني ما قلت . واما الفاتحة فلا ادري . هل اردت ان تثير الشكوك حول اهليتي للكتابة في الموضوع الذي كتبت عنه ؟ ان هذا يتناقض مع الخاتمة . لا شك عندي في انك لم ترد ان يستنتج القاريء ان دراستي للحقوق في لندن وممارستي للوظائف القانونية في ليبيا تجعلني غير اهل للحديث عن معنى الحرية في العالم العربي وانا واحد من ابناء فلسطين العرب الذين نجزم بانه لا يوجد اجدر منهم بنشدان الحرية والدعوة اليها والدفاع عنها . وان كنت قد اردت القاريء ان يستنتج ذلك فقد شططت كثيراً واخطأت خطأ كبيراً في حقي وفي حق قرائك وفي حقك انت . فاهلية المرء للكتابة لا يحكم عليها بمعرفة المكان الذي درس فيه والمكان الذي عمل فيه فالاهلية اوسع من هذا بكثير ويستدل عليها من دلائل اصدق واعمق . فانا لا اسمح لنفسي بالحكم على اهلية شخص للقيام باي عمل ما لم اعلم كل شيء عنه مما قد يمس ذلك العمل من قريب او بعيد ، هذا واجب الناقد الذي يحترم قراءه ويقدر مسئوليته كناقد . وختاماً لقد قلت انه حسبي من جهدي في كتابي هذا ، انني اثرت « هذه القضايا » اثارة موفقة وعرضت اكثرها عرضاً واضحاً غنياً بالمعرفة بليغاً في الاسلوب . وانا اشكرك جزيل الشكر على هذه الكلمات الرقيقة . ولكن ما هي « هذه القضايا » ؟ انك لم تشر في عرضك للكتاب الا الى قضية واحدة منها وهي : الدعوة للفكرة العربية وهي القضية التي تعرض لها الدكتور الحسيني في مقدمة الكتاب .

اليس من حق القاريء عليك ان تبين له هذه القضايا ، ما هي ، ولو بصورة مجملة ؟انه لا يكفي ان تقول ان الكتاب مقسم الى ثلاثة اقسام وان كل قسم متفرع الى فصول وتزود القاريء بعناوين الاقسام والفصول . الا ترى انه كان عليك ان تستعرض ما تطرق اليه الكتاب واني اول من يقر لك بعد ذلك حقك في ان تنقد منه او تنقض ما تشاء ؟

يا اخي ما كل كتاب ينقد بعد قراءة سطحية عابرة ، ورجائي اليك ان تقرأ الكتاب مرة اخرى ففيه تذكرة بمسؤولية الناقد والكاتب عندما يريد ان يمارس حرية النقد والكتابة . واليك مني اصدق تحية .

طرابلس الغرب

انيس القاسم

حول الشعر الاردني الحديث

بقلم جمال منصور

طالعتنا « الآداب » الغراء في عدد كانون الاول الماضي ، بمقال للسيد ناجي علوش بعنوان « عجالة في الشعر الاردني الحديث » وقد قال كاتب المقال في نهاية مقاله « وخير ما اتمنى ان اكون قد قدمت صورة ولو صغيرة عن الشعر في الاردن » . ولما كانت هذه الصورة - الصغيرة - التي قدمها ، هيكلية فقط ، اذ تنقصها الملامح التي تكسبها شكل الصورة الحقيقي ، رأيت ان الواجب يدعوني ان اضفي بعض الملامح الى هذه الصورة بريشة الحقيقة التي لا تحابي ، حتى يتمكن الناظر والناقد ، ان يستفيد ، ويرى مواطن الجمال في هذه الصورة التي خان الحظ الكاتب في اتقانها ، ولست ادري سبب ذلك ، ايكون جهله بانتاج الشعراء في الاردن ام انه ينظر الى الشعر من زاوية واحدة ، لها علاقة بمبدأ الشاعر وعقيدته دون انتاجه الشعري !! وخصوصاً عندما تحدث عن شعراء ما بعد اتحادالضفتين الذين يتخذ شعرهم مادته - كما قال - من واقع الشعب ، فيصور آماله وآلامه .

لقد تحدث السيد علوش عن شعراء هذه الفترة الذين قال انهم : كمال ناصر ، المحامي عبد الكريم خريس ، يوسف الخطيب ، خالد نصره ، وخليل زقطان ، على اعتبار ان هؤلاء هم ابرز الشعراء الذين يعكسون

بشعرهم صورة عن حياة الشعب الاردني ونضاله ، ولكن الحقيقة ، والشعب الاردني ، ينكران على السيد ناجي تجاهله لشعرائه الاخصاء الذين يجهلهم ، لانهم آمنوا به ، ولان انتاجهم كله ، يسبر غور شعوره وآماله وآلامه بجرأة لم يعتدها غيرهم ، ولانهم يصورون ادق تصوير ليس الوضع بالنسبة للاردن ، بل بالنسبة لسائر الشعوب المستعمرة . وهؤلاء الشعراء هم : عصام حماد ، اسد محمد قاسم ، نزهت سلامه ، وسليمان الدحابره . وسنبين شيئاً من شعر كل واحد منهم ، ليطلع عليه قراء « الآداب » ، ولنكون « الآداب » ، محررين وقراء ، حكماً نحكم على مدى شاعرية هؤلاء الشعراء الذين اراد الاخ ناجي ان يتجاهلهم ، مع العلم بأن رسالة الناقد او الدارس ، تقتضي العدل وقول الحق ، فمثلاً عندما تكلم محمود امين العالم عن شعراء مصر ، وشاكر مصطفى عن شعراء سوريا ، وكل الذين تكلموا عن الشعر في الاقطار العربية في « عدد الآداب الشعري » تكلموا عن كل شاعر مهما كان اتجاهه ، لان هذه هي ميزة الذي يريد الدراسة والنقد .

ان هؤلاء الشعراء الاربعة الذين ذكرتهم ، يؤلفون مدرسة تكاد تكون منفصلة عن سائر اتجاهات مدارس الشعر الاردني ، التي سماها الكاتب ، فمدرستهم تؤمن بالالتزام في الادب ، لانها تؤمن بأننا في هذه الفترة العصيبة من نضالنا ، احوج ما نكون الى الادب البناء ، منا الى ادب المديح والهجاء والعويل . ان مدرستهم تؤمن برسالة « الفن للحياة » حتى يتمكن الشعر ان يؤدي دوره الفعال في دفع عجلة التطور صعداً الى الامام ، حتى يتحطم هذا الواقع المؤلم الذي تعيش فيه الشعوب العربية خاصة ، والشعوب المستعمرة عامة .

اما الاستاذ عصام حماد ، فهو شاعر الطليعة ما في ذلك شك ، يتدفق انسانية وحيوية ، ولجولاته في دار الاذاعة الاردنية اكبر شاهد ؛ وله ملحمتان شعريتان الاولى بعنوان « ديان بيان فو » والثانية بعنوان « الى ولدي » ، بالاضافة الى كثير من القصائد الملتهبة التي نشرها في الصحف والمجلات ، وتبدو مفاهيمه في ايمانه بالشعوب ، وبالانسان ككائن ازلي متطور ، يؤثر بعضه في بعض بحركة التاريخ المتطورة الى اعلى . اسمعه في ملحمته « ديان بيان فو » حيث يقول :[1]

وجاس الكماة من الفيتميين
خلال العرين الرهيب المهيب
وشقوا الطريق لارض المطار
خصورهم اثقلت بالقنابل
وشدت بأحزمة الديناميت
فلو قد رأيت ... رأيت اناساً
من اللحم والدم ... لكنهم
اذا ما اصيبوا بنار العدى
تفجر ما يحملون ... فكانوا كمثل الذي يحملون .
...
وما هي الا ثوان صغار
واذ بالحديد ... مذوب امام النفوس الكبار
واذ بالجبابرة الاقوياء !
اسارى بأيدي الرعاع الضعاف

[1] لقد اوردت في الامثلة المنشورة التي استشهدت بها ، نماذج من الشعر الحر ، حتى اطلع قراء « الآداب » على ان شعراء الاردن ، كتبوا الشعر الحر واجادوا ، خلافاً لما ذكر السيد ناجي من ان هذا النوع من الشعر معدوم في الاردن

واذ بالعرين العزيز المنال
يسلم مفتاحه للنمال .

وللاستاذ عصام غزل رقيق ، ولكنه ليس من النوع الماجن الذي تعودنا ان نقرأه ... انه يشعر بانه انسان ، ولكن زمن الحب لم يأت بعد ، والوقت ليس وقت غرام ، ما دامت الاغلال والمؤامرات تحيط بهذا الوطن الحبيب ، وهذا ما نجده في قصيدة بعنوان « غزل في الاغلال » نشرت في « الاداب » ، عدد نيسان الماضي .

اما اسد محمد قاسم ، شاعر النضال فله من واقعه المؤلم وفقره المدقع اكبر معين لشاعريته الفياضة ... ثم انه ليس مثل باقي الشعراء السطحيين ، بل انه يربط الظاهرة التي يعيش فيها ، مع مجالها الاجتماعي باعتبار ان الظاهرة افراز حتمي لواقع معين ... وهنا تتجلى براعته في لغة سلسة ، وكلمات موسيقية ، وكثيراً ما يستعمل الالفاظ الشعبية ، وله عدة قصائد نشرت في الصحف الاردنية وخارجها ، وله ديوان غير مطبوع ، وله ملحمة بعنوان « كفر » على غرار ملحمة ابي ماضي « لست ادري » غير مطبوعة ايضاً .

اما نزهت سلامه ، الشاعر الشاب ، فهو شاعر الحرية والنضال ، لغته سلسة غير انه في بعض الاحيان يستعمل الالفاظ الغريبة ، لهجته الخطابية رائعة ، وتعرفها عمان التي استمعت اليه في عدة مناسبات لم يقو غيره على الظهور فيها . ولقد عالج القصة ونجح فيها الى حد ما ، وكتب الشعر الحر ، فأجاد . وله عدة قصائد نشرت في مختلف الصحف والمجلات العربية ، انه يؤمن بالنصر للشعوب مهما عربد الظلام وطال ليلهم . ان نزهت ، رغم صغر سنه ، يعتبر من الشعراء المجيدين ، والذين لا يرهبهم العنف والخسف ، فما من مناسبة إلا وخلدها بقصيدة رائعة . وله قصيدتان شهيرتان بعنوان « سوريا » و « عبد انا » وفي هذه الاخيرة يقول :

عبد انا ؟ ! سأريك كيف العبد يصبح سيدا
فاليوم احمل مشعلي ، وبه انير الفدفدا
حطمت قيدي ، انني حر ولست مقيدا .

اما سليمان الدحابره ، فهو يدرس الطب في القاهرة ، نظم عدة قصائد له ملحمة بعنوان « مع الشعوب » يصور فيها نضال الشعوب المستعمرة في كينيا ومراكش والفيتنام وغيرها فاستمع اليه حيث يقول :

والمبعدون عن الحياة الى المصانع يكدحون
لا يملكون سوى سواعد من شقاها يأكلون
لكنهم لا يأكلون
الا ليبقوا كالوقود بها تدار الماكنات
كي يصنعوا – للمترفين – جميع اسباب الحياة
لا يستحقون الحياة
فهم عصاة مجرمون
ولمثلهم تبنى السجون

ان لهؤلاء الشعراء في قلوب الشعب الاردني منزلة لا تضاهى ، لانه ما من واحد منهم حاد عن رسالته الادبية ، منهجاً ، او قدح او تملق كما يفعل غيرهم . ولان الشعب عرفهم يعيشون معه ، ويسيرون جنباً الى جنب في معركة الحرية والحياة التي يناضلون من اجلها ، بايمان راسخ بالنصر ، ما دامت هناك الارادة والنضال .

عمان

جمال منصور

لبنان

حصاد الادب في عام

كان احصاء الكتب الصادرة في لبنان في السنوات السابقة ايسر مما هو الان ، فقد كان العدد محدوداً يسهل حصره واحصاؤه . اما في الاعوام الاخيرة فقد تضاعف عددالكتب التي تقذفها المطابع اللبنانية شهراً بمدشهر. ولو كان في وزارة التربية او وزاره الانباء او وزارة الاقتصاد دائرة خاصة لاحصاء الكتب التي تنشر ، كما تحصى الواردات والصادرات على اختلافها لكان حصادنا للانتاج دقيقاً محكماً . ومع ذلك فقد سألت دور النشر ودور التوزيع وجمت ما نشر كل منها وما وزع فاجتمع لدي مئتان وخمسة وسبعون كتاباً ظهرت في عام ١٩٥٥ ، يقابلها مئتان وعشرة كتب ظهرت عام ١٩٥٤ .

واذا عرفنا ان عدد الكتب الصادرة عام ١٩٤٤ لم يزد عن ثلاثين كتاباً ، ولم يزد عددها عام ١٩٤٧ عن سبعة وستين كتاباً كما احصاها اتحاد الناشرين عامذاك ، ادركنا الى اي مدى يتزايد الخصب في كمية الانتاج الفكري . وحسبي ان اسجل بعض الظواهر التي دل عليها اتجاه النشر من غير ان انقد او ازن قيمة ما صدر .

في مقدمة ما يلفت النظر ولادة دور جديدة للنشر كالمؤسسة الاهلية ودار العراق ودار النشر للجامعيين ودار الحكمة ودار الكتب ودار الكاتب العربي ودار الكتاب اللبناني ودار الغد ، ولا ريب ان ظهور تسع دور جديدة في عام واحد ، ومجموع الدور التي كانت قائمة لا تزيد عن تسع عشرة داراً ، يدل على اشياء كثيرة ، من بينها ازدهار الحياة الفكرية في لبنان وشعور الناس بسهولة هذه المهنة ، وجو الحرية الذي يعيش في ظله كل من الناشر والمؤلف .

وظاهر من جدول الكتب الصادرة ان عدد ما نقل عن اللغات الاجنبية قد بلغ نحواً من سبعة وتسعين كتاباً ، وهو عدد وان كان كبيراً الا انه تدنى عما كان عليه عدد المترجم في العام الاسبق ، ولعل انصراف عدد من دور النشر الى نشر التراث القديم قد خفف من اقبالها على نشر الكتب المترجة . فمن المعروف ان عدداً من دور النشر قد اخذت على نفسها نشر موسوعات كبيرة من كتب الادب والتاريخ واللغة كالاغاني ويتيمة الدهر وعيون الاخبار والمعلقات العشر والشعر والشعراء ومعجم البلدان ولسان العرب وتاريخ ابن الاثير وتاريخ اليعقوبي والحيوان والبخلاء . وقد شجع الناشرين على احياء التراث القديم اقبال القراء على مثل هذه الموسوعات التي اصبحت نادرة من ناحية وغياب المؤلف او المترجم الذين من حق كل منهما ان يطالب بحظه من ثمرات جهده في الكتابة .

على ان نشر التراث العربي القديم ما زال جارياً تحت وطأة عاهتين لم تتخلص منهما بعد اولاهما تضارب الطبعات التي تظهر من الكتاب الواحد ، كالاغاني ولسان العرب والبخلاء ، وثانيهما ظهور اكثر الكتب القديمة من غير ان تدركها يد التصحيح والتحقيق . وفي هذا كثير من التجني والايذاء نحو اصحابها الاقدمين ونحو القراء الذين يقعون فريسة الجهل

اشتات ادبية

● ما زالت حرب البيانات مستمرة بين رئيس جمعية اهل القلم الاستاذ ادوار حنين ، والمجلس الاداري السابق الذي استغنت لجنة التصنيف عن خدماته .. هذه الخدمات التي انحصرت فائدتها في اعضائه وانسبائهم !.

● ما زال منصب مدير الاذاعة شاغراً منذ وفاة الاستاذ فؤاد قاسم ، والمرشحون عديدون .. واذا فاز احد هؤلاء المرشحين الذين تتداول الاوساط اسماءهم ، فلن يتلىء المكان به ، بل سيظل شاغراً بالرغم من تعيينه فيه .

● نال الفنان سعيد عقل جائزة رئيس الجمهورية اللبنانية في معرض الخريف ، عن لوحته « فتاة بالاصفر » ، كما نال جائزة مفوضية السياحة والاصطياف الفنان عمر الانسي عن لوحته « النهر في ميروبا » .

● سمحت الحكومة المصرية للاستاذ عبدالله القصيمي بدخول الاراضي المصرية . وقد لقي هذا التدبير ارتياحاً كبيراً في الاوساط الفكرية التي تعرف قدر القصيمي في عالم الفكر والحرية .

● كان عدد « الآداب » الممتاز ، الخاص بالفنون حدثاً مدوياً في مختلف البلاد العربية ، ولقد لقي هذا العدد من الاقبال والتأييد حظاً كبيراً . وستواصل الآداب طريقها في تقديم الافضل من أجل خلق مواطن عربي واع يعرف ما يريد وما يجب ان يفعل .

● قررت جمعية اخوان الثقافة إقامة مأدبة شهرية تجري خلالها احاديث أدبية واجتماعية تتناسب وجو العشاء . وقد انعقدت المأدبة هذا الشهر على قصائد جديدة القاها كل من الدكتور سليم حيدر والاستاذ جورج صيدح .

● يعود الاستاذ مارون عبود قريباً الى قرائه بعد ان نجحت الجراحة التي اجريت له اخيراً .

● لقيت فكرة إصدار مجلة « العلوم » - وهي شقيقة « الآداب » - ترحيباً حاراً لدى الجميع ... ومن المتوقع ان تكون تلبية لحاجة طالما أحس بها المثقفون العرب .

والاهمال .

والنظرة الاولى التي تلقى على نسخ الكتب الصادرة في العام الماضي ، تدل على ان حجم عدد وافر من الكتب قد كبر وتضخم حتى اضطر الناشرون الى تجزئته اجزاء ، وتستوي في ذلك الكتب المترجمة والمؤلفة ، والكتب المعاصرة او القديمة . فمنذ ما نعد لسان العرب كتاباً واحداً ، ومثله البؤساء ، بالرغم من ان كلا منها اجزاء كثيرة ، يتبين لنا المدى الواسع الذي خطاه النشر بالنسبة الى الاعوام السابقة .

وما زال الطابع الادبي طاغياً طغياناً عجيباً على النشر في لبنان ، وفي سائر العالم العربي فيما اظن ، فمن بين مئتين وخمسة وسبعين كتاباً نستطيع ان نعد كتابين في العلم العملي هما : هندسة الطيران وزراعة الكرمة ، وكتاباً ثالثاً في الطب هو « ذلك المرض » وعدداً آخر من الكتب هو اقرب الى الفلسفة العقائدية منها الى العلم الخالص كالمنطق الشكلي والمنطق الديالكتي ، والحركة في الطبيعة ، وهذه هي الديالكتيكية » . و « القضايا الاقتصادية الاشتراكية » وغيرها . وعلى هذا النحو لم تزد نسبة الكتب العلمية الى الكتب الادبية عن خمسة بالمئة وهي نسبة تدعو الى التساؤل الكبير ، فما لا شك فيه ان الحضارة الحديثة قائمة على العلم قبل كل شيء ، واذا شئنا ان نبني مستقبلا لا يكون غريباً في عصره عجيباً في عالم الغد ، ينبغي ان نوجه قراءاتنا الى العلم الذي يؤدي الى الكشوف والمخترعات في عالم الصناعة والطب والهندسة والاقتصاد .

وقد ارتفعت نسبة القصة ارتفاعاً ملموساً في جدول الكتب المنشورة حتى بلغت الكتب القصصية واحداً وستين كتاباً باستثناء الروايات البوليسية وسلاسل المغامرات . وقد يدل هذا العدد الكبير على رغبة القراء في التهام القصص ولكننا عندما نعلم ان الكتب الموضوعة من هذه القصص لا تزيد عن اثني عشر كتاباً تبين لنا سريعاً الفقر الذي نعانيه في الروائيين والقصصيين المؤلفين .

وشق الفن الموسيقي طريقه هذا العام في عالم النشر فظهرت كتب عن بيتهوفن وتشايكوفسكي وفرانز ليست وكورساكوف ، كما عرف النشر عدداً من المسرحيات المترجمة مثل « كانديدا » و « الافواه اللامجدية » و « البلور المحرق » و « ثمن الحرية » و « العادلون » .

وبالرغم من ان الترجمة كانت غالباً عن الفرنسية والانكليزية ، فكثيراً ما كان المنقول عنها منتمياً الى لغات اخرى . وبعد ان شهدنا في العام الاسبق عشرات الكتب تنقل الى العربية من ادب غوركي وغيره من ادباء الروس فان ما نقل هذا العام كان يتصل بالعقائديات المتصلة بالحياة السوفياتية المعاصرة واسسها النظرية . واتجهت انظار النقلة الى الآداب التي ما تزال نادرة في ادبنا ، فظهر هذا العام عدد من الكتب عن الادب الهندي مثل : « جني الثمار » و « جيتنجالي » ، وكلاهما لطاغور . كما ظهرت كتب اخرى بعنوان « الادب الهندي » و « قصص ألمانية » ، و « من الادب التركي » .

وكانت مجموعات الشعر غزيرة هذا العام ، برز من بينها « ديوان ابراهيم طوقان » وملحمة « فتى غفار » لسليمان العيسى وكلاهما تعبير قوي عن ثورة من ثورات الشباب .

وما زالت كتب العقائد السياسية تصور مختلف التيارات التي تصطرع في دنيا القرن العشرين فتجتمع كلها على رف واحد من رفوف المكتبة ، وكل منها وضع ليناضل الكتاب الذي يلتصق به ، ومع ذلك فهي تطل عليك في جو رحب من الحرية والتسامح كما يجتمع اصحابها ويعيشون في وطن واحد . فتقرأ العناوين التالية : « فلسفة المذاهب الاشتراكية » ، « الاشتراكية بين خصومها وانصارها » ، « اسس اللينينية » ، « تبلغوا وبلغوا » ، « العروبة اولاً » . ولا تلبث ان تقع عيناك على مجموعة اخرى من الكتب : « روح الدين الاسلامي » ، « ما هي الماسونية » ، « الروم » ، « مع الشيعة الامامية » ، « الدروز : ظاهرهم وباطنهم » .

ومن الكتب التي حفلت بها المكتبات هذا العام كتب الرحلات من مثل : « لبناني في البلقان » ، « يوميات هنفاريا » ، « في موسكو مرة ثانية » ، « الاتحاد السوفياتي » ، « انا عائد من جنوبي الجزيرة » . ولعل من خير كتب الدراسات التي ظهرت هذا العام كتاب « الوعي التربوي » للدكتور جورج شهلا وزميليه و « الميثولوجيا عند العرب » لمحمود الحوت .

ومن الكتب الفريدة في لونها : كتاب « السفير النفيس للشرطي الحديث » لطانيوس فغالي ، وكتاب « الذهب الوهاج في كشف المستقبل والابراج » ترجمة ناصر نصر .

ومن الظاهرات البارزة التي تسجلها حركة النشر في لبنان ان عدداً كبيراً من المؤلفين والمترجين الذين نشرت مطابع لبنان كتبهم هم من سوريا والعراق والاردن ومصر ، وقد نشر كل من الدكتور طه حسين وسلامة موسى وساطع الحصري وغيرهم بعض كتبهم في بيروت . واقبال المؤلفين على النشر في لبنان دليل على الثقة التي يمحضها اليوم القارىء العربي للكتاب اللبناني ، كما يدل ايضاً على نعمة الحرية التي يعيش في ظلها هذا البلد الطيب . وحسبنا ان نعلم ان ثلاثة كتب فقط من هذا السيل الغزير كله قد منعت من التداول وهي : « القضية العربية » « الثورة » « الراهبة الحسناء » ، وكلها كتب مترجمة .

ولم يكن عدد النساء المؤلفات كبيراً فقد عرفنا منهن هذا العام سميرة

النشاط الثقافي في الوطن العربي

عزام مؤلفة « الظل الكبير » ومترجمة « كانديدا » وانجيل عبود مترجمة « رسالة امرأة مجهولة » وثريا ملحس مؤلفة « عشر نفوس قلقة » ونجوى قعوار مؤلفة « عابرو السبيل » ، ووداد سكاكيني دباغ مؤلفة « النواضر في الجزيرة العربية » .

وكان اكثر الكتب اثارة للدوي قصة تامارا لخليل تقي الدين والحق انها لم تثر مناقشات ادبية بقدر ما اثارت نزعات سياسية ، وقد ادت هذه القصة الى ظهور ثلاثة كتب تحمل اسمها : كتاب « تامارا تقي الدين » لنسيب نمر ، و « تامارا والسفير » للدكتور جورج حنا ، و « تامارا بلادي » لميشيل كمال .

ولم نشهد في العام الذي مضى كتباً عنيفة الرواج كما شهدنا في العام الاسبق ، ولعل كتاب « العروبة اولاً » للاستاذ ساطع الحصري هو الكتاب الوحيد الذي طبع مرتين في العام الماضي .

وقد كان من المتوقع ان يلقى الكتابان الفائزان بجوائز اهل القلم رواجاً ملحوظاً بعد فوزهما ، ولكن الغريب ان كتابي زورق الحياة وآهة من بلادي ، لم يثيرا القراء كما انهما لم يثيرا النقاد . ولعل الاسباب لا تخفى على احد !

وكان الدكتور جورج حنا اغزر المؤلفين في العام الماضي فقد نشر خمسة كتب مختلفة ، كما كان منير البعلبكي اغزر المترجمين اذ نقل احد عشر كتاباً ، ويليه بهيج شعبان الذي نقل سبعة كتب .

لقد ودعنا عاماً ولوداً كثير الخصب في الانتاج الفكري . غير ان مواليده كان يطغى عليها طابع الادب لا طابع العلم ، وكانت القصة غالبة من بين فنون الادب كما كانت العقائد والنزعات السياسية دافعاً بالغ الاثر في وضع كثير من كتب الفلسفة والاجتماع والنقد بل كتب القصة نفسها .

« بهي »



برنامج شهر شباط سنة ١٩٥٦

الخميس ٢ شباط - الاب جاك بلاسار : « شواغل الفلكيين الحالية »

الاثنين ٦ شباط - الاستاذ فاضل سعيد عقل : « خواطر في الاغتراب والمغتربين »

الاثنين ١٣ شباط - الدكتور قسطنطين زريق : « العرب والثقافة الحديثة »

الخميس ١٦ شباط - الدكتور قيصر نصر : « ماهية الامراض العقلية »

الاثنين ٢٠ شباط - الدكتور هنري ايوب : « الطب النفساني : مقتضياته ومدى فاعليته »

الاثنين ٢٧ شباط - الزعيم جان عزيز غازي : « طبائع لبنانية : وجوه ومشاهد »

سوريا

لمراسل « الآداب » سعد صائب

معرض الفنون الجميلة السادس (الرسم والنحت)

اتيح لنا في ختام عام ١٩٥٥ ان نشهد في المتحف الوطني بدمشق ، معرض الفنون الجميلة السادس ، للرسم والنحت ، الذي اشترك فيه اثنان وخمسون رساماً وثلاثة مثالين ، هم الفنانون السادة : الفريد بخاش ، زهير صبان ، مروان قصاب باشي ، نصير شورى ، ميشيل كرشه ، فاتح المدرس ، ناظم الجعفري ، خير الدين المؤذن ، هشام المعلم ، الآنسة جوفروا ، ز. كابلان ، اليـاس زيات ، عدنان انجيله ، انور علي الارناؤوط ، هشام زمرين ، خالد معاذ ، السيدة مورملي ، قتيبة شهابي ، برهان الدين كوركوتلي ، هزقيـال طوروس ، السيدة شطي ، نوبار صباغيان ، نزيه نبعه ، نعيم اسماعيل ، ميشيل المير ، غياث الاخرس ، كوبلان ، عبد الهادي البكار ، رجائي الصفدي ، محمد خالد ، اكرم خلقي ، فيصل عجمي ، اديب قره بطق ، عيد يعقوب ، غسان السباعي ، برهاني ، ناجي عبيد ، احمد الجفان ، احمد نشأت زعبي ، نبيه قطايه ، محمد الحسامي ، دلال حديدي ، عبد اللطيف قباني ، احمد دراق ، عدنان ميسر ، عبد الكريم شكري ، وليد عوا ، ياسين سيدا ، عزة حورانية ، عبد الحميد قدسي ، خالد جلال .

ولقد كان هذا المعرض شكلاً جيلاً من اشكال نهضتنا الفنية المتيدة ، كما كان في الوقت ذاته ، انعكاساً حياً لمواهب اغلب فنانينـا ، وعنوان اتجاهات بعضهم ، ودلالة على سعي البعض الآخر ، الى بلوغ النجاح عن طريق المحاكاة والتقليد ، كما ادى الى اخفاق هذا البعض ، لتقصيره في القدرة على التعبير ، وانعدام روح الابتكار فيه ، وعجزه عن التحكم في الريشة ، وضعفه في الملاءمة بين الالوان ، وقلة مرانه وخبرته ، واختياره المواضيع التي طرقها !.

ودراسة فنانينا العارضين دراسة حقة ، تقتضينا تصنيفهم الى ثلاث فئات:

ثمة فنانون متمكنون من فنهم ، اولئك الذين استغرق الفن نفوسهم فعبروا بالريشة السمحة ، عن احساس دقيق ، وموهبة فـذة ، ومران طويل ، وخصوبة فنية ، وغنى شخصية ، وصدق عاطفة ، وجرأة في التعبير ، تدلك على انهم يتنقفون من خطواتهم الشعورية في الاختبار والبناء ، كما تلمس نجاحهم في خلق قوالب جديدة رائعة لاعمالهم . ويمكننا ان نذكر منهم على سبيل المثال لا الحصر ، ناظم الجعفري ، نصير شورى وهما في الطليعة ، ونوبار صباغيان ، ميشيل كرشه ، السيدة شطي ، فاتح المدرس وروبير ملكي ، ونعيم اسماعيل ، وهذان الفنانان الاخيران ، وان هما اتبعا المدرسة الحديثة في الرسم Modernisme الا انهما اختلفا في الاداء الذي تجلى في غموض الاول ، وبرز في وضوح الثاني .

وثمة فنانون ناشئون ، اولئك الذين اخـذوا يتحسسون طريقهم ،

النشاط الثقافي في الوطن العربي

ويتبنونه ليهتدوا اليه ، ويعجبك منهم هذا الميل الشديد الى الفن ، وهذا الطموح المحبب الى امتلاك ناصيته ، بالجهد والتذوق والمران ، وهم كما دلت لوحاتهم ، آخذون ولا ريب في التكون المتلائم مع نشاطهم وتطلعهم ساعون الى قيادة تجربتهم الفنية الى السبيل السوي ، ولعل محاولاتهم التي قاموا بها ، كانت بمثابة اعاءات متشخصة ، دلت على انهم سائرون الى غاياتهم ولا اشك انهم بالغوها ، اما



طبيعة صامتة – لهشام زمريق

حققوا التكافؤ بين انتاجهم المقرون بالموهبة ، وبين تذوقهم روائع الآثار الفنية ، التي ابدعها من سبقهم من كبار فناني الغرب ، واستلهامهم الطرائق والاصول المقررة ،

ومن هؤلاء الفنانين : هشام زمريق ، مروان قصاب باشي ، خالد الدين المؤذن ، عدنان انجيله ، غياث الاخرس ، الياس زيات ، غسان السباعي ، قتيبة شهابي ، دلال حديدي ، خالد جلال .

ويأتي اخيراً المبتدئون ، وهؤلاء تنقصهم الخبرة ، ويعوزهم المران المتصل ، وعلى الرغم من كثرة ما عرضوه من لوحات ضاقت بها قاعات المعرض على رحبها ، إلا ان « آثارهم » لميوعة الوانها ، وبعثرة خطوطها ، وفوضى اجوائها ، قد غابت في خضم الروائع التي ابدعها بعض المتمكنين ، وتوفق فيها بعض الناشئين البارزين .

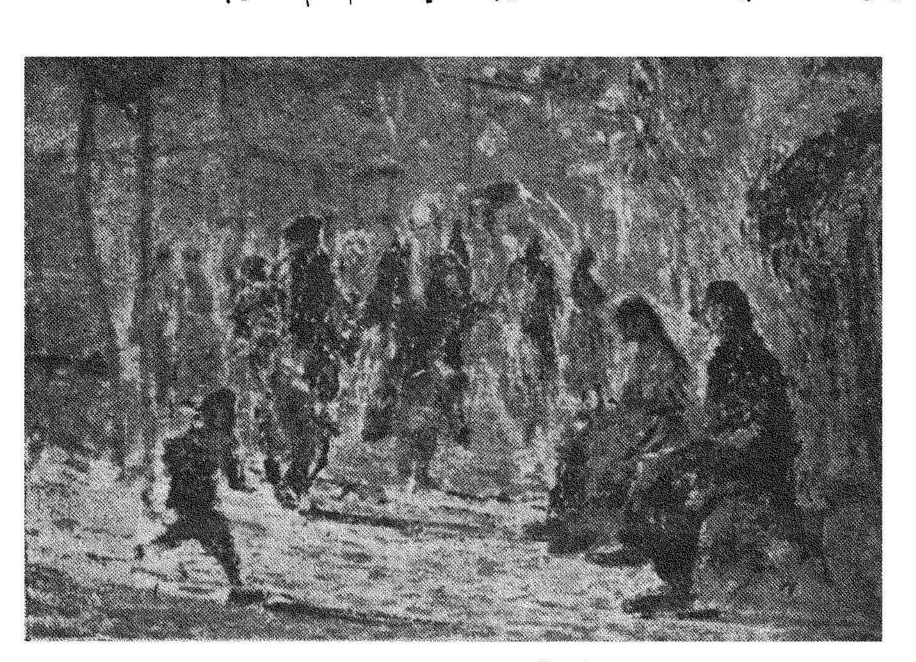
ضجة في صفوف الفنانين

تلك هي السمات البارزة التي تنكشف لاول وهلة ، لزائر هذا المعرض الفني ، ولكن ثمة حوادث واحداث ، المت باغلب العارضين ، وازعجتهم ، مما ادى الى ثوران في نفوسهم ، فراحوا يدندنون ناقمين من خيبة ظنهم باللجنة التحكيمية المؤلفة من الخبراء : قيصر الجميل ، رشيد وهبي ، نقولا غار ، وبيير بيونت ديرا كيان ، فلقد كانت اللجنة على زعمهم ، عجلى في انتقاء اللوحات ، مما ادى الى اعتسافها في حكمها ، بل اكتفت بان قام كل عضو فيها ، بانتقاء عشر لوحات ، هي بالنسبة اليه افضل اللوحات المعروضة ثم جمعت اللوحات المختارة ، وبعدها قام كل عضو بانتقاء خمس لوحات من مجموع اللوحات المختارة ، ثم بانتقاء ثلاث لوحات ، واخيراً حصرت الاصوات بالنسبة للوحات الثلاث الاخيرة ، ففازت اللوحات التالية بالاجماع وهي :

« طبيعة صامتة » لهشام زمريق « الدرجة الاولى »
« ساحة القرية » لنصير شوري « الدرجة الثانية »
« اهدن » لالياس زيات « الدرجة الثالثة »

ثم جرى اختيار افضل قطع النحت ، على الطريقة الاولى ، ففازت القطع التالية :

« الدرزية الحسناء » لعدنان انجيله « الدرجة الاولى »
« زنوبيا » لخالد جلال « الدرجة الثانية »
« وجه مستدير » لهشام المعلم « الدرجة الثالثة »



ساحة القرية – لنصير شوري



اهدن – لالياس زيات

النشاط الثقافي في الوطن العربي

ولقد اخذ بعض فنانينا على اللجنة ، انها لم تلحظ في اللوحة الزيتية الفائزة بالدرجة الاولى ، خلوهـا من الجو Atmosphère ، ناسين انها امتازت بجملها بالتكوين Composition وبساطة الموضوع ، وانسجام الالوان ، ومراعاة الظل والنور ، ووضوح لمسات الفرشاة ، وكلها تدل على شخصية مبدعها الشفافة ، او تومىء الى ذوقه السليم ، وقد عبرت ادق تعبير عن المدرسة الحديثة ، التي تفرق بين التصوير الفوتوغرافي والرسم الزيتي .

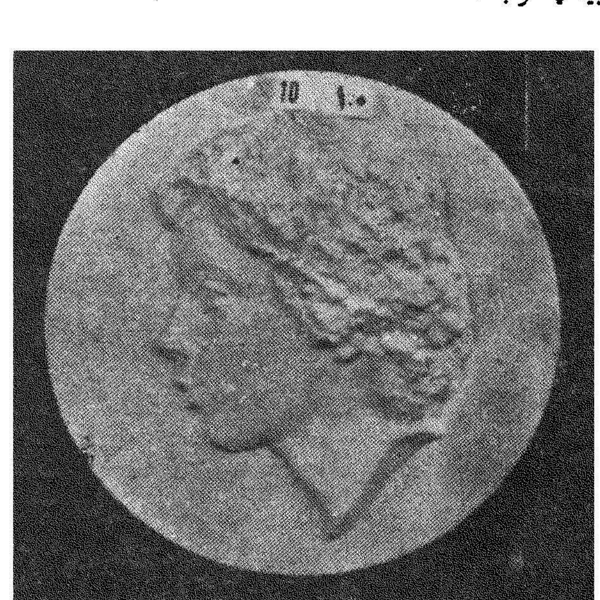
اما لوحة « ساحة القرية » فقد استعمل فيها الفنان نصير شورى ، سكين الرسام ، اكثر مما استعمل الفرشاة ، وغلبت عليها الالوان الهادئة الشفافة ، التي عودنا رؤيتها الفنان شورى في لوحاته ، كما برزت فيها بشكل واضح ، الانطباعية البحتة في الموضوع والتكنيك . ولقد اعجب الفنانون الاجانب بهذه اللوحة ، لانها صورت اصدق تصوير ، طابعها الريفي ، واظهرته على حقيقته .

اما لوحة « اهدن » فقد اتبع فيها الفنان الناشىء الياس زيات طريقة السطوح في الالوان ، وراعى فيها الانسجام ، ولم يشذ عن وحدة الموضوع الا خروج على وحدة « التكنيك » ، كما ابرز فيها العمق ، ولعلها اللوحة الوحيدة بين مثيلاتها التي خلت من الاخطاء الفنية الشائعة .

اما الفنان عدنان انجيله ، فقد اعطى تمثاله « الدرزية الحسناء » طبيعة المادة التي يستعملها Médium كما برز التفاوت بين اخراجه الفني وموضوعه ، يبان فيها الطابعان (الحديث) و (القديم) — وعلى الرغم من الهنات التي تأخذها على هذا التمثال من حيث النسب التي لم تراع ، الا انه كمحاولة اولى ، جدير بالالتفات ، قمين بالاعجاب .

اما تمثال « زنوبيا » لخالد جلال ، فقد كانت نسبة كاملة مدروسة .

ويبدو في تمثال « وجه مستدير » لهشام المعلم ، اتقان الصنعة ، وقسوة تعبير في الوجه ..



وجه مستدير — لهشام المعلم

وبعد ، ائن دل هذا المعرض على شيء ، فانه يدل على تفتح براعم فنية كانت خافية على الاعين ، وعلى ظهور مواهب ، مما كان من المتوقع ظهورها مبكرة ، ولعل هذه الظاهرة الحية ، التي تبدت على حين غرة في مرحلتنا الواعية التي نجتازها اليوم ، قد نبهت الاذهان ، الى ان الفن امسى حاجة ملحة من حاجاتنا ، وغدا ضرورة من ضرورات حياتنا ، وكل ما نرجوه ان يمضي فنانونا بفنهم ، والا تثبط عزائمهم ، وان ترعى الحكومة هؤلاء الفنانين ، وتعينهم على النهوض برسالتهم على اتم وجه واكمله .



الدرزية الحسناء — لعدنان انجيله

عودة الزوجين الاديبين ..

عاد الى دمشق ، الزوجان الاديبان ، السيدة وداد سكاكيني ، والدكتور زكي المحاسني ، بعد ان امضيا ردحاً من الزمن في القاهرة ، كانا فيه خير رسولين من رسل ادبنا في ارض الكنانة . ولقد احتفت بالاديبة الكبيرة وداد ، الندوة الثقافية النسائية ، التي ترأسها المربية الاستاذة جهان موصلي ، ويساعدها كرام السيدات الاديبات ، امثال القاصة ألفة الادلبي والانسة ليلى صباغ ، فاقامت لاديبتنا حفلة استقبال تكريماً لها ، دعت اليها جمهرة من صفوة الادباء والمثقفين . واخال ان الاديبة وداد ، غنية عن التعريف ، فهي الاديبة السورية الاولى ، التي تسلمت مشعل الفكر والكتابة النسوية في سورية ، بعد احتجاب الاديبة الشاعرة ماري عجمي ، فكتبت المقالات والفت الكتب ، وانشأت القصص والروايات الكبيرة ، كما حاضرت في مختلف الاندية والجمعيات ، وهي ذات تفكير خصب ، وثقافة عميقة ، واسلوب كتابي عالي ، فيه اشراق



زنوبيا — تمثال لخالد جلال

وجمال ، وهو يداني اسلوب الفحول من الرجال .

المستشرق « بلاشير » في دمشق

زار دمشق في الشهر الفائت المستشرق الفرنسي « ريجيس بلاشير » استاذ الدراسات العربية في جامعة السوربون ، وعضو المجلس العلمي العربي بدمشق . والمستشرق « بلاشير » علم من اعلام الاستشراق ، درس عليه وتخرج على يديه ، عدد جم من طلاب الادب في الشرق العربي ، وله مؤلفات عدة اشهرها « المتنبي » و « ترجمة القرآن » و « تاريخ الادب العربي ، منذ نشوئه حتى القرن الخامس للهجرة » وترجمة « طبقات صاعد الاندلسي » و « مختارات عن جغرافيي العرب في القرون الوسطى » عدا البحوث والدراسات المنشورة في مجلات الشرق والغرب .

وقد لخص لنا الفكرة الاساسية التي بنى عليها محاضرته عن « الأدب في الثقافة العربية » التي القاها بالفرنسية في قاعة « معهد اللاييك » بقوله : «ان كلمة – ادب – لها عندي مفهوم يقوم في الحضارة العربية في القرون الوسطى ،مقام المفهوم الفرنسي لكلمة Humanisme التي ترجمتها «الانسية» وكما ان لهذه الكلمة في الفرنسية ، معاني شتى معقدة ، غير محدودة المعالم ، كذلك فان لكلمة « ادب » في القرون الوسطى ، معاني تدل على افكار مقترنة بالدين والفلسفة والثقافة عامة ، وعندي ان بعض الكتاب من العرب كالجاحظ وابن قتيبة وامثالها ، قد ضمنوا تصانيفهم اشياء كثيرة تتعلق بالفكرة الدينية والفكرة الفلسفية وغيرهما ، وغايتهم من وراء ذلك ترقية Promotion او رفع الانسان الى مستوى اعلى مما هو فيه » . وقد شافهنا ان نطرح عليه الاسئلة التالية :

س – ما رأيكم في الادب العربي القديم ؟

ج – اقول لكم بصراحة اني كسائر المستشرقين ، افضل الادب الحديث على الادب القديم ، لاسباب شتى لا مندوحة لي من ذكر البعض منها : ان الادب الحديث ، اقرب الينا من حيث الافكار والاسلوب ، والاتجاهات الادبية الكامنة فيه . غير اني لا انكر ان الادب القديم هو اساس الادب الحديث ، مما يدفع كل مستشرق ، الى البحث عن القديم ليفهم الحديث حق فهمه ، وليقدره تقديراً سليماً .

س – ما رأيكم في النهضة الفكرية في العالم العربي عامة ؟

ج – انني اثني على هذه النهضة كل الثناء ، لاني ارى فيها ما يساعد على التفاهم بين الشرق والغرب ، فلو بقي الشرق ضمن حدود البحث عن الادب القديم مثلاً ، لتعذر عليهما التفاهم لما بين الحضارتين القديمة والحديثة من التغاير والتمايز والاختلاف ، وبالجملة ، فاني ارى ان هذه النهضة تقرب بين الثقافتين، بل تؤدي بنا الى التقارب على صعيد الفكر الانساني .

س – هل هناك فكر عربي اصيل يتميز من التيارات الثقافية التي تجتاح الشرق العربي ، وكيف العمل لصيانة هذه الاصالة ؟

ج – إن الفكرة الرئيسية الاساسية عندي ان لكل شعب مميزات فكرية خاصة به ، فهي له كالتراث المقدس الذي لا بدّ من الحفاظ عليه ، اذن فاني ارى ان للشعوب العربية ثقافة خاصة بها ، فكما ان الغربي يحتفظ بتراث اجداده الثقافي ، كذلك ينبغي على الشعوب العربية الاحتفاظ بتراثها الاصيل ، ولكن عليها ان تدرك في الوقت ذاته ، ان كل تراث ثقافي يتضمن امكانيات في التطور ، وانا لا اشك قط في ان الانسانية تتطور وفق اتجاهات عامة ، وتلك الاتجاهات ، تحدث الاتحاد بين البشر كلهم . ومن الممكن صيانة هذه الاصالة بالتدريس والتعليم والتثقيف ، ونقل الافكار بين الشرق والغرب ، لاننا ادركنا مرحلة من مراحل التاريخ لا بد فيها لكل امة ، من معاشرة غيرها للاخذ منها واعطائها .

س – ما هو الوضع الحالي لعلم الاستشراق في فرنسا ؟

ج – لقد مضى على الاستشراق حين من الدهر كان يكتفي فيه بالاتصال بالشرق ، بواسطة مطالعة كنوزه القديمة . اما اليوم فقد توخى ان يباشر احوال الشعوب العربية ، ويتصل بها ، حتى يكتشف حقيقتها الحية. ولنضرب لذلك مثلاً : ان اكثر المستشرقين الفرنسيين يبذلون قصارى جهودهم في تعلم اللغة العربية الفصحى ، لانهم واثقون من ان هذه الأداة اللغوية ، لها اهمية كبرى في فهم تطور الاحوال الثقافية والسياسية والاجتماعية في الشرق العربي .

س – ما هي المؤلفات التي تعدونها اليوم ؟

ج – اني اعد الجزء الثاني من « تاريخ الادب العربي » وارجو الله ان يوفقني الى اظهاره في العام المقبل !..

هل من رواية جديدة ؟

لمراسل « الآداب » : رجاء النقاش

لا يمكن في مجال الرصد العام للحركة الفكرية أن نقسم مراحل هذه الحركة تقسيماً زمنياً بحيث يصبح العام المادي متناسباً تماماً مع العام الفكري ، فالواقع ان الحركة الفكرية تيار متصل : كل مرحلة منه هي موجة من الموجات لا تنفصل عن الموجات السابقة ولا الموجات التالية ... والسؤال الذي نسأله اليوم إنما يهدف الى تعرف خصائص الموجة الفكرية التي استغرقها عام ١٩٥٥ : ماذا يمكن ان تسلم اليه هذه الموجة بالنسبة للعام الوليد : عام ١٩٥٦ ؟ ونحن حين نواجه هذا السؤال لا نهدف بالطبع الى التماس الاجابة عنه في الرصد الكمي للانتاج الفكري في مصر ، ولا نهدف الى التماس هذه الاجابة في الجهود الفردية للكتاب والادباء ما لم ترتبط هذه الجهود بدلالة عامة في العمليات الفكرية الرئيسية . إننا نحاول ان نتبين اتجاه الحركة الفكرية وسط العوامل المساعدة والعوائق .. نحاول ان نتبين شخصية الرواية الجديدة على مسرح الفكر والثقافة في معركة الصراع بين تزييف الفكر وبين روح الاصالة والصدق التي تحاول ان تؤدي دورها المنشود في واقع الحياة على صورة امينة .

وفي محاولتنا عرض هذه الرواية الجديدة سوف نعرض لبعض الظواهر الاساسية التي تتحكم في شخصية المسرح الفكري في مصر والتي يمكن ان تكون قد أشرنا اليها من قبل على هذه الصفحة — فمن المهم ان نذكر اليوم مرة اخرى ظاهرة الانفصال الثقافي بين الريف والمدن الصغرى من جانب وبين القاهرة كعاصمة للنشاط الفكري العام من جانب آخر ، ومصدر هذا الانفصال — بالاضافة الى عناصره التقليدية كانتشار الامية — هو ازدواج الواقع الفكري في العاصمة . فمراكز الحركة الثقافية التي تربط بين العاصمة وبين الريف والمدن الصغرى هي : الاذاعة والصحافة ودور النشر الكبرى والجامعة . والوضع الحقيقي لهذه المؤسسات كلها هو انها لا تمثل غير هذا الاتجاه الفكري المسالم الذي لا يوجد بينه وبين واقع الحياة اي لون من الوان الخلاف أو التنافر . والاتجاه الفكري الذي يعنينا في الحقيقة والذي نطلق عليه دون غيره : الاتجاه الثقافي في مصر .. هذا الاتجاه هو ذلك الذي يلتزم مفهوماً مدركاً للمسؤولية ، فيعكس واقع الحياة بقصد إخضاعه للدراسة الواضحة على صورة يستطيع ان يتحول فيها الى واقع مرن قادر على التطور والتغير . وحسبنا ان نذكر مثالاً يوضح الفرق بين الاتجاهين ، وقد قصدنا الى اختيار هذا المثال بالذات وقصدنا الى الاطالة في تحليله لاعتقادنا انه يحمل بوضوح خصائص الاتجاه الثقافي المرفوض ويوحي — في وضوح ايضاً — بخصائص الاتجاه الاساسي الفعال في الثقافة والفكر . ففي الايام الاخيرة ، عرض بعض كتاب الصحافة المصرية لمشكلة الموسيقى وتخلفها في مصر ، وقد بدأ الاستاذ محمد محبوب باثارة هذه المشكلة على صفحات جريدة « الجمهورية » ، وامتدت المشكلة بعد ذلك الى اقلام اخرى اخذت تعالجها وتحدد ظواهرها ووسائل حلها .. فما الذي حدث ؟ .. اخذ الكتاب يعالجون المشكلة من زاوية معكوسة : بدأوا بأن الموسيقى متخلفة ثم التمسوا « أسباب » هذا التخلف في الموسيقيين بالاضافة الى ما يرتبط بالموسيقى من معاهد وغير ذلك ، ثم اخذوا يقترحون وسائل العلاج ، ومن امثلة هذه الوسائل : انشاء معاهد جديدة واستقدام خبراء اجانب .

مثل هذا الاتجاه في فهم مشكلة الموسيقى هو نموذج واضح طيب لاتجاه قائم مماثل في عرض المشكلات الاخرى ومعالجتها .. وهذا الاتجاه الفكري يختلف تماماً عن اتجاه آخر يبدأ في عرض المشكلة وعلاجها بداية منطقية : فاذا كانت الموسيقى المصرية متخلفة .. فان علينا ان نسأل انفسنا عن علاقة الموسيقى بالشعب المصري نفسه . فواقع الامر اننا سوف نجد ان الشعب المصري في طبقاته الرئيسية التي يتكون منها وهي على التحديد : الفلاحون والعمال والموظفون الصغار .. سوف نجد ان هذا الشعب يعيش في ظروف يمكن ان نصفها بأنها ظروف « غير موسيقية » . فما من فرد من ابناء هذه الطبقات يملك الوقت والامن ليعيش قضية مشاعره وانفعالاته في مستوى الموسيقى السيمفونية مثلاً . إنه يعمل في ظل ظروف قاسية للغاية : ففهوماته عن الحياة لم يتح لها فرصة التطور والنمو ، فهي حبيسة المدركات الدينية الضيقة أو العلاقات الاجتماعية القائمة التي تمليها الظروف العملية السوداء حيث تعيش هذه الطبقات . لا يمكن لانسان يعيش في مثل هذا الواقع ان يسمع العمل السيمفوني ويستجيب له ويدرك ما فيه من أبعاد إنسانية . واذا كان « الفن » بمفهومه العام ضرورة في حياة الانسان ، فالفن الذي يمكن ان يروج بين ابناء هذه الطبقات هو ذلك الذي يستجيب للوجود التلقائي الاول : الغريزة .. ولنضرب مثالين على هذا اللون الاخير من الفن مهدت له شروط معينة ظروف الانتشار والرواج : ففي الموسيقى كانت الحان « شكوكو » وأغنياته شائعة بين صفوف العمال إلى حد بعيد حتى فترة قريبة .. فاذا كان « شكوكو » يمتاز به حتى استجاب له ابناء هذه الطبقة وأخذوا يرددون اغانيه والحانه ؟ كان « شكوكو » يمتاز بميزتين اساسيتين : اولاهما ما يبدو في الحانه مما يمكن ان نسميه بالطابع الجماعي ، فكل مقطع منها لا يخلو من امكانية — بل حتمية — ترديده الجماعي : يغني فرد فترد عليه الجماعة .. وطابع الجماعة في حياة العمال طابع واضح حتمي : فالعمل نفسه جماعي ، والخروج من العمل والدخول اليه شكلان من اشكال التجمع الحتمي ، والفن هو احد مظاهر النشاط الانساني الذي يمكن ان يتحول به التجمع الحتمي من صورته الآلية القاسية الى صورة انسانية ، تخلق الحوافز وتبعث بالأمل والعزاء ، انه الشيء الذي يحيل المشاركة في مصير اليم يومي متكرر الى قضية تحتمل ..

ولكن تجمع العمال المصريين في الايام التي ظهر فيها « شكوكو » كان خاضعاً لظروف عديدة ، منها تأخر المستوى الاجتماعي والانساني للعامل ،



وارتكاز الصناعة في مناطق قليلة تستدعي وصول العمال اليها بعد جهد طويل، اذ انهم في الغالب من مناطق بعيدة عن نقطة الارتكاز الصناعية .. ومن هنا كان تجمع العمال، الى جانب طابع السرعة الكيفية فيه، منتسباً إلى وسط مليء بمواصف من الضغط لا تتيح للنفس ان تنتبه الى اعماق بعيدة في داخلها ... ومن هنا اصبح من الضروري ان يكون هذا الفن المنتشر بينهم سطحياً سريعاً منقطعاً يعتمد على خصائص خارجية كالصوت الفارغ من المعنى والذي يدل على الفرح الامي كتعبير « هاي » المشهور عن شكوكو .. وكذلك فهو فن يعتمد على الحركة الخارجية أيضاً كأن يكون قريباً من حركة الرقص السطحية للغاية .. وتلك هي الميزة الثانية لفن شكوكو : السطحية والسرعة .. وهي بالاضافة الى الميزة السابقة، ميزة الطابع الجماعي، قد مكنتا لهذا اللون من الفن ان ينتشر في وسط طبقة العمال بالذات في فترة توفرت فيها شروط معينة في تاريخهم، ولا زالت آثار هذه الفترة باقية الى اليوم، ولكنها أخذت تتلاشى،وذلك لظهور بعض القوانين الجديدة التي أخذت تقلل من قلق العامل وإحساسه بالفزع حيث كان مصيره يتوقف تماماً على عامل المصادفة،مما زاد في استقرار العامل وانتشار الصحف على صورة ما بين صفوفه .

واللون الثاني من الاشكال الفنية التي انتشرت بين العمال وكذلك الفلاحين في بعض القرى الكبيرة او المجاورة للمدن..هوالفيلم الامريكي المعروف بـ « الحلقات » وهو هذا الفيلم الذي يعتمد على ابراز الانسان في صورة وحشية بدائية توحي بمظهر البطولة الفروسية الزائفة : فهو يضرب ويسرق ويقتل ويحب ويهدم الابنية الضخمة ويغوص في البحار والصحاري.. كل ذلك في صور زائفة من الآلية المثيرة .

انتشر هذان اللونان من الفن بين صفوف تلك الطبقات نتيجة لظروف هي التي اشرنا اليها في إيجاز .. فا دلالة ذلك ؟.. دلالته هي ان تخلف شكل من الاشكال الفنية هو انعكاس لتخلف الاشكال الحضارية نفسها، وان معالجة التخلف الفني في الموسيقى مثلاً لا يمكن ان تنصب على الشكل نفسه دون مراعاة علاقة هذا الشكل بواقعه، فلن يكون هناك موسيقى مصرية الا اذا وجد جمهور ضخم بين ظروفه الواقعة ما يثير فيه انفعالات عميقة، على ان يتاح له ان يعي هذه الانفعالات التي تولد في حركة محاولته الدائبة لتنظيم الواقع الذي يعيشه، وهو تنظيم لن يتم الا بمجهود وانفعالات عديدة .. اذا تغير الشكل الحضاري للجمهور فلن تكون هناك موسيقى متخلفة، فستكون الحاجة الى الموسيقى عنيفة، ولا بد ان تكون الاستجابة هي الاخرى عنيفة .

الى مثل هذا الاتجاه من التفكير الموضوعي لم يلجأ الذين عالجوا قضية الموسيقى المصرية .. وهم صحفيون كبار كان في امكانهم بما لهم من سلطات فكرية وقدرة على التفرغ لعلاج المشكلة المعروضة ان يصلوا مع المصريين الى حلول أساسية لمعالجة قضية وجدانهم المحروم، ولكنهم اخذوا يقارنون مقارنات سريعة بين موسيقانا المقتبسة الزائفة وموسيقى الغرب الصحيحة العميقة، وأخذوا يتحدثون عن المعاهد الموسيقية ونقصها ... إنهم يلتمسون الدواء في الداء، ولن يكون هذا الدواء واقعياً بحال من الاحوال .. لن يخرج عن كونه دواء شعرياً نواسياً لا قيمة له .

يمثل هذا المنهج الاخير تعالج كثير من مشكلاتنا وقضايانا في الفكر والحياة . ونحن نرى انه منهج عقيم مفتعل لا جدوى منه، بل انه ذو نتائج خطيرة قد لا يقصد اليها أصحابه .. ومن هنا فنحن نعتبر ان المنهج الآخر الذي يعبر عن المشكلة أو يلتمس لها حلا مع الوعي بجذورها وامتداداتها دون ان يهدف من إثارتها إلى الصياغة الجميلة، او الموقف البطولي النائح وانما تعنيه المشكلة عناية حقيقية .. عناية اساسية صادقة تشغل ذهنه ونفسه في المدى الطويل .. نعتبر ان هذا المنهج الاخير، في مظهريه : الابداعي الفني والموضوعي الفكري، هو الممثل الحقيقي للحركة الثقافية التي يمكن ان نقيس نموها أو تخلفها بمقياس ما يطرأ على هذا الاتجاه من تغيرات .

وتيار هذا المنهج الاخير مبعد عن الاتصال بكثير من جوانب الواقع لا يستطيع ان يصل اليها، ولا يستطيع ان يؤثر فيها تأثيراً حقيقياً عميقاً، لان وسائل الاتصال الفكري كلها قد صنعت من عناصر وفي ظروف تجعلها عديمة القدرة على هذا التوصيل، في الوقت الذي تتيح لها فرصة كاملة لتوصيل تيارات فكرية أخرى هي نفسها من العوائق التي تحول بين الفكر المصري وبين تأدية دوره الكبير في حياة المجتمع .

وجد هذا التيار الثقافي الصادق نفسه أمام عوائق حجرية صماء، وان بدت لينة الملمس سهلة، فكان ان اتجهت مياهه البريئة الى التحايل حتى تفسح لنفسها طريق المضي والاستمرار .. ومن هنا ظهرت ابرز مشكلة في واقع الفكر المصري في العام الماضي،تلك هي دراسة الطائق نفسه ...

النشاط الثقافي في الوطن العربي

مواجهة هذا العائق كقضية فكرية ذات اهمية وخطر ، وكانت المشكلة هي : هل يترك للعمل الفكري بما هو طبع وتوزيع ونشر ان يتحكم في مضمون العمل نفسه ؟.. إن العمل الفكري في المستوى التجاري له اخلاقيته الخاصة ، بل ان هذا المستوى التجاري نفسه انما هو نمط من السلوك الفكري تضبطه قيم معينة ، وذلك دون شك مرتبط باحساس هذا التيار الفكري الصادق بحاجة المجتمع الى تغيير نظرته الى مفهومي : الفكر والعمل – فبعد ان كان الفكر مفهوماً مجرداً له عالمه الخاص وضوابطه التي لا يراعى في تحديدها مدى ملاءمته لواقع الحياة ، أصبح الفكر نقطة ارتكاز أساسية تساعد وتشترك في تحديد شكل الحياة في مختلف مجالاتها . أما العمل فقد كان يمضي اعتباطياً في الحياة وفي ظل قانون لا يقف الا امام الصور المباشرة الصريحة للانحراف .. انه قانون يعاقب على « الرشوة » ولا يعاقب على الاعلان الذي يحمي نفسه برأسمال ضخم ويضمن وسائل التزييف والتأثير كيفما شاء .. بعد ان كان هذا هو مفهوم العمل ، اصبح المجتمع يحس بضرورة التدخل حتى لا تصطدم – كما كان يحدث وما زال – مفهومات متعددة للحياة الاجتماعية عند الرأسمالي بمفهوم العامل ... مفهوم الحياة الاجتماعية عند الرأسمالي هو توفير وسائل الربح والكسب والنشوة ، ومفهومه عند العامل هو ضمان العمل والامن .. وهما مفهومان متناقضان لا بد ان يصطدما وينتصر القادر بالطبع : والرأسمالي قادر بالقانون العاجز وبالحق الواضح الاصفر : من كثرة ما لحق به من ظلم .

كان المجتمع يحس بضرورة تغيير مفهوم العمل ، وقد انعكست هذه الحاجة بعض الشيء على القوانين الجديدة التي صدرت في العام الماضي : كقانون الشركات ، والحراسة على شركة السكر وشركة اخرى لعبود ، وقانون الصحافة ..

ولكن المشكلة في علاقة الفكر المصري بالتنظيمات العملية لانتاجه ابعد من هذا كله : انها شبيهة بقانون سابق على القوانين الجديدة التي صدرت في العام الماضي او قبله ... فعندنا قانون قديم يحدد الصناعات والوان التجارة التي يمكن ان تقوم بين انحاء المجتمع ، فهو يبيح صناعة الغزل وتجارة القطن ولكنه يمنع زراعة « الافيون » والتجارة به .. ان الافيون – بعد دراسة لآثاره الفسيولوجية والنفسية والاجتماعية – مادة ضارة تنتقل من الارض الى البائع ومن البائع الى السوق .. لقد عرف المجتمع تماماً انه مادة ضارة يجب منعها منذ البداية ، فعكس احساسه على القانون الذي قرر هذا المنع .

تلك هي القضية في العمل الفكري اليوم ، فان من المطلوب تحديد « المخدرات » الفكرية ومنع المتاجرة بها لما لها من اضرار واخطار تهدم بعنف وفي انتشاء مجرم جذور الحياة والحضارة في المجتمع المصري الذي يحن للتقدم والتطور ويعمل لهما كلما استطاع .

ومن الممكن تحديد هذه « المخدرات » بوضوح واخلاص على ضوء حاجات المجتمع واهدافه . ولا شك ان وسائل المصادرة الفكرية تختلف عن وسائل المصادرة المادية .. ونقطة الارتكاز في المصادرة الفكرية هي : النقد الحر الصريح الذي تتكافأ فرصته مع فرصة ما يمكن ان نطلق عليه اسم « المخدرات الفكرية » التي نعتقد ان اوضح مثال لها هو ما تصدره مؤسسة فرانكلين من كتب دورية .

خاض الفكر المصري اذن في العام الماضي معركة مخلصة إشترك فيها عدد كبير من الكتاب الشباب ، كان هدفهم فيها هو التغلب على العوائق التي تحول بين الفكر المصري وبين الحياة . كانوا يهدفون الى وضع ضوابط اخلاقية للعمليات التجارية التي تتحكم في الفكر على ان تستمد هذه الضوابط قيمها من صالح المجتمع وصالح الحضارة المصرية العربية الانسانية في مرحلتها الراهنة .. وكانت هذه المعركة حينما طالب الصحفيون الشبان بعدم اصدار المجلات الامريكية في طبعاتها العربية . وكان هدف المعركة هو تنبيه الضمير المصري العربي ، والتعبير عن حاجاته الفكرية الراهنة تعبيراً تتبلور مفاهيمه في نماذج واقعية واضحة ، وقد نجحت المعركة تماماً ، واصدر الصحفيون المصريون قراراً يؤيدون فيه الاقتراح الذي قدمه الرسام المصري الشاب : طوغان يطالب فيه بعدم اصدار هذه المجلات .

القضية الثانية التي شغلت الفكر المصري في موجة عام ١٩٥٥ هي : الاحساس على صورة ما بضرورة تغيير اتجاه الحركة النقدية تغييراً اساسياً ، فنقطة الارتكاز التي كان النقد العربي المصري يعتمد عليها في مراحله السابقة وهي : الشخصية الفنية مرة والشكل الفني مرة اخرى ، او هما معاً .. كان الناقد يسعى الى تفسير شخصية الفنان معتمداً على اعماله الفنية . وكان مرة اخرى يعمل على ايضاح الشكل الفني في التكنيك او غير ذلك معتمداً على المقارنة المستمدة من تراث الادب العربي او تراث الادب في الغرب بالاضافة الى نشاطه الراهن . ولكن نقطة الارتكاز في النقد الجديد ، والتي ينظر على اساسها الى

النشاط الثقافي في الوطن العربي

تقييم العمل الفني والشخصية الفنية .. هذه النقطة الجديدة هي المفهومات المستمدة من واقع الحياة كمفهوم العمل والحب والعلاقة الاجتماعية وغير ذلك ، فلا العمل الفني هو نقطة الارتكاز ولا الفنان .. كلاهما عنصر يدخل في حركة الحياة ، وتتحدد قيمته بمدى ما اضافه الى هذه الحركة . لقد انتهت الوهية الفنان وقداسته ، وتفسيرت عبودية الحياة للعمل الفني ، وصارت الحياة - كما في الحقيقة - هي الام ، هي النبع ، هي التيار الرئيسي .. وليس ما يعني النقد الجديد هو ان يقوم العمل الفني ليحصل على فن « نفاخر به بين الامم » بل هو أن يحصل على عمل فني مؤثر صادق الارتباط بالام ، بالنبع ، بالتيار الاساسي الذي هو : الحياة بما لها من خصائص موضوعية لتحديد أبعاد يمكن الوصول اليها .

إن النقد المصري قد اكتشف دون شك مجالات جديدة في الفن ، ومن هذه المجالات بانت في وضوح الضوء ظواهر وحقائق عديدة كانت مطموسة من قبل . ويكفي ان نشير الى مثالين هامين يمثلان تغيراً اساسياً في النظر الى موضوع صحب النقد المصري طيلة ربع قرن كامل. هذا الموضوع هو : مسرح الحكيم، والمثالان هما دراسة الاستاذ محمود العالم لمسرحية «اهل الكهف» على ضوء علاقتها بالمصريين ومأساة الزمن عندهم، وثانيهما دراسة الدكتور عبد القادر القط لمسرح الذهني عند الحكيم على ضوء مفهومات العمل والزمن والامومة والعلاقة الاجتماعية وتاريخية الاسطورة - كذلك اكتشفت الحركة النقدية - في مرحلة جديدة - تراثنا الشعبي واخرجته الى مجال الدراسة والتقييم ، فظهر كتاب « الأدب الشعبي » للاستاذ أحمد رشدي صالح ، كما ينشر الاستاذ زكريا الحجاوي صياغة جديدة موجهة للقصة الشعبية المعروفة : « الادهم الشرقاوي ». وهذه المرحلة من دراسة الادب قد سبقتها مرحلة اخرى في الجامعة : حيث كتب الدكتور عبد الحميد يونس دراستين عن ملحمتين شعبيتين، كما كتب الدكتور عبد العزيز الاهواني دراسة للشعر الشعبي في جزء من التراث العربي هو : الادب الاندلسي ، ولم تمن الجامعة باظهار هذه الدراسات حتى اليوم .

هناك ايضاً خطوط كانت تشارك بوضوح في تكوين الاطار العام للموجة الفكرية في عام ١٩٥٥ ، تلك الموجة التي تمثل ما نسميه بالتيار الثقافي الحقيقي الصادق والتي تنفصل تماماً عن ذلك التيار الآخر الذي هو خليط من العناصر التي لا تمثلنا بحال . وهي مهما كانت واسعة الانتشار بسبب ما لها من امكانيات - انما تمثل عائقاً ثقافياً لا ظاهرة ثقافية .. من هذه الخطوط الاخرى والتي نحب ان نشير اليها اليوم اشارة سريعة لحاجتها ان تدرس بالتفصيل : ازدياد الاهتمام بالفكر السياسي بما هو فكر موضوعي له خطره وعليه مسؤوليات فكرية اساسية . ولعل اقرب مثال يمكننا ان نضربه هو زيارة الصحفيين المصريين لروسيا واهتمامهم، وبخاصة الكتاب الشبان منهم كأحمد بهاء الدين - بتسجيل مشاهداتهم الفكرية لا المادية وحسب ، بل واخضاع المشاهدات المادية لبعض الضوابط الفكرية التي تحدد الاساس النظري للواقع المادي في روسيا . وخط آخر من هذه الخطوط الجديدة هو الاهتمام بتحديد علاقة الدين بالمجتمع على اساس جديد يبلور اتجاه الواقع العملي في حياة المدينة التي تزحف بحضارتها وما تحمله من قيم اجتماعية الى مسرح وجودنا المعاصر. ان تراث الفكر الديني عند العرب كما وصل الينا كان مشغولاً بأن يجعل من اللامعقول معقولا . اما المعقول نفسه فلم يكن يعنيه ان يفكر فيه ، وان يعمل على الا يتحول الى لا معقول . كانت القضية التي يعرض لها هي - مثلاً - كيف وجد العالم . اما قضية العالم نفسه ، العالم الموجود والذي يتطلب النظام والاستقرار ، فلم تكن بالنسبة لهذا الفكر الديني الا في مرتبة ثانية قد لا تأتي أبداً .. فالفكر الديني اليوم يحاول ان يتجه اتجاهاً مستنيراً لوضع اساس جديد للعلاقة بين الدين والمجتمع . وحسبنا ان نشير الى المعركة التي دارت اخيراً على صفحات مجلة « روز اليوسف » على اثر مقال كتبه الدكتور محمد احمد خلف الله عن رأي الدين في شكل من اشكال العلاقات الاجتماعية هو : الزواج ، وكانت وجهة نظره تميل الى وضع اساس للتفكير في الدين من زاوية التطور الاجتماعي الذي يفرض مظاهره المختلفة على الحياة والتي لا بد ان يستجيب لها الفكر في مختلف مجالاته ويعمل على تنظيمها ومساعدتها على النمو .. وليست هذه المعركة القصيرة بذات قيمة في نفسها اذ انها ضيقة ومحدودة ، بل ان قيمتها كامنة فيما تشير اليه وتدل عليه من طبيعة الموقف الديني الجديد .

بقي ان نشير الى بعض العوائق التي تعترض الحركة الفكرية اليوم وقد أشرنا الى معظمها ضمن العرض السابق لمختلف الظواهر، ولكننا نعود فنركز هذه العوائق في مظهرين اساسيين :

اولهما ان التقدم التكنيكي سابق على المستوى الاجتماعي في

النشاط الثقافي في الوطن العربي

وسائل التعبير المختلفة ، وعلى رأسها الاذاعة والصحافة ، ولهذا التفوق التكنيكي اسبابه الخطيرة وله نتائج ذات اثر بالغ ،وسوف نعرض لهذه الظاهرة بالتفصيل في مناسبة قادمة .

ثانيهما : شدة الإغراء الاجتماعي الذي يحول بين الكتاب وبين الالتزام الخاص لما يؤمنون به ، او يسلك بهم طريق الاستسلام والتنحي عن المسؤوليات الكبيرة الملقاة على عاتق الفكر في هذه المرحلة - وقد شاركت الظاهرة الاولى .. ظاهرة التفوق التكنيكي السابق على المستوى الاجتماعي في خلق الظاهرة الثانية وتأكيدها . فقد ساهمت الصحافة والاذاعة في خلق قيم اجتماعية مسيطرة وبعيدة في نفس الوقت عن التقدير السليم العادل لمعنى : وجود الانسان في مجتمع ينا صر الفرد بالقدر الممكن وبلا عداء ، كما ساعد على هذه الظاهرة ايضاً تحكم بعض القوى المادية الكبرى ذات الاهداف البعيدة في مراكز الانتاج الفكري من دور النشر والصحافة وغير ذلك .

واخيراً نشير الى ان هناك تجارب خطيرة قد مر بها المجتمع المصري في هذه المرحلة من حياته ، وسوف يكون لهذه التجارب اثرها البعيد - سلباً او ايجاباً - في استقرار الحياة الاجتماعية في مصر ، وسوف يكون لهذه التأثيرات الهامة انعكاساتها الرئيسية على الوضع الفكري في مصر . وحسبنا ان نشير الى هذه التجارب الخطيرة راجين ان نعود اليها كلما استدعت ذلك مناسبة من المناسبات ، تلك التجارب هي : استقلال السودان ، وعقد اتفاقية السد العالي بين امريكا وبريطانيا من جانب ومصر من جانب آخر ، ثم اخيراً اعلان الدستور الجديد - كما انه لا بد من الاشارة بصورة خاصة الى ان وضع قضية فلسطين يساهم مساهمة أساسية في التأثير على الاستقرار الاجتماعي وبالتالي على الحركة الفكرية .

العراق

لمراسل « الآداب » في بغداد

العلاقات الثقافية بين العراق والبلاد العربية

بالرغم من الغيوم السياسية التي تلوح في الافق العربي والفتور الملاحظ في العلاقات القائمة بين العراق وبعض الدول العربية ، فان العلاقات الثقافية بين العراق وجاراته العربيات لم تتأثر بهذه الغيوم السياسية او الفتور في الصلات بل هي وطيدة الاركان والدعائم تشارك بهذه التيارات الثقافية التي تحدث في العالم العربي ، تتأثر بها وتؤثر فيها ، حتى ان بعض نواب المجلس طالب في اللجنة المالية لزوم مساهمة العراق في النشاط الثقافي العربي بصورة فعالة وافساح المجال للمطبوعات الثقافية الصادرة في البلاد العربية بالذيوع والانتشار في العراق بتشجيعها مادياً ومعنوياً . والواقع ان العراق هو المروج الاكبر لثقافة البلاد العربية . وتقوم الدوائر المختصة فيه بتشجيع هذه المطبوعات الثقافية وشراء المفيد منها لدوائرها الثقافية .

وقد قامت وزارة المعارف بقسطها الكبير في هذا التشجيع وارصدت في ميزانياتها المبالغ الضخمة له وكان وزير المعارف السابق والوزير الحالي من المشجعين لهذه الناحية المهمة والمقدرين لها . وكل طلب يقدم من دور النشر في البلاد العربية او من مؤلفين عرب بغض النظر عن ميولهم يقابل بالعناية والدرس والتمحيص ، لذلك تفكر وزارة المعارف بزيادة توطيد العلاقات الثقافية بين العراق والبلاد العربية بتوسيع دائرة العلاقات الثقافية فيها واختيار مدير كفء نزيه يقوم بادارتها وموظفين مثقفين يعملون في هذه المديرية لكي يتم توسيع دائرة الثقافة في العراق .

والخلاصة ان الوضع الحالي يبشر بازدهار العلاقات الثقافية بين العراق وجاراته العربيات ويزيد هذه الصلات وثوقاً في المستقبل القريب .

أشتات ادبية

انجز الدكتور بشير فرنسيس مسكوني خريج جامعة باريس ترجمة كتاب خطي في التاريخ العراقي القديم عن اللغة الفرنسية هو « الحياة اليومية عند البابليين والآشوريين » تأليف العلامة الآثاري ومحافظ متحف اللوفر الدكتور جورج كونتنو المشهور بمؤلفاته الثمينة ولا سيما كتابه (الآثار القديمة البابلية - الاشورية) باربعة مجلدات يشمل العراق القديم منذ فجر التاريخ حتى بدء الميلاد .

* اصبح في حكم المقرر تعيين الدكتور عبد الستار الجراري مدير التعليم الابتدائي الآن في منصب مدير العلاقات الثقافية العام التي كان يشغلها سابقاً .

* كان قدوم الاستاذ امين نخلة الى بغداد مظاهرة ادبية - وقد التف حوله الادباء والشباب واقيمت له الولائم والحفلات . وقد تحدث الاستاذ نخله بعدة احاديث ادبية للصحف .

النشاط الثقافي في الوطن العربي

* انهى الاديب العراقي الاستاذ عبد الرزاق محيي الدين الذي يقيم في القاهرة الآن وضع اطروحته الدكتوراه بالآداب عن (الشريف الرضي وآثاره) وقد احيلت الى اللجنة المختصة ولم يحدد موعد مناقشتها بعد. والجدير بالذكر ان الدكتورة سهير القلماوي هي المشرفة على اعداد هذه الاطروحة .

* يواصل الشاعر نعمان ماهر الكنعاني المقدم في الجيش العراقي اعداد موسوعة شعرية بعنوان (عيون الشعر العربي) منذ الجاهلية حتى الفترة المظلمة .

* قريباً ينجز البحاثة العراقي الاستاذ عبد الرزاق الحسني اصدار الجزءين السابع والثامن من تاريخ (الوزارات العراقية) وقد طبعهما في بيروت .

* يقوم المعهد الدولي للدراسات الادارية التابع لليونسكو بوضع كتاب عن العراق وتقوم وزارة المعارف بتزويد المعهد بالقوانين اللازمة للاستعانة بها في وضع هذا الكتاب .

* سافر الى بيروت ومنها الى بعض العواصم العربية فباريس الاستاذ كوركيس عواد امين مكتبة المتحف العراقي منتدباً من الاونسكو للبحث عن المخطوطات العربية النادرة في مختلف المكتبات لوضع فهرس شامل لها تمهيداً لطبع ما هو مهم منها .

* اقترحت جريدة (البلاد) على جمعية خريجي الجامعة الاميركية في بيروت ان تقوم بطبع الكتب والرسائل التي يضعها خريجو هذه الجامعة وينالون بها الدرجة العلمية وبينها اطروحات نفيسة في شخصيات عربية لبنانية معاصرة كان لها ابعد الاثر في النهضة الحديثة .

صندوق البريد

حول عدد « الفنون »

اكاد اقول ان قراء العدد الممتاز فئتان . فئة مختصة بشكل مباشر بأحد الموضوعات التي تعرض لها العدد ، وفئة يمكن ان نقول عنها بلفظة عامة انها الفئة المثقفة ، اي ذلك الجمهور الذي حقق له مستواه الثقافي القدرة على التذوق وتقدير الآثار الثقافية الكبرى بحسب مقياس نموذجي هوحصيلة الثقافة العامة لمدى افرادها ، دون ان تؤلف بعناية إمكانية متعمقة، كتلك التي للمختص في فن معين .

والفئتان يتحداها هذا العدد. وإنني لاحسب ان الفكر العربي ، خلال هذا المجهود، امام أزمة ذاتية حقيقية لاول مرة . والسؤال الكبير هنا هو: الى اي حد يمكن للفكر العربي ان يقبل تحدي إمكانياته ؟ فـاذا كنا نكتب عن الفنون ، ولا نجد حقاً فناً عربياً وبالتالي ناقداً عربياً يكتب عن ذلك الفن ، فنكتب عن فن الغرب وننقد من وجهة نظره هو،ونبقى نحن دائماً بعيدين في موقف المراقب غير المشارك، والمتفرج غير المتعاطف. اذ الحياتان متناقضتان ، والمستويان يختلفان بالطبيعة لا بالدرجة فحسب .

أقول هذا وانا مدرك تماماً اننا في مثل هذه الاعمال ، كعددنا الممتاز، إنما نتيح لشخصية الفكر العربي ان تتحسس النقص الكبير الذي تعانيه . ولا احسب اننا نحتاج الى شيء كحاجتنا لمن يثير فينا شعوراً إيجابياًبالنقص لا يعمل على تحطيم ثقتنا ، بقدر ما يحثنا على إخراج إمكانياتنا .

فاذا كان هذا العدد يتحدى ، فانه ايضاً يثير ، وهنا تكمن مهمته الدقيقة في هذا الطور الخطير من بعثنا العربي .

حماه **مطاع صفدي**

عدد الفنون من « الآداب »

عندما قرأت العدد الاخير من مجلة الآداب وهو الخاص بالفنون * كنت اود بعد الانتهاء من قراءته ان تزداد ثقتي بنمو الحركة الفنية في شرقنا العربي .. ولكن للاسف احسست بنفسي ترزح تحت ثقل بـأس مرير متراكم في اغلب مواد العدد وبين كلمات كثير من محرريه .

لقد كان العدد بشكل عام اشبه بجنازة للفن في بلادنا .. بل جنازة تنقصها حتى كلمات المديح والثناء على الفقيد المرحوم .

وليس معنى هذا اني اعارض النقد الذي يضع يده على المآخذ في اي عمل فني .. ولكني هنا آخذ على ما جاء في العدد من نقد يكاد يترفع عن مناقشة اعمال فنانينا في الفترة الاخيرة واعتبارها اقل شأناً من ذلك ... فاذا اضفنا الى ذلك الكتابات التي تناولت مهمة التاريخ والمقالات التي تحدد مهمة الفن والفنانين وترسم لهم الطريق الذي يجب ان يسلكوه لاحسسنا بخيبة امل .

* لا يفوتني قبل أن ابدي رأيي في عدد الفنون لمجلة الآداب ان انوه عن الدافع المشكور الذي جعل الدكتور سهيل ادريس يفرد عدداً ضخماً خاصاً بمشاكلنا الفنية في شرقنا العربي .. وكنت اود في كلمتي التالية ان اناقش الكثير من المسائل بالتفصيل .. ولكن غنى العدد بالموضوعات والآراء المتعددة جعلني اقتصرعلى هذه العجالة ..مفضلاً ان تناقش هـذه الاراء بشكل اوفى في اكثر من كلمة وفي وقت اكثر رحابة .

وليمة « الآداب »

اخي رئيس التحرير

يولم الناس الولائم كلما غاب عنهم عام واطل عليهم عام . وهمهـم الاكبر في مثل هذه الولائم هو صرف الفكر والقلب عن كل هم ما خلا الهم بالبطن وشهواته . ولهم في اشباع تلك الشهوات فنون عجزت حتى الابالسة عن الاتيان بمثلها .

اما « الآداب » فقد اولت لقرائها وليمة سخية جداً في مستهل هذا العام الذي هو الرابع من حياتها المديدة ان شاء الله . فعددها الممتاز الخاص بالفنون ، يحفل بشتى الالوان التي لا نصيب للبطن فيها . وفيها الكثير مما يثير الفكر ، ويوقظ اشواق القلب الى المعرفة والجمال ، ويذكر الانسان بانه اكثر من حيوان .

لقد انصفتم الفنون كلها : الرسم ، والنحت ،والرقص، والموسيقى والغناء ، والمسرح . وما نسيتم السينما . الا الشعر، فما اتيتم على ذكره ولعل مرد ذلك الى ان كل عدد من اعدادكم العادية يحمل منه الشيء الكثير . حتى ليكاد يكون ابن « الآداب » المدلل .

اهنئك وزميليك بهذا العدد الذي هو بحق ممتاز . واتمنى لكـم اطراد التقدم والفلاح .

الخاص

ميخائيل نعيمه

وسأحاول هنا ان استعرض امثلة عاجلة لذلك في بعض المقـالات المنشورة في عدد الفنون ممثلاً في استفتاء الآداب عن الفن والحياة العربية. يقول الاستاذ مصطفى فروخ بالنص الواحد « لا يرجى من الفن الحاضر خير ونهضة»وهو يرجع هذه الخيبة الفنية الى عوامل الحسد والحقدالملعونة.

ويرى الاستاذ قيصر الجميل ان قيمة الموضوع في اللوحة ضئيلة جداً . فاللوحة عمل فني مستقل وهي دنيا الفنان يسبغ عليها من عقله وقلبه مـا يمنحها بسمة غريبة..ثم هو بعد ذلك ينبه الفنانين الى ان واقعنا الاجتماعي لا يخلو من طرافة فيها كثير من الاغراء لعمل لوحة او تمثال او قصيدة شعرية .

اما الزميل فؤاد كامل فانه اوخ تطور الفن المصري كله من خـلال تطور مدرسة فنية معينة بل لقد نعى على الصحافة المصرية اليوم خلوها من نقاد معينين يدينون بنفس تفكير هذه المدرسة ، ولم ير في منعدام من الفنانين والنقاد الذين يخالفونهم في الرأي اي قيمة تذكر بل اعتبر انتاج بعضهم محاولات ذات صفة مستمرة ومترددة وغير واضحة المعالم .

وحمدي غيث .. تحدث عن المسرح المصري فلم يعكس لنـا الا صورة للفترات التي انتكس فيها هذا المسرح ولم يذكر لنا شيئاً عن تلك الفترات او المحاولات التي حققت اي تقدم فيه .

ويستعرض الاستاذ فاتح المدرس فنوننا فيصل الى ان وضعنا مخـز وقيمتنا رخيصة وان على من يقف منا في صف الامم ان يستحي ويطرق.

وكذلك الاستاذ منير سليمان يقرر في اجابته عن الاستفتاء بأننـا لا نستطيع ان ندعي انه يوجد فن في البلدان العربية .

ولنأخذ مثلاً آخر لما جاء في عدد الفنون من الموضوعات التي اهتمت بالتاريخ .

هذا المقال الذي نشر بعنوان « يقظة الوعـي التصويري في مصر » والذي يؤكد انه منذ ان اصبحت مصر دولة اسلامية لم يبد الرسـم

المصري الخالص الا بمجزه عام ١٩٤٦ ... والحقيقة انك اذا قرأت هذا المقال خيل اليك انك تقرأ اعلانا .. تماماً كما تقرأ عن سلعة ما انها كبيرة ولذيذة . او عن سلعة اخرى انها سر جاذبية وسحر اي سيدة عصرية.. ولعل أكثر ما جاء في هذا المقال انصافا هو توقع كاتبه الدهشة التي ستصيب القاري عندما يقرأ هذا الحكم التاريخي الغريب في فن الرسم المصري الخالص!

واخيراً لنأخذ مثلا هذه المواضيع التي اهتمت بالمدارس التجريدية وجعلتها هدفاً لأعمال الفنانين المعاصرين.. إن هذه المقالات لتدعو في النهاية الى انعزال الفنان عن واقعه ومجتمعه وعن التأثر به والتعبير عنه بل والتأثير فيه ايضاً..

وبعد .. أهذا كل ما يمكن قوله عندما نذكر فنوننا في الفترة الاخيرة؟ أنستطيع ان نعتبر هذا تأريخاً ونقداً وتوجيهاً صحيحاً لكل ما جاهد من أجله وحققه فنانونا في الفترة الاخيرة ؟. أهذا كل ما يقال عن الجهد المتواصل للفنانين لتفهم دورهم ؟ وهل كل المحاولات التي قاموا بها لاتتعدى التخبط بين مختلف الاتجاهات الفنية الغربية ؟

وهذا الوعي الذي انتظم اخيراً عدداً كبيراً من فناني العرب فتبينوا موقفهم من شعوبهم ومن الانسان ووقفوا معه يدافعون عن كرامته وسلامته في معاركه المختلفة ..

وهذه الفنون الجماهيرية التي استبدلت منابر خاصة كاللوحة والمعرض بمنابر عامة كالصحافة .. ألم تتطور وتلعب دوراً هاماً بين جماهير عريضة لم تكسبها اللوحة في يوم من الايام في شرقنا العربي .

ما هو موقف هؤلاء المؤرخين والنقاد من كل هذا ؟. أهو كما جاء بشكل غالب في عدد الفنون ؟

كنا نود ان تطلع علينا مجلة الآداب بكلمات اخرى اكثر انصافاً .. وأعمق توجيهاً .. كلمات تنثر الامل في نفوس فنانينا وتدفعهم دفعة اخرى الى الامام .

القاهرة — جمال كامل

« ربيبة الشارع »

القصة المنشورة تحت هذا العنوان في العدد الثاني عشر من السنة الثالثة للكاتبة أسما حليم قصة موفقة بلا شك . ولكن الشيء الذي يلفت النظر ان قلم الدكتور طه حسين قد عالج هذه الفكرة بالذات في قصة تصويرية رائعة لفتاة بلهاء اغتالها شاب أبله الفريزة – ان صح ذلك – فدس في احشائها جنيناً كما قال الدكتور في تعبيره الرائع الذي لا زلت اذكره فلعل الكاتبة معجبة اشد الاعجاب بالدكتور طه مما جعلها تختزن هذه القصة فترة طويلة في عقلها الباطن ثم تنشرها هذه الايام على انها صورة منتزعة مما يجري في حي من احياء مصر . وبهذه المناسبة أسأل الآداب لماذا تصر على تسمية مصر بفتح الميم* في باب « النشاط الثقافي في العالم العربي » وفي القرآن – ادخلوا مصر – بالكسر فهل هناك رأي آخر .

القاهرة — محمد الشاذلي

تصحيح

وقع خطأ في نسبة لوحة « فتاة تتجمل » الى صاحبها الحقيقي . فهذه اللوحة المنشورة في صفحة ٦٦ من عدد الفنون الماضي هي للفنان طارق مظلوم ، لا للفنان حافظ الدروبي . فاقتضى التنويه .

* هذا بكل بساطة خطأ من الخطاط سنستدركه في العدد القادم «الآداب»